تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد التاسع

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد التاسع

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتصحيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تأليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم. دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٧ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٩)
المؤلف............ السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر............ مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة............ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة .... ستاره
عدد المطبوع............ (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٩) .... ١ ـ ٢٨٥ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر............ ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية. ابيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيّ ولا رسول إلّا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً»[1].

وروى ابن اذينة عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الحمدين جميعا: سبأ وفاطر في ليلة لم يزل ليلته في حفظ الله وكلاءته ومن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه وأعطي من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ منتهاه»[2].

التفسير: لمّا ختم الله سورة الأحزاب ببيان الغرض في التكليف وأنّه يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته افتتح هذه السورة بالحمد له على نعمته وكمال قدرته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص ١٩٠، ومستدرك الوسائل، ج ٤، ص٣٤٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ١٩٠، ووسائل الشيعة، ج ٤، ص٨٩١.

ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

الحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم ونقيضه الذمّ وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير ثمّ ينقسم فمنه ما هو أعلى ومنه ما هو أدنى والأعلى ما يقع على وجه العبادة ولا يستحقّها إلّا اللّه لأنّ إحسان اللّه لا يوازيه إحسان أحد من المخلوقين ويستحقّ سبحانه الحمد على الإحسان والإنعام والسور المفتتحة بالحمد خمس سور: الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر.

ومن المعلوم أنّ نعم اللّه مع كثرتها غير مقدور على الإحصاء لكنّها واضحة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء قلنا: في هاتين النعمتين حالتان الابتداء والإعادة وفي كلّ من الحالتين له علينا منّة ويقتضي أن نقوم بشكرها وحمده فأشار سبحانه بنعمة الإيجاد بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وبنعمة الإبقاء والإعادة بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الحكيم الفاعل الّذي فعله على وفق العلم والمصلحة والخبير هو الّذي يعلم عواقب الأمور وبدؤها.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل في الأرض من مطر أو ميّت أو كنز أو حبّة ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الأشجار والسنابل ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من أنواع رحمته ومنها المطر والملائكة والوحي والقرآن ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ منها الكلم الطّيب لقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1] ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وقدّم ما يلج في الأرض

١ـ سورة فاطر: ١٠.

على غيره لأنّ الحبّة تبذر ثمّ تسقى وهو تعالى يدبّر كلّ هذه الأمور بعلمه وحكمته ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: هو الرحيم بعباده مع علمه بالمعاصي منهم فلا يجاء جلهم بالعقوبة ويمهلهم للتوبة وغفور وساتر عليهم ذنوبهم في الدنيا ومتجاوز عنها في العقبى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: منكروا البعث ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني يوم القيامة فردّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وأكّد إتيانها باليمين. كيف يتأكّد باليمين مع أنّهم مشركون والمسألة الأصوليّة لا تثبت باليمين؟

فالجواب أنّه سبحانه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبيان كونه دليلا هو أنّ المسيء قد يبقى في الدنيا مدّة مديدة في اللّذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدّة مديدة ويموت عليها فلولا دار يكون الجزاء فيها لكان الأمر في نهاية الظلم وعلى خلاف الحكمة والدين.

هو ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ يقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى علمه في الأجسام والإنسان روح وجسم ولا يستبعد معاده والإعادة للجزاء. ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ليكافيهم بما يستحقّونه من الثواب على صالح أعمالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ستر لذنوبهم ولهم مع ذلك رزق هنيئ لا تنقيص فيه ولا تكدير، وقيل: معنى الرزق الكريم الجنّة. والرزق الكريم ما يأتي من غير طلب.

وعن محمّد بن إسماعيل البخاريّ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج

من النار من قال: لا إله إلّا اللّه وفي قلبه وزن ذرة من الإيمان[1]. ووصف الرزق بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ ولم يصف المغفرة لأنّ المغفرة واحدة وهي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقّوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميّز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميّز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: الّذين سعوا في إبطال حججنا وفي تزهيد الناس عن قبولها مقدّرين إعجاز ربّهم. بزعمهم وظانّين أنّهم يفوتونه ويسعون في ترويج كذبهم وباطلهم ﴿لَهُمْ﴾ في مقابلة الرزق الكريم ﴿عَذَابٌ﴾ من جنس سوء العذاب شديد الإيلام والزجر سوء العذاب كأنّه قال: عذاب مؤلم من أسوء العذاب.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ﴾ يجوز أن يكون منصوباً عطفاً على ﴿لِيَجْزِىَ﴾ ويجوز أن يكون مرفوعاً على الاستيناف أي: ويعلم الّذين اعطوا العلم والمعرفة بوحدانيّة اللّه وهم أصحاب محمّدﷺ عن قتادة وقيل: وهم المؤمنون من أهل الكتاب عن الضحّاك. وقيل: هم كلّ من اوتي العلم بالدين وهذا أولى لعمومه.

١ـ صحيح البخاري، ج١، ص١٦، والمستدرك، ج١، ص٧٠.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ يعني القرآن لأنهم يتدبّرون ويتفكّرون فيه فيعلمون أنّه ليس من قبل البشر وهو أي: القرآن ﴿وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: دين الله القادر الّذي لا يغالب وهو المحمود في جميع أفعاله وفي الآية دلالة على فضل العلم وفضيلة العلماء. ثمّ عاد سبحانه إلى الحكاية عن الكفّار وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعضهم لبعض أو القادة للأتباع على وجه الاستبعاد والتعجّب ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمّداﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يزعم أنكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاما ورفاتا وترابا أي: إذا تفرّقت أوصالكم وقطعتم كلّ تقطيع وأكلتكم الأرض أو السباع والطيور، والمراد بالجديد المستأنف المعاد أي: كيف يتجدّد خلقكم بأن تنشروا وتبعثوا ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: هل كذب على الله متعمّدا حين زعم أنّا نبعث بعد الموت وهو استفهام تعجّب منهم وإنكار ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: أو به جنون فهو يتكلّم بما لا يعلم.

ثمّ ردّ سبحانه عليهم قولهم: فقال: ليس الأمر على ما قالوا من الافتراء والجنون ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث والجزاء ﴿فِى ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ من الحقّ.

ثمّ وعظهم سبحانه فقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: أ فلم ينظر هؤلاء الكفّار إلى ما بين أيديهم ﴿وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كيف أحاطت بهم وذلك لأنّ الإنسان حين نظر رأى السماء والأرض قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ولا يقدر على الخروج منها فيستدلّ بهما على قدرة الله ويعرفون أنّا قادرون على إهلاكهم.

﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسفنا بأقوام وكما خسفنا بقارون ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطعة من السماء نوقعها عليهم

ونغطّيهم ونهلكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ترون من السماء والأرض والقدرة ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لدلالة لكلّ عبد رجع عن معصيته إلى طاعته فلم لا يرتدعون هؤلاء من التكذيب والكفر؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)
أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا
نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ
وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾

لمّا تقدّم ذكر عباد الله المنيبين إليه ذكر منهم من أناب وأصاب فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: أعطينا داود منّا نعمة وإحسانا وفضّلناه على غيره بما أعطيناه من النبوّة والكتاب وفصل الخطاب.

ثمّ فصّل سبحانه ما أعطاه فقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أي: قلنا للجبال: يا جبال سبّحي معه إذا سبّح، وأمر الله الجبال أن تسبّح معه إذا سبّح فسبّحت معه، وتأويله: ارجعي معه التسبيح من آب يؤوب، ويجوز أن يكون سبحانه فعل في الجبال ما يأتي به منها التسبيح معجزا له وأمّا الطير فيجوز أن يسبّح ويحصل له من التميز ما يتأتّى منه ذلك بأن يزيد الله في فطنته فيفهم ذلك.

وقيل: المعنى: يا جبال سيري معه فكانت الجبال والطير تسير معه أينما

سار وكان ذلك معجزا له والتأويب السير بالنهار. وقيل: معناه ارجعي إلى مراد داود فيما يريده من استنباط عين واستخراج معدن ووضع طريق.

القميّ قال: كان داود إذا مرّ بالبراري يقرأ الزبور تسبّح الجبال والطير والوحوش معه وألان الله الحديد بيده كالشمع حتّى كان يتّخذ منه ما أراد[1] وقال: اعطي داود وسليمان ما لم يعط أحدا من الأنبياء من الآيات علّمهما منطق الطير وألان لهما الحديد والصفر من غير نار ومطرقة وجعلت الجبال أن يسبّحن مع داود[2]. ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي: قلنا له: أن اعمل من الحديد دروعا تامّات. وإنّما ألان الله الحديد لداود لأنّه أحبّ أن يأكل من كسب يده فألان له الحديد وأمره بصنعة الدرع وكان أوّل من اتّخذها وكان يبيعها ويأكل من ثمنها ويطعم عياله ويتصدّق منه.

قال الصادق عليه السلام: **«وذلك لأنّ الله أوحى إليه يا داود نعم العبد أنت إلّا أنّك تأكل من بيت المال فبكى داود أربعين صباحا فألان الله له الحديد فكان يعمل في كلّ يوم درعا ويبيعها بألف درهم فاستغنى عن بيت المال»**[3].

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي: عدّل في نسج الدروع ومنه قيل لصانعها: سرّاد وزرّاد، المعنى: لا تجعل الحلق دقاقا فتكسر الحلق ولا غلاظا فتثقل. وقيل: معناه اجعله واصنعه بقدر الحاجة.

حكي أنّ لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها ولا يدري ما يريد أن يصنع داود ولكن لم يسأله حتّى فرغ داود منها ثمّ قام فلبسها وقال: نعم جنّة الحرب هذه فقال لقمان عند ذلك: الصمت حكمة وقليل فاعله.

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص١٩٩، وتفسير الصافي، ج٤، ص٢١١.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص١٢٦، وبحار الانوار، ج١٤، ص٣.

٣ـ انظر: الكافي، ج٥، ص٧٤، ومن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٦٢.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: وقلنا: اعمل أنت وأهلك الصالحات وهي الطاعات شكرا لله على عظيم نعمة ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: أنا عالم بما تفعلونه لا يخفى عليّ شيء ممّا تفعلونه من أفعالكم.

ثمّ ذكر سبحانه ما آتى سليمان وأعطاه من الفضل والكرامة فقال: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا لسليمان الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ أي: مسير الريح في النهار إلى الظهر مسيرة شهر ومن الظهر إلى العشاء مسيرة شهر فكانت تسير في تمام اليوم مسيرة شهرين للراكب. قيل: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس وبينهما مسيرة شهر للمسرع ويروح من إصطخر ويبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر تحمله الريح مع جنوده أعطاه الله الريح بدلا من الصافنات الجياد.

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ أي: أذبنا له عين النحاس وأظهرناها له قالوا: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيّام بلياليهنّ جعلها الله له كالماء.

﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أي: وسخّرنا له من الجنّ من يعمل له بحضرته وأمام عينه ما يأمرهم به من الأعمال كما يعمل الآدميّ بين يدي الآدميّ بإذن الله وكان عليه السلام يكلّفهم الأعمال مثل عمل الطين. قال ابن عبّاس: سخّرهم الله لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به وفي الآية دلالة على أنّه قد كان من الجنّ من هو غير مسخّر له.

قوله: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ منهم من المسخّرين ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ومن يعدل من هؤلاء الجنّ المسخّرين نذقه عذاب النار في الآخرة وفي الآية دلالة على أنّهم قد كانوا مكلّفين. وقيل: معناه نذقه عذاب النار في الدنيا وأنّ الله سبحانه وكلّ بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ وهي بيوت العبادة أو البيوت الشريفة العالية وكان ممّا عملوه بيت المقدس وقد كان اللّه عزّ وجلّ سلّط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد فأمرهم داود أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصعيد بالذراريّ والأهلين ويتضرّعوا إلى اللّه لعلّه يرحمهم وذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد وارتفع داود فوق الصخرة فخرّ ساجدا يبتهل إلى اللّه وسجدوا معه فلم يرفعوا رؤوسهم حتّى كشف اللّه عنهم الطاعون.

فلمّا أن شفّع اللّه داود في بني إسرائيل جمعهم داود بعد ثلاث وقال لهم: إنّ اللّه قد منّ عليكم ورحمكم فجدّدوا له شكرا بأن تتّخذوا من هذا الصعيد الّذي رحمكم اللّه فيه مسجدا ففعلوا وأخذوا في بناء بيت المقدس وكان داود ينقل الحجارة لهم على عاتقه وكذلك خيار بني إسرائيل حتّى رفعوه قامة ولداود يومئذ سبع وعشرون ومائة سنة فأوحى اللّه إلى داود أنّ تمام بنائه تكون على يدي ابنه سليمان.

فلمّا صار داود ابن أربعين ومائة سنة توفّاه اللّه واستخلف سليمان فأحبّ إتمام بيت المقدس فجمع الجنّ والشياطين وقسّم عليهم الأعمال يخصّ كلّ طائفة منهم بعمل فأرسل الجنّ والشياطين في تحصيل الرخام والمها[1] الأبيض الصافي من معادنه وأمر ببناء المدينة من الرخام والصفائح وجعلها اثني عشر ربضا وأنزل كلّ ربض منها سبطا من الأسباط.

ولمّا فرغ من بناء المدينة ابتدأ في تتميم المسجد فوجّه الشياطين فرقا فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها وفرقة يقلعون الجواهر

١ـ الرخام: المرمر والمها جمع المهاة مثل لها جمع لهات: البلور، والصفائح جمع الصفيحة: الحجر العريض، والربض: مسكن القوم أو ما حول المدينة من بيوت ومساكن أو هو سور المدينة.

والأحجار من أماكنها وفرقة يأتون بالمسك والعنبر وسائر الطيب وفرقة يأتونه بالدرّ من البحار فاوتي بشيء من ذلك لا يحصيه إلّا اللّه ثمّ أحضر الصنّاع وأمرهم بنحت تلك الأحجار حتّى صيّروها ألواحا ومعالجة تلك الجواهر واللآلي قال: وبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمّده بأساطين المها الصافي وسقّفه بألواح الجواهر وفضّض سقوفه وحيطانه باللآلي واليواقيت والجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

فلمّا فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنّه بناه اللّه فاتّخذوا ذلك اليوم عيدا. فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتّى غزا بخت‌نصّر بني إسرائيل وخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضّة والدرّ والجواهر فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق.

قال سعيد بن المسيّب: لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه فعالجها سليمان فلم تنفتح حتّى قال في دعائه: بصلوات أبي داود إلّا فتحت الأبواب فتتحت ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار فلا يأتي ساعة من ليل ولا نهار إلّا ويعبد اللّه فيها فهذا معنى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ إشارة إلى الأبنية الرفيعة و«التّماثِيلُ» ما يكون فيها من النقوش أي: صورا من نحاس وشبه[1] ورخام وزجاج كانت الجنّ تعملها ثمّ اختلفوا فقال بعضهم: كانت صورا للحيوانات وقال آخرون: كانوا يعملون صور السباع والبهائم على

١ـ الشبه: النحاس الأصفر.

كرسيّه ليكون أهيب له فذكروا أنّهم صوّروا أسدين أسفل كرسيّه ونسرين فوق عمودي كرسيّه فكان إذا أراد أن يصعد الكرسيّ بسط الأسدان ذراعيهما وإذا علا على الكرسيّ نشر النسران أجنحتهما فظلّلاه. ويقال: إنّ ذلك كان ممّا لا يعرفه أحد من الناس فلمّا حاول بختنصّر صعود الكرسيّ بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدّها فخرّ مغشيًا عليه فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسيّ.

وقالوا: ولم تكن ذلك اليوم التصاوير محرّمة وهي محظورة في شريعة نبيّنا فإنّه ﷺ قال: لعن اللّه المصوّرين[1] ويمكن أن يكره ذلك في زمن دون زمن كما أنّ المسيح كان يصوّر بأمر اللّه من الطين كهيئة الطير. وقال ابن عبّاس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعبّاد في المساجد ليقتدى بهم وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«واللّه ما هي تماثيل النساء والرجال ولكنّها الشجر وما أشبهه».**[2] والتماثيل واحدها تمثال وأصلها من المثول وهو القيام كأنّه نصب قائما. ومنه الحديث: **«من سرّه أن يمثل له الناس فليتبوّأ مقعده من النار»**[3].

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: يعملون له صحافا في الكبر كالجابية وهي الحياض الّتي يجمع ويجبى فيها الماء وكان سليمان يطعم جنده ويصلح طعام جيشه في مثل هذه الجفان فإنّه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم وكان يجمع على كلّ جفنته ألف رجل يأكلون بين يديه ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ أي: مراجل ثابتات لا يزلن عن أمكنتهنّ لعظمهنّ وكانت باليمن.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص و٢٠٣، وبحارالانوار، ج١٤، ص٧٨.

٢ـ المحاسن ، ج٢، ص٦١٩، والكافي، ج٦، ص٥٢٧.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٩٩، وانظر: مسند أحمد، ج٤، ص٩٣.

وقيل: كانت كالجبال عظيمة يحملونها مع أنفسهم.

ثمّ خاطب سبحانه آل داود وأمرهم بالشكر فقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أي: اعملوا بطاعة الله شكرا له وفيه دلالة على وجوب شكر النعمة وأنّ الشكر طاعة تعظيم للمنعم وخصّ الأمر بآل داود فإنّ لقرابة الأنبياء أثرا في القرب. قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ والشكور من تكرّر منه الشكر لأنّه المبالغة في الشاكر وفي هذا دلالة على أنّ المؤمن الشاكر يقلّ في كلّ عصر.

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فلمّا حكمنا على سليمان بالموت ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ أي: مطردة، آلة الطرد، من نسأت البعير إذا طردته.

أي: ما دلّ على موته إلّا الأرضة ولم يعلموا بموته حتّى أكلت عصاه فسقط فعلموا أنّه ميّت وذلك لأنّ سليمان كان يعتكف في مسجد بيت المقدس الشهر والشهرين والسنة والسنتين واليوم واليومين يقف للعبادة منتصبا وإذا عجز عن القيام في العبادة يتّكئ على عصاه ويتعبّد ولا يخرج من معبده ويدخل فيه طعامه وشرابه. وكان آصف يدبّر أمره في الملك فلمّا كان في المرّة الّتي مات فيها ولم يكن يصبح يوما إلّا وتنبت شجرة كان يسأله سليمان فتخبره عن اسمها ونفعها وضرّها فرأى يوما نبتا فقال: ما اسمك؟ قال: الخرنوب قال: لأيّ شيء أنت؟ قال: للخراب فعلم أنّه سيموت فقال: اللّهم عمّ[1] على الجنّ موتي ليعلم الإنس أنّهم لا يعلمون الغيب وكان قد بقي من بنائه سنة وقال لأهله: لا تخبروا الجنّ موتي حتّى يفرغوا من بنائه ودخل محرابه وقام واتّكأ على عصاه فمات وبقي سنة وتمّ البناء ثمّ سلّط الله على منسأته الأرضة حتّى أكلتها فخرّ ميّتا فعرف الجنّ موته وكانوا يحسبونه حيّا

١ـ امر من عمى يعمي تعمية.

لمّا كانوا يشاهدون طول قيامه قبل ذلك.

وكان في إماتته قائما وبقائه كذلك أغراض: منها إتمام البناء، ومنها أن يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلم الغيب وأنّهم في ادّعاء ذلك كاذبون ومنها أن يعلم أنّ من حضر أجله فلا يتأخّر إذ لم يؤخّر سليمان مع جلالة شأنه. وروي أنّه اطّلعه الله على حضور وفاته فاغتسل وتحنّط وتكفّن والجنّ في عملهم.

وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ سليمان أمر الشياطين فعملوا له قبّة من قوارير فبينا هو قائم متّكئ على عصاه في القبّة ينظر إلى الجنّ كيف يعملون وهم ينظرون إليه ولا يصلون إليه إذا رجل معه في القبّة فقال: من أنت فقال: أنا الّذي لا أقبل الرشى ولا أهاب الملوك فقبضه وهو قائم متّكئ على عصاه في القبّة**» قال: فمكثوا سنة يعملون له حتّى بعث الله الأرضة فأكلت منسأته وقد تمّ البناء[1].

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سليمان ميّتا ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ تبيّنت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أي: علمت الجنّ علما بيّنا بعد التباس الأمر عليهم أن لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته ولم يلبثوا بعده حولا في تسخيره.

وفي قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أقوال: قيل: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فحينئذ قوله: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بدل اشتمال من الجنّ وقرئ «تبينت الجن» على البناء للمفعول[2] على أنّ المتبيّن في الحقيقة هو «أن» وما في حيّزها لأنّه بدل والتقدير قال أبو عليّ: فلمّا خرّ تبيّن أمر الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب فالتبيّن حصل للإنس أنّ الجنّ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٠٥، وبحارالانوار، ج ٦٠، ص٥٣.

٢ـ أي: على قراءة يعقوب وهو ضم التاء والباء وكسر الياء من تبينت ولا فرق فان لفظ تبين هاهنا لازم غير متعد. انظر: مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٨١.

لا يعلمون الغيب وانكشف هذا الأمر للإنس وذلك لأنّ الجنّ ما ادّعوا علم الغيب ولكنّ الإنس اعتقدت فيهم أنّهم يعلمون الغيب فأبطل اللّه عقيدتهم وهذا المعنى يؤيّد قراءة ابن عبّاس والضحّاك حيث أنّهما قرءا «تبيّنت الإنس» وهو قراءة عليّ بن الحسين وأبي عبد اللّه عليهما السلام[1] وهكذا هو في قراءة عبد اللّه بن مسعود ومصحفه فقراءة يعقوب على البناء للمجهول يؤول إلى قراءة على بن الحسين والصادق عليهما السلام.

وذكر أهل التاريخ أنّ عمر سليمان عليه السلام كان ثلاثا وخمسين سنة مدّة ملكه منها أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشر سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه.

وأمّا الوجه في عمل الجنّ تلك الأعمال العظيمة فهو: أنّ اللّه تعالى زاد في أجسامهم وقوّتهم وغيّر خلقهم عن خلق الجنّ الّذين لا يرون للطافتهم ورقّة أجسامهم على سبيل الإعجاز الدالّ على نبوّة سليمان فكانوا بمنزلة الإسراء في يده فلمّا مات عليه السلام جعل اللّه خلقهم على ما كانوا عليه فلا يتهيّأ لهم في هذا الزمان شيء من ذلك.

وفي «العلل» و«العيون» عن الرضا عليه السلام عن آبائه أنّ سليمان قال ذات يوم لأصحابه: **«إنّ الله وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي سخّر لي الريح والإنس والجنّ والطير والوحوش وعلّمني منطق الطير وآتاني من كلّ شيء ومع جميع ما اُتيت ما تمّ لي سرور يوم إلى الليل وقد أحببت أن أدخل قصري في غد فأصعد أعلاه وأنظر إلى ممالكي ولا تأذنوا لأحد عليّ لئلّا يرد عليّ ما ينغص عليّ يومي قالوا: نعم فلمّا كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متّكئا على عصاه ينظر إلى ممالكه مسرورا ممّا اوتي فرحا بما اعطي إذ نظر إلى شابّ حسن الوجه واللباس،**

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٩٧، وعلل الشرايع، ج١، ص٧٤، وعيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٤٠.

قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فلمّا بصر به سليمان قال له: من أدخلك إلى هذا القصر وقد أردت أن أخلو فيه هذا اليوم فبإذن من دخلت؟ قال الشابّ: أدخلني هذا القصر ربّه وبإذنه دخلت فقال: ربّه أحقّ به منّي فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت قال: وفيما جئت؟ قال: جئت لأقبض روحك قال: امض لما أمرت به فهذا يوم سروري وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه. فقبض ملك الموت روحه وهو متّكئ على عصاه. فبقي سليمان متّكئا على عصاه وهو ميّت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدّرون أنّه حيّ فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال: قد بقي سليمان متّكئا على عصاه هذه الأيّام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب إنّه لربّنا الّذي يجب علينا أن نعبده. وقال قوم: إنّ سليمان ساحر يرينا أنّه واقف متّكئ على عصاه سحر أعيننا وليس كذلك وقال المؤمنون: إنّ سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبّر الله أمره بما يشاء.

فلمّا اختلفوا بعث الله الأرضة فدبّت في عصاه فلمّا أكلت [منه] انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه فشكرت الجنّ الأرضة صنيعها فلأجل ذلك لا يوجد في مكان إلّا وعندها ماء وطين»[1].

وفي «الإكمال» عن النبيّ ﷺ: «عاش سليمان بن داود سبعمائة واثني عشر سنة»[2].

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن
سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

ـــــــــــــــ

١ـ علل الشرايع، ج١، ص٧٣، وعيون أخبار الرضاؑ، ج٢، ص٢٣٩.

٢ـ كمال الدين، ص٥٢٤، والخرائج والجرائح، ج٢، ص٩٦٥.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ ثمّ بيّن عن قصّة سبأ بما دلّ على حسن عاقبة الشكور مثل داود وسوء عاقبة الكفور مثل سبأ، وسبأ أبو عرب اليمن كلّها وقد سمّي به القبيلة وفي الحديث عن فروة بن مسيك أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبأ أرجل هو أم امرأة؟ فقال: **«هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستّة وتشاءم منهم أربعة فأمّا الّذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأنمار وحمير»** فقال رجل من القوم: ما أنمار قال: **«الّذين منهم خثعم وبجيلة وأمّا الّذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسّان فالمراد بسبأ هاهنا القبيلة الّذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود وأظنّ أنّ سبأ لقب واسمه عبد شمس وإنّما لقّب بهذا اللقب لأنّه أوّل من سبي وغار».**(١)

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وقرئ «في مساكنهم» وفقا للمعنى و﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ على المصدريّة والتقدير: في مواضع سكناهم فلمّا جعل المسكن كالسكنى والسكون أفرد كما يفرد المصادر ﴿آيَةٌ﴾ أي: علامة وحجّة على معرفة الله وقدرته.

ثمّ فسّر الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: بستانان عن يمين البلد وشماله لمن أتى البلدة والمراد جماعتان من البساطين والجماعتان في تقاربهما وتضامّهما كأنّهما جنّة واحدة ولم يرد جنّتين اثنين والمعنى أنّها متّصلة بعضها ببعض وكان من كثرة النعم أنّ المرأة كانت تمشي والمكتل على رأسها فيمتلئ بالفواكه من غير أن تمسّ وتقطف بيدها شيئا ولم يكن

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٠٩، وبحار الانوار، ج ٧٠، ص٣٣٥.

في قريتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمّل ودوابّ ماتت والمراد بالآية قيل: هذه الأمور وقيل: الآية، كانت ثلاث عشرة قرية في كلّ قرية نبيّ يدعوهم إلى اللّه.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: كان الأنبياء يقولون لهم: كلوا من هذه النعم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ يزدكم من نعمه واستغفروه يغفر لكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: كلّ نبيّ قرية يقول لأهلها: هذه بلدة مخصّبة نزهة عذبة وليست بسبخة، طاهرة عن المؤذيات حتّى الوباء والأمراض وما كان فيها حرّ يؤذي في القيظ ولا برد يؤذي في الشتاء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة للذنوب ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الحقّ ولم يشكروا ولم يقبلوا ممّن دعاهم إلى اللّه من أنبيائه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وذلك أنّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما فسدّوا بين الجبلين فإذا احتاجوا إلى الماء نقّبوا السدّ بقدر الحاجة ويسقون زروعهم وبساتينهم فلمّا كذّبوا رسلهم وتركوا أمر اللّه فبعث اللّه في الردم جرذا نقبت ذلك الردم وفاض الماء عليهم فأغرقهم. قال ابن الأعرابيّ: «الْعَرِمِ» السيل الّذي لا يطاق وقصّة كهانة طريقه الكاهنة وعمرو بن عامر المزيقياء معروفة لا حاجة لذكرها[1].

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين فيهما أنواع الفواكه ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أخراوين، سمّاهما جنّتين لازدواج الكلام كما قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[2] و﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[3] ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ أي:

١ـ بل سيجيء ذكرها عن قريب.

٢ـ سورة آل عمران: ٥٤.

٣ـ سورة البقرة: ١٩٤.

صاحبتي أكل وهو اسم للثمر من كلّ شجر قال ابن عبّاس: «الخمط» الأراك وثمر الخمط البرير. وقيل: الخمط شجر الغضا. وقيل: هو كلّ شجر له شوك و«الأثل» الطرفاء. وقيل: هو السمر ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ يعني إنّ الأثل والخمط كانا أكثر فيهما من سدر وهو النبق وكان شجرهم خير شجر فصيّره الله شرّ شجر بسوء أعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: ذلك الّذي فعلنا بهم بسبب كفرهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بهذا الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ الّذي يكفر نعم الله.

وقد استدلّ الخوارج بهذا على أنّ مرتكب الكبيرة كافر وهذا الاستدلال غير سديد من حيث إنّه سبحانه إنّما بيّن بذلك أنّه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الّذي هو الاستيصال إلّا الكافر ويجوز أن يعذّب الفاسق بغير ذلك العذاب.

وقيل: معنى الآية هل نجازي بجميع سيّئاته إلّا الكافر لأنّ المؤمن قد يكفّر عنه بعض سيّئاته. وقيل: معنى الآية أنّ المجازاة من التجازي، وهو التقاضي أي: لا يقتضي ولا يرتجع ما اعطي إلّا الكافر وأنّهم لمّا كفروا ارتجع منهم النعمة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: إنّا جعلنا بينهم وبين قرى الشام الّتي باركنا فيها بالماء والشجر قرى مواصلة قرية متّصلة بقرية وكان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتّى يرجعوا وكانوا لا يحتاجون إلى زاد في طريقهم من وادي سبأ إلى الشام ومعنى الظاهرة أنّ الثانية كانت ترى من الاولى لقربها منها.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: وجعلنا السير من القرية إلى القرية مقدارا واحدا وهو نصف يوم وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: ليلا شئتم المسير بلا خوف أو نهار ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع والعطش والسباع والسارق

وكلّ المخاوف والمراد بيان تكامل النعمة عليهم سفرا وحضرا.

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم بطروا وبغوا ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ أي: اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب إليها الرواحل ونقطع المنازل وهذا كما قالت بنو إسرائيل: لمّا ملّوا النعمة حيث قالوا: اخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها بدلا من المنّ والسلوى.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بارتكاب المعاصي والكفر ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم يتحدّثون بأمرهم وشأنهم ويضربون بهم المثل فيقولون: تفرّقوا أيادي سبأ إذا تشتّتوا أعظم التشتّت ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم في البلاد كلّ تفريق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: دلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على الشدائد ﴿شَكُورٖ﴾ على النعماء أو صبور عن المعاصي شكور للنعم بالطاعات.

ومختصر قصّة طريفة: الكاهنة أنّها ألقت[1] إلى عمرو بن العامر الّذي يقال له: مزيقيا ابن ماء السماء، وكانت رأت في كهانتها أنّ سدّ مأرب سيخرب وإنّه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنّتين، فباع عمرو أمواله وسار هو وقومه إلى مكّة فأقاموا بها وما حولها فأصابتهم الحمّى وكانوا ببلد لا يعرفون فيه الحمّى فدعوا طريفة وشكوا إليها الّذي أصابهم، فقالت لهم: قد أصابني الّذي أصابكم وهو مفرّق بيننا، قالوا: فما ذا تأمرين، قالت: من كان منكم ذا همّ بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فيلحق بقصر عمّان المشيد، وكانت أزد عمّان، ثمّ قالت: من كان منكم ذا جلد وصبر على أزمّات الدهر فعليه بالأراك من بطن مرّان، وكانت خزاعة، ثمّ قالت: من كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل، وكانت الأوس والخزرج، ثمّ قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأمير

١ـ أي: أبلغتة الرؤيا التي رأتها.

وملابس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير - وهما من أرض الشام - وكان الّذين سكنوها آل جفنة بن غسّان، ثمّ قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق وكان الّذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

الضمير قيل: في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى أهل سبأ وقيل: إلى الناس كلّهم إلّا من أطاع اللّه. والمعنى أنّ إبليس كان قال: «لَأُغوِيَنَّهُمْ ولَأُضِلَّنَّهُمْ» وما كان ذلك عن علم وتحقيق وإنّما قاله ظنّا فلمّا تابعه أهل الزيغ والشرك صدّق ظنّه وحقّقه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المؤمنين كلّهم و«من» هنا للتبيين أي: وعلموا قبح متابعة إبليس فلم يتّبعوه واتّبعوا أمر اللّه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: لم يكن لإبليس عليهم من سلطنة ولا ولاية يتمكّن بها من إجبارهم على الضلال وإنّما كان يمكنه الوسوسة

فقط كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.[1]

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: إنّا لم نمكّنه من إغوائهم ووسوستهم إلّا لنميّز بين من يقبل منه ومن يمتنع متابعته فنعذّب من يتابعه ونثيب من خالفه فعبّر عن التمييز بين الفريقين بالعلم، وهذا التميّز متجدّد لأنّه لا يكون إلّا بعد وقوع ما يستحقّون به ذلك وأمّا العلم فبخلاف ذلك فإنّه سبحانه كان عالما بأحوالهم وبما يكون منهم في الأزل وقيل: معناه لنعلم طاعاتهم موجودة أو معاصيهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها لأنّه سبحانه لا يجازي أحدا على ما يعلم من حاله إلّا بعد أن يقع ذلك منه ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم. وهاهنا تحقيق وهو: أنّ علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكلّ معلوم وعلمه عين ذاته لا يتغيّر وهو في كونه سبحانه عالما لا يتغيّر ولكن يتغيّر متعلّق علمه فإنّ العلم يظهر به كلّ ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أنّ العالم سيوجد فإذا وجد علمه موجودا بذلك العلم وإذا عدم يعلمه معدوما بذلك العلم مثاله أنّ المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ثمّ إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته والمرآة لم تتغيّر في ذاتها ولا تبدّلت في صفاتها إنّما التغيير في الخارجات الّتي قابلت فكذلك هاهنا فقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ﴾ أي: ليقع في العلم صدور الإيمان من المؤمن والكفر من الكافر وكان قبله في علمه أنّه سيكفر زيد ويؤمن عمرو.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل يا محمّد لهؤلاء المشركين: ادعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهة وأنّهم شركاء للّه تعالى وأنّهم شفعاؤكم هل يستجيبونكم إلى ما تسألونهم وهذا نوع توبيخ ليعلموا أنّ أوثانهم لا

١ـ سورة إبراهيم: ٢٢.

تنفعهم ولا تضرّهم لأنّهم لا يتمكّنون من أن يجيبوهم. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يقدرون زنة ذرّة من خير وشرّ ونفع وضرّ فيهما ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ وليس لهم في خلق السماوات والأرض من نصيب ومدخليّة ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس له معاون على خلقهما.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لا تنفع الشفاعة عند اللّه إلّا لمن رضيه اللّه وارتضاه وأذن له الشفاعة مثل الأنبياء والملائكة والأولياء وإلّا لمن يأذن له في الشفاعة، وإنّما قال سبحانه ذلك لأنّ الكفّار والمشركين كانوا يقولون: نعبدهم ليقرّبونا إلى اللّه زلفى فحكم اللّه ببطلان عقائدهم.

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوبهم، واختلف في الضمير في قوله: ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ على قولين:

الأوّل: أنّ الضمير راجع إلى المشركين الّذين تقدّم ذكرهم فيكون المعنى حتّى إذا أخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع ليسمعوا كلام الملائكة ﴿قَالُوا﴾ إذا قالت الملائكة لهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: قال هؤلاء المشركون مجيبين للملائكة إنّ ما جاء به الرسل كان حقّا ويعترفون حينئذ بالحقّ.

والقول الثاني: أنّ الضمير راجع إلى الملائكة ثمّ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أنّ الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد ولهم زجل وصوت عظيم فتحسب الملائكة أنّها الساعة فيخرّون سجّدا ويفزعون فإذا علموا أنّه ليس ذلك قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾.

وثانيها: أنّ الفترة لمّا كانت بين عيسى ومحمّد ﷺ وبعث اللّه محمّدا أنزل اللّه سبحانه جبرئيل بالوحي فلمّا نزل ظنّت الملائكة أنّه نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبرئيل يمرّ بكلّ سماء ويكشف عنهم الفزع

فرفعوا رؤوسهم وقالت الملائكة بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي والقرآن.

والقول الثالث: أنّ الله إذا أوحى إلى بعض الملائكة لحق الملائكة غشى عند سماع الوحي ويخرّون ويصعقون سجّدا للآية العظيمة فإذا فزّع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الّذي اوحي إليه ماذا قال ربّك، ويسأل بعضهم بعضاً فيعلمون أنّ الأمر في غيرهم، عن ابن مسعود واختاره الجبّائيّ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ السيّد القادر العليّ في صفاته الكبير في قدرته.

القميّ: قال الصادق عليه السلام: **«لا يشفع أحد من أنبيائه ورسله يوم القيامة حتّى يأذن الله في الشفاعة إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ الله قد أذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة والشفاعة له في أمّته ولنا الشفاعة في شيعتنا ولشيعتنا الشفاعة في أهاليهم ثمّ قال: إنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر وإنّ المؤمن ليشفع حتّى لخادمه يقول: يا ربّ خدمني وكان يقيني الحرّ والبرد»**[1].

وعن الباقر عليه السلام قال: **«ما من أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو محتاج إلى شفاعة رسول الله ثمّ قال: إنّ لرسول الله الشفاعة»**[2] وقرى ﴿حَتَّى إِذَا فُرِّغَ﴾ بالراء المهملة والغين المعجمة بمعنى فراغ القلوب وخلوّها عن الوجل من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء.

قال العلّامة أبو السعود صاحب التفسير العلّامة المعروف في بيان الآية في قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (أي: لا تقع الشفاعة في حال من الأحوال الكائنة لمن أذن له في الشفاعة من النبيّين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبيّن

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٠١، وانظر: مجمع البيان، ج٧، ص٣٣٩.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٠١، وتفسير الصافي، ج٤، ص٢١٩، والمحاسن، ج١، ص١٨٤.

حرمان الكفرة من الشفاعة بالكلّيّة أمّا من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن في الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأمّا من جهة من يعبدونه من ملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1] ومن المعلوم أنّ الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب فعلى هذا ثبت حرمانهم عن الشفاعة وهي غير صادرة عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ والتفزيع إزالة الفزع أي: زال الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وكلمة «حتى» غاية لما ينبئ عنه قبل الكلام من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له لأنّه سأل كيف يؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون الشفعاء من موقف الاستيذان والاستدعاء على وجل وخوف وفزع مليّا حتّى ازيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيّا واللتي وظهرت لهم تأثير الإجابة.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشفوع لهم والمحتاجون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في شأن الإذن ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الشفعاء لأنّهم المتباشرون للاستئذان المتوسّطون بين المذنبين والمحتاجين إلى الشفاعة وبينه عزّ وجلّ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قال ربّنا قول الحقّ، وهو الأذن في الشفاعة للمستحقّين وقرئ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مرفوعا أي: ما قاله الحقّ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهو من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا لغاية عظمة ربّهم انتهى كلام أبي السعود.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنّهم لا يمكنهم أن يقولوا: ترزقنا آلهتنا الّتي نعبدها ثمّ عند ذلك ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الّذي يرزقكم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنّما قال ذلك على وجه النصفة في الحجة دون الشكّ كما يقول القائل: أحدنا كاذب وإن كان هو عالما بالكاذب

١ـ سورة النبأ: ٣٨.

وهذا العنوان من الكلام شائع بأن يجمع المتكلّم بين الخبرين ويفوّض التميز إلى العقول فيكون الكلام معناه: إنّا على هدى وأنتم على ضلال وإنّما يقال مثل هذا الكلام على وجه الاستعطاف والمداراة لتنبيه المخاطب ولا ينسب المحقّ نفسه إلى الهدى وخصمه إلى الضلال بل يحثّه على التأمّل والنظر.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قل يا محمّد: إذا لم ينقادوا للحجّة لا تسألون أيها الكفّار عن ما اقترفنا واكتسبنا من المعاصي ولا نسأل نحن عمّا تعملونه أنتم بل كلّ إنسان يسأل عمّا يعمله وفي هذا دلالة على أنّ أحدا لا يجوز أن يؤخذ بذنب غيره وأضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقّهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلّا يحصل الإغضاب المانع من الفهم.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ
أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه أن يحاكمهم ويكلّمهم إلى الله لإعراضهم عن الحجّة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي: يحكم ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الحاكم العالم بالحكم لا يخفى عليه شيء من الحكم ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني الّذين زعمتم أنّهم شركاء الله تعبدونهم معه فوبّخهم الله فيما اعتقدوه من الأشراك مع الله ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كما تزعمون أي: ارتدعوا عن هذا المقال ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالب الحكيم في أفعاله فكيف يكون له شريك؟

ثمّ بيّن سبحانه نبوة نبيّه فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: أنت رسول إلى عامّة البشر كلّهم كالعرب والعجم وسائر الأمم، روي عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**أعطيت خمسا ولا أقول فخرا: بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأحلّ لي الغنم ولم يحلّ لأحد قبلي ونصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة فادّخرتها لأمّتي يوم القيامة**»[1]. وقيل: «كافّا للناس» أي: مانعا لهم عمّاهم عليه من الكفر والمعاصي بالأمر النهي والهاء للمبالغة، عن أبي مسلم.

﴿بَشِيرٗا﴾ لهم بالجنّة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ بالنار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ رسالتك لإعراضهم عن النظر في معجزتك ولا يعلمون ما لهم في الآخرة في اتّباعك من الثواب والنعيم وما عليهم في مخالفتك من العذاب الأليم.

ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولونه يا معشر المؤمنين ثمّ أمر نبيّه بجوابهم ﴿قُل﴾ يا محمّد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي: لا تتأخّرون عن ذلك اليوم ولا تتقدّمون عليه بأن يزاد في آجالكم أو ينقص منها.

وفي قوله: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ قراءات: رفعهما مع التنوين وعلى هذا «يوم» بدل والثانية نصب «يوم» ورفع «ميعاد» والتنوين فيهما ووجه النصب بفعل محذوف أي: أعني يوما أو على الظرفيّة كأنّه يقول: لكم ميعاد تعلمون يوما كقول القائل: «إنّك مقتول يوما» والثالثة الإضافة أي: لكم ميعاد يوم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢١٧، وبحار الانوار، ج١٦، ص٣٠٨.

ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ
ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ
إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ
أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه حالهم في القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيل: اليهود، وقيل: هم مشركو العرب، وهو الأصحّ ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ولا نصدّق بأنّه من الله تعالى ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من أمر الآخرة أو أحكام القرآن، وقيل: المراد ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعنون به التوراة والإنجيل وذلك لأنّه لمّا قال مؤمنوا أهل الكتاب: إنّ صفة محمّد في كتابنا كذا وهو نبيّ مبعوث، كفر المشركون بكتابهم. ثمّ قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمّد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون للحساب يوم القيامة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يردّ بعضهم إلى بعض القول في الجدال. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم الأشراف والقادة ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين بآيات الله أي: أنتم منعتمونا من الإيمان ولو لا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لآمنّا بالله في الدنيا وجواب ﴿تَرَىٰٓ﴾ محذوف وتقديره: لرأيت عجباً.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أي: قال المتبوعون للتابعين على سبيل الإنكار: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: لم نصدّكم

نحن عن قبول الهدى ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنتم كفرتم ولم نحملكم على الكفر قهراً فكلّ واحد من الفريقين ورك[١] الذنب على صاحبه واتّهمه ولم يضف واحد منهم الذنب إلى الله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الأتباع للمتبوعين ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بل صدّنا مكركم بنا في الليل والنهار، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتّساعا وقرئ ﴿بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالتنوين عوض عن المضاف إليه وقرئ ﴿بَلْ مَكَرُّ﴾[٢] ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالرفع والنصب أي: تكرّون الإغواء مكرّا دائبا فالرفع على الفاعليّة أي: صدّنا مكركم في الليل والنهار والنصب على المصدريّة أي: تمكرون مكر الليل والنهار أي: مكرا دائما.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ حين أمرتمونا بجحد وحدانيّة الله ودعوتمونا إلى أن نجعل له شركاء في العبادة. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أضمر الفريقان الندامة وأخفاها كلّ منها عن الآخر مخافة التعيير.

والثاني: أظهروها فإنّه من الأضداد وهو المناسب لحالهم، كما فسّر بيت امرئ القيس على الوجهين حيث يقول:

تجاوزت أحراسا إليها ومعشـرا   عليّ حراصا لو يسرّون مقتلي

﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: حين رأوا نزول العذاب بهم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: غلّوا بها في النيران ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يجزون إلّا بأعمالهم الّتي عملوها على قدر استحقاقهم.

١ـ ورك الذنب عليه: حمله.

٢ـ مصدر ميمي من كر يكر كروراً: بمعنى رجع.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: من نبيّ مخوّف بالله ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ جبّاروها وأغنياؤها المتنعّمون فيها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وفي الآية بيان للنبيّ أنّ أهل قريتهﷺ نهجوا على مناهج الأوّلين وأنّ إيذاء الأنبياء من جانب الكفّار ليس بدعا بل ذلك عادة جرت من قبل.

ثمّ بيّن علّة كفرهم ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ أي: فاستدلّوا على كونهم مصيبين بكثرة المال والولد ظنّا منهم بأنّ الله إنّما خولهم المال والولد كرامة لهم عنده وقالوا: إذا رزقنا وحرمتم فنحن أكرم منكم وأفضل عند الله.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ولم يعلموا أنّ الأموال والأولاد ليس للإكرام والتفضّل وتستوجب الشكر لا الكفر وإنّما قالوا ذلك إمّا للإنكار منهم للعذاب رأسا أو اعتقاد الحسن حالهم في الآخرة قياسا بالدنيا. فبيّن الله خطاءهم بقوله:

قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٦)
وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧)
وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ (٣٨) قُلۡ
إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن
شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩) وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ (٤٠)

﴿قُلۡ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الّذي خلقني ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ عن ما يعلم من المصلحة للمرتزق أو لغيره ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: ويضيق أيضا على حسب المصلحة والمراد من «البسط» الزيادة على قدر الكفاية «والقدر» تضييقه عن قدر الكفاية فالسعة والضيق لا تدلّ على حال المحقّ والمبطل

فكم من مؤسر شقيّ ومعسر تقيّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمته وصلاحه سبحانه.

ثمّ كشف سبحانه عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا﴾ فإنّ المال لا يقرّب إلى الله ولا اعتبار بالتعزّز به حيث تقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا﴾ وإنّما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان بل إنّ المال والولد في الغالب يشغل عن الله ويبعد العبد عنه فكيف يقرّب به ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ أي: قربى وزلفى اسم المصدر أي: يقرّبكم قربة أو تقريبا.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: وما الأموال والأولاد تقرّب أحدا إلّا المؤمن الصالح الّذي أنفق ماله في سبيل الله وعلّم أولاده الخير والصلاح فحينئذ الاستثناء متّصل ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا مفرّغا أي: لكن من آمن بالله وصدّق نبيّه وأطاعه فيما أمره. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ وجزاء الضعف الحسنة فإنّ الضعف لا يكون إلّا في الحسنة وفي السيّئة لا يكون إلّا المثل أي: يضاعف الله حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرا إلى ما زاد والضعف اسم جنس يدلّ على الكثير والقليل ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في غرف الجنّة وهي البيوت المرتفعة فوق الأبنية مأمونين غير خائفين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ ويجتهدون في إبطال آياتنا وتكذيبها معاجزين لأنبيائنا أو زاعمين أنّهم يفوتوننا أو مثبّطين غيرهم عن أفعال الخير ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: ثابتون ودائمون.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ مرّ تفسيره وإنّما كرّره سبحانه للاختلاف فالأوّل: توبيخ للكافرين والثاني: وعظ للمؤمنين وإشارة إلى معنى وهو أنّ نعيم الآخرة قد يكون لا ينافي نعيم الدنيا

بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعيم مع حصول النعم لهم في العقبى كما قال ﷺ: «**وقد يجمعها الله لأقوام**»، كأنّه قال: إنّ وجود الرزق لا يدلّ على عدم الشرف ولا يدلّ على الشرف.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: وما أخرجتم من أموالكم في وجوه البرّ فإنّه سبحانه يعطيكم خلفه وعوضه إمّا في الدنيا بزيادة النعم وإمّا في الآخرة بثواب الجنّة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنّه يعطي المنافع لا لدفع ضرر أو جرّ نفع لاستحالة المنافع والمضارّ عليه، وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**قال الله عزّ وجل لي: أنفق أنفق عليك**»[1]. وعن جابر عن النبيّ ﷺ قال: «**كلّ معروف صدقة وما اوقي به الرجل عوضه فهو صدقة وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا إلّا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية**»[2].

وخيريّة الرازق في امور: أحدها أن لا يؤخّر عن وقت الحاجة إذا عرف الصلاح لأنّه عالم ولا ينقص عن قدر الحاجة ولا ينكده بالحساب لأنّه غنيّ ولا يكدره بطلب الثواب لأنّه كريم وقد ذكر سبحانه بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] أنّ هبة الأعلى للأدنى لا يقتضي ثوابا وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أنّه قد حصل الضمان والوعد والخلف لا يقع منه تعالى فإذا إمساكك عن البذل والإقراض إمّا سوء ظن بالربّ أو من قلّة العقل مع أنّ المال في يد العبد على سبيل العارية. فلو قيل: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ينبئ أن يكون رازق غيره ولا رازق إلّا الله فالمراد:

الله خير الرازقين الّذين تظنّونهم رازقين مثل قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٢٢، وصحيح البخاري، ج٨، ص١٩٧.

٢ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٦٧، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٢٢.

٣ـ سورة البقرة: ٢١٢.

وتحقيق المسألة هو أنّ الصفات منها ما حصل للّه وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال للّه بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال للّه بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأوّل: العلم بكون النار حارة فإنّ اللّه يعلم والعبد يعلم، غاية ما في الباب أنّ علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثاني: الرازق والخالق فإنّ العبد إذا أعطى غيره شيئا فإنّ اللّه هو المعطي ولكن لأجل صورة العطاء منه سمّي معطيا كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط: إنسان وفرس، مثال الثالث: الأزليّ والإله فإنّه له لا لغيره سبحانه، وقد يقال في أشياء في الإطلاق والتعبير على العبد حقيقة وعلى اللّه مجازا كالاستواء والمعيّة ويد اللّه وجنب اللّه، انتهى.

وقوله ﷺ: **«وما أنفق المؤمن من نفقه فعلى الله خلفها بشرط أن لا يبلغ إلى حدّ السرف»**. كما في الحديث روى أبو أمامة قال: **«إنكم تؤولون في هذه الآية غير تأويلها»** ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ وقد سمعت رسول اللّه ﷺ وإلّا فصمّتا يقول:

«إيّاكم والسرف في المال والنفقة وعليكم بالاقتصاد فما افتقر قوم قطّ اقتصدوا»[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يوم القيامة نجمع العابدين لغير اللّه والمعبودين من الملائكة للحساب.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفّار ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ويقصدون بالعبادة وهذا الخطاب والاستشهاد للملائكة على اعتقاد الكفّار حتّى تبرأ الملائكة منهم ومن عبادتهم كما يقال لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٢٢، وتفسير نورالثقلين، ج٤، ص٣٤١.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] فينكر عيسى ويقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[2].

والنظم في الآية بما قبلها أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا﴾ بيّن سبحانه أنّ دعواهم مردودة وأنّهم معذّبون.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾

المعنى: ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيها لك من أن نعبد سواك ونتّخذ معبودا غيرك ﴿أَنتَ﴾ يا الله ﴿وَلِيُّنَا﴾ وناصرنا وأولى بنا ﴿مِن دُونِهِم﴾ من دون هؤلاء الكفّار وكلّ أحد وما كنّا نرضى بعبادتهم إيّانا مع علمنا بأنّك ربّنا وربّهم. ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ بطاعتهم إيّاهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة وقيل: المراد «بالجن» إبليس وذريّته وأعوانه ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدّقون بالشياطين مطيعون لهم وقيل: إنّ الشياطين يتمثّلون لهم ويخيّلون لهم أنّهم الملائكة فيعبدونهم وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت والضمير في ﴿أَكْثَرُهُم﴾ للإنس والمشركين

١ـ سورة المائدة: ١١٦.

٢ـ سورة المائدة: ١١٦.

والضمير في ﴿بِهِم﴾ للجنّ والأكثر بمعنى الكلّ.

ثمّ يقول الله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني في الآخرة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿نَّفْعًا﴾ بالشفاعة ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بالتعذيب والفاء لترتيب بيان عدم النفع والضرّ من الملائكة للعبدة والعبدة للملائكة. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بأن عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ولا تعترفون بها وتجحدونها لأنّ بعضهم كانوا جاحدين وقوع العذاب رأسا وبعضهم يدفعونها بشفاعة أصنامهم وبعضهم ينكرون العذاب الدائم ويقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1] فيقال لهم: ذوقوا العذاب الدائم.

ثمّ بيّن سبحانه حال الكفّار في الدنيا فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: متى ما يقرء عليهم حججنا البيّنة الواضحة من القرآن الّذي أنزلناه على نبيّنا ﴿قَالُوا﴾ عند ذلك: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويمنعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ويقول بعضهم لبعض هذا القول وفرغوا إلى تقليد الآباء لمّا أفحمتهم الحجّة. ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب مفترى تخرّصه وافتراه هذا النبيّ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: للقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: وما أعطينا مشركي قريش كتابا قطّ يعلمون درسه حتّى يعلموا أنّ ما جئت به حقّ أو باطل وإنّما يكذّبونك بهوى أنفسهم لاعن علم أي: إنّ الآيات البيّنات لا تعارض إلّا بالبراهين العقليّة أو بالنقليّات الصحيحة وهم ما كان عندهم من كتاب ولا رسول غيرك والمعتبر كتاب الله أو خبر الرسول.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: ما بعثنا رسولا أمرهم بتكذيبك

١ـ سورة البقرة: ٨٠.

وأخبرهم ببطلان قولك يعني إنّهم لا يرجعون في تكذيبك إلّا إلى الجهل والعناد.

ثمّ أخبر سبحانه عن عاقبة من كذّب الرسل تخويفا لهم فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بمن بعث إليهم من الرسل وما آتاهم اللّه من الكتب ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: وما بلغ قومك يا محمّد معشار ما أعطينا من قبلهم من القوّة والعمر والمال فأهلكهم اللّه.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقوبتي انظر في آثارهم كيف كان إنكاري عليهم بالهلاك وما بلغ هؤلاء الضعفاء من قومك معشار أولئك الذين وقع عليهم أخذي وعقوبتي مع كثرة أموالهم وأعمارهم مثل عاد وثمود ويمكن أن يكون المعنى: إنّ أولئك المتقدّمين الّذين وقع عليهم العذاب ما آتيناهم عشر ما آتينا قومك من البيّنات والحجج ومع ذلك كيف كان إنكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك وذلك لأنّ كتاب محمّد أكمل من سائر الكتب وأوضح ولذلك محمّد ﷺ أفضل وأفصح وبرهانه وبيانه أشفى.

قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾

المعنى: أشار سبحانه في هذه الآية بالأصول الثلاثة فقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

فخاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: لهم ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: آمركم بخصلة واحدة أو بكلمة واحدة وهي كلمة التوحيد أو طاعة اللّه فمن قال بالأوّل: فسّر الواحدة بما بعده فقال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين وواحدا واحدا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ معناه أن يقوم الرجل منكم وحده أو مع غيره ثمّ تتساءلون وتتباحثون هل جرّبنا على محمّد كذبا وهل رأينا به جنّة ففي ذلك بطلان قولكم فيما تقولون: إنّه لمجنون وساحر ومعنى القيام في الآية ليس القيام على الأرجل بل المراد به القصد للنظر والفهم والتعقّل لتبيين الحقّ.

فلو قيل: إنّ قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أن يتمّ الأمر بالتوحيد والحالة أنّ الإيمان لا يتمّ إلّا بالاعتراف بالرسالة والحشر وامور أخر فكيف يصحّ الحصر المذكور بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾

فالجواب أنّ الأمور الباقية والأركان الاخر غير منفكّة عن هذه الواحدة ولازمة لها لأنّ من وحّد اللّه حقّ التوحيد لا بدّ وأن يؤمن بكتابه ووحيه فالإيمان بالكلّ يلزمه ثمّ إنّ النبي ﷺ ما قال: «**إنّي لا آمركم في جميع عمري إلّا بشيء واحد بل قال: إنّي أعظكم أوّلا بالتوحيد ولا آمركم في أوّل الأمر بغيره لأنّه سابق على الكلّ كما قال ﷺ في أوّل الأمر قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**»[1] وهو الأصل الأصيل.

وفي «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «**إنّ الله تعالى أنزل عزائم الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة كما خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ولو شاء أن يخلقهما في أقلّ من لمح البصر لخلق ولكنّه جعل الأناة والمداراة معالا لأمنائه وتعليما لخلقه في أمورهم فكان أوّل ما قيّدهم به الإقرار بالوحدانيّة والربوبيّة فلمّا أقرّوا بذلك تلا بالإقرار لنبيّه والشهادة له بالرسالة فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة**

١ـ المناقب، ج ١، ص ٥١، وبحار الانوار، ج ١٨، ص ٢٠٢.

ثمّ الصوم ثمّ الحجّ ثمّ الجهاد ثمّ الزكاة ثمّ الصدقات وما يجري مجراها من الأحكام من الفيء وغيرها فقال المنافقون: هل بقي لربّك علينا بعد الّذي فرض علينا شيء آخر فتذكره ليسكن أنفسنا إلى أنّه لم يبق غيره فأنزل الله في ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني الولاية»[1] وإذا نظر الإنسان بعين التأمّل والدقّة يعرف أنّ من أتى بالولاية لعليّ بن أبي طالب فقد أتى بجميع الأصول الخمسة والملازمة بينهما ثابتة بل ملازمة الفروع ثابتة لأنّ الجحود والإطاعة نقيضان كما أنّ الولاية والقبول متلازمان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ولمّا قال سبحانه: قبيل هذا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: أنتم ما رأيتم من منشئه إلى مبعثه وصمة تنافي النبوّة من كذب أو ضعف في العقل أو اختلاف في القول والعمل، نبّههم سبحانه عن طريقة النظر بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الّذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان، أو مؤيّد من عند اللّه مرشّح للنبوّة واثق بحجّته وقد عرفتم ذلك منه وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخرّ لها الجبال وتظهر منه أشياء لا تكون مقدورا للبشر مثل القرآن وآيات ومعجزات أخر فالصادرة منه بواسطة الملك وقدرة اللّه وتثبت النبوّة ولزمتهم الحجّة فقال:

ما هو ﷺ إلّا رسول منذركم ومخوّفكم من مخالفته ومن معاصي اللّه ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: عذاب القيامة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئا من عرض الدنيا وما طلبته منكم من أجر أداء الرسالة وبيان الشريعة، فهو لكم و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم﴾

١ـ الاحتجاج، ج١، ص٣٧٩، وبحارالانوار، ج٩٠، ص١٢٢.

يجوز أنّها موصولة ويجوز أن تكون شرطيّة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس ثواب عملي إلّا على الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لم يغب عنه شيء ويعلم ما يلحقني من أذاكم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: يلقيه ويرمي الحقّ وهو الوحي إلى أنبيائه والقرآن أو يتكلّم بالقرآن وهو الحقّ وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمي بالحقّ على الباطل فيدمغه أو المعنى أنّه سبحانه يقذف بالقرآن في أقطار الآفاق لإظهار الدين وإعلاء كلمته وهو الّذي علم جميع الخفيّات.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو أمر الله تعالى بالإسلام والتوحيد وقيل: هو الجهاد بالسيف عن أبي مسعود ولمّا ذكر الله أنّه يقذف بالحقّ وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر سبحانه أنّ ذلك الحقّ قد جاء، وفي الحقّ وجوه وذكرنا الوجهين الثالث: أنّ المراد المعجزات الدالّة على نبوّة محمّد ﷺ ويمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني ظهر الحقّ لأنّ كلّ ما جاء فقد ظهر.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: ما يبدئ الباطل لأهله خيرا في الدنيا ولا يعيد خيرا في الآخرة وقيل: إنّ «ما» استفهاميّة على معنى «وأيّ: شيء يبدي الباطل وأيّ: شيء يعيده» وقيل: معنى الآية: ذهب الباطل إذهابا لم يبق منه إبداء ولا إدبار لأنّ الحقّ إذا جاء لا يبقى للباطل بقيّة.

قال ابن مسعود: دخل رسول الله مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده الشريفة ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ... ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ أي: إن ضللت عن

الحقّ كما تدّعون وتزعمون فإنّما يرجع وبال ضلالي عليّ لأنّي مأخوذ به دون غيري وإن اهتديت إلى الحقّ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي: بتفضّل ربّي حيث أوحى إليّ وليس اهتدائي بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وإنّما هو بالوحي ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لأقوالنا ﴿قَرِيبٌ﴾ بالإحاطة لا يخفى عليه المحقّ والمبطل.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

جواب لو محذوف وتقديره: لرأيت عجباً.

المعنى: لمّا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ فإنّه إن لم يعذّب عاجلا أولا يعيّن صاحب الحقّ في الحال فيوم الفزع آت لا فوت فيه وإنّما يستعجل العقوبة من يخاف الفوت ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني القبور وحيث ما كانوا فهم من الله قريب وقيل: المراد من قوله: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ في الدنيا حين رأوا بأس الله عند معاينة الملائكة لقبض أرواحهم.

القمّي: عن الباقر عليه السلام قال: «إذا فزعوا من الصوت وذلك الصوت من السماء».

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال عليه السلام: «من تحت أقدامهم خسف بهم وعنه عليه السلام لكأنّي أنظر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر وساق» الحديث إلى أن قال: «فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفيانيّ فيأمر الله عزّ وجلّ للأرض فتأخذ بأقدامهم وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾»[1].

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ قال: يعني بالقائم من آل محمّد صلى الله عليه وآله أو بمحمّد صلى الله عليه وآله

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٥، وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٢٧.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: التناول يعني تناول الإيمان بعد زمان التكليف قال: إنّهم طلبوا الهدى من حيث لا ينال وقد كان لهم مبذولا من حيث ينال[1].

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ في أوان التكليف ولمّا جعل الله الفعل مأخوذا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والضمير في قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ راجع إلى القائم بموجب الرواية أو بمحمّد أو بالقرآن.

وعن حذيفة بن اليمان عن النبيّ ﷺ: ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب قال: «**فبيناهم كذلك يخرج عليهم السفيانيّ من الوادي اليابس حتّى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق وآخر إلى المدينة حتّى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة يعني بغداد فيقتلون أكثر من ثلاثمائة آلاف ويفضحون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العبّاس ثمّ ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما بها ثمّ يخرجون متوجّهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فيلحق ذلك الجيش فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحلّ الجيش الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيّام بلياليها ثمّ يخرجون متوجّهين إلى مكّة حتّى إذا كانوا بالبيداء يبعث الله جبرئيل فيقول: اذهب يا جبرئيل فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم عندها ولا يفلت منهم إلّا رجلان من جهينة فلذلك جاء القول «وعند جهينة الخبر اليقين» فلذلك قوله تعالى:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾». أورده الثعلبيّ في تفسيره وروى أصحابنا مثله عن الباقر والصادق عليهما السلام انتهى[2].

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: يرجمون بالظنّ كالشيء الّذي

١ـ تفسير القمي، ص٢٠٥، وتفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٧٥.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٢٨، وبحارالانوار، ج٥٢، ص١٨٦.

يرمى في موضع بعيد فيقولون: لا جنّة ولا نار ولا بعث وقيل: معناه يرمون محمّداً ﷺ بالظنون من غير يقين وذلك قولهم: هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون ويبعّدون أمر الآخرة فيقولون لأتباعهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقيل: معناه أنّهم في الآخرة يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[1] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا.

ثمّ قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من العود إلى الدنيا أو حيل بينهم وبين لذّات الدنيا بالموت ومنعوا من كلّ مشتهى فيلحق الله النفار فيهم فلا يدركون شيئا إلّا ويتألّمون به.

﴿كَمَا فُعِلَ﴾ مثل ذلك ﴿بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأمثالهم من الكفّار وبأهل دينهم من الأمم الماضية حين لم يقبل منهم التوبة وقت رؤية البأس والعذاب قال الضحّاك: أراد بذلك أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث والنشور وفي وقوع العذاب بهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: مشكّك ومعنى ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مثل قولك: عجب عجيب وهو مبالغة في بيان الشكّ.

تمّت السورة.

١ـ سورة السجدة: ١٢.

سُورَةُ فَاطِر

مكية، إلّا آيتين: الاولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الآية[1] والثانية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية[2].

فضلها قال أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الملائكة [فاطر] دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنّة أن ادخل من أيّها شئت»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ
وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ
ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

١ـ سورة فاطر: ٢٩.

٢ـ سورة فاطر: ٣٢.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص ٢٣٠، ونور الثقلين، ج ٤، ص ٣٤٥.

المعنى: حمد سبحانه نفسه ليعلّمنا كيف نحمده وليبيّن لنا أنّ الحمد كلّه له فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: حقيقة الحمد لمن خلقهما مبتدئا على غير مثال ومبدعها، أو المعنى: شافعهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى الأنبياء بالرسالة والوحي ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وكلمة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ معدولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة وإنّما جعلهم سبحانه اولي أجنحة ليتمكّنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول إلى الأرض فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة أجنحة ويزيد فيها ما يشاء وهو قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال ابن عبّاس: رأى رسول الله جبرئيل ليلة المعراج وله ستّ مائة جناح وقيل: معنى قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أراد حسن الصورة والصوت والملاحة والشعر والحسن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ ولا شيء إلّا وهو قادر عليه.

ثمّ بيّن إحسانه فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ «ما» شرطيّة أي: مهما يأتهم ويفتح الله للناس من خير ومطر وعافية أو أيّ نعمة شاء فإنّ أحدا لا يقدر على إمساكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من ذلك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: إنّ أحدا لا يقدر على إرساله.

وقيل: معنى الآية: ما يرسل الله من رسول إلى عباده في وقت دون وقت فلا مانع له لأنّ إرسال الرسول رحمة من الله وناموس الشريعة في الناس لانجرّ الأمر في الخلق إلى النفاق والهلاك. أقول: وقد وجدت في بعض كلمات أفلاطون الحكيم أنّ إرسال الرسل وبيان الناموس للخلق من أعظم النعم وإنّه من موجبات البقاء ولولاه لآل أمورهم إلى الفناء والاضمحلال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالب في أمره لا يعجز الحكيم في أفعاله إن

أمسك أو أنعم بما يقتضيه حكمته.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الظاهرة والباطنة الّتي من جملتها أنّه خلقكم وأوجدكم وأقدركم وخلق لكم أنواع الملاذّ والمنافع والنعم مع كثرتها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء وقال: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء وهذا الكلام استفهام تقريريّ ومعناه النفي ليقرّوا بأنّه لا خالق إلا الله ولا رازق للعباد غيره مثل أن يرزق من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وليس معبود يستحقّ العباد سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن طريق الحقّ إلى الضلال وتقلبون الأمر وتعكسون هذه الأدلّة مع وضوحها؟

ثمّ سلّى نبيّه عن تكذيب قومه إيّاه فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي من كذّب رسله وينصر من صدّقهم.

ثمّ خاطب الخلق فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ من الجنّة والنار والبعث والنشور والجزاء والحساب ﴿حَقٌّ﴾ وصدق كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تغترّوا بملاذّها ونعيمها ولا يخدعنّكم حبّ الجاه والرياسة وطول البقاء فإنّ ذلك نافد بائد ويبقى الوزر ولمّا كان الإنسان بعضهم سخيف الرأي قليل العقل فيغترّ بأدنى شيء وقد يكون فوق ذلك ولا يغترّ به ولكن إذا جاءه غارّ وشيطان كامل وزيّن له ذلك الشيء وهوّن عليه مفاسده وبيّن له ملاذّ ومنافع يغترّ به ويوقع نفسه في المعصية فقال الله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الاولى وقال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الطبقة الثانية والغرور الّذي عادته أن يغرّ غيره والشيطان والدنيا وزينتها بهذه الصفة وإنّ الخلق يغترّون بها وقيل: المراد من الغرور

إبليس. ثمّ أشار إلى الطبقة الثالثة وهي الطبقة العليا الّذين لم يكونوا من عبيد الدنيا ومن حزب الشيطان وقال سبحانه:

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

المعنى: لمّا حذّرهم سبحانه عن الانغمار في الدنيا ومتابعة الشيطان فصرّح ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يدعوكم إلى ما فيه الهلاك والخسر ويصرفكم عن أفعال الخير والبرّ ويدعوكم إلى الشرّ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وعادوه ولا تتّبعوه بأن تعملوا على وفق مراده. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي: أتباعه وأصحابه ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: النار المسعرة والمعنى أنّه لا سلطان له على المؤمنين ولكنّه يدعو أتباعه إلى ما يستحقّون به النار ثمّ بيّن حال من اتّبعه وحال من خالفه والعاقل إذا علم أنّه عدوّ لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنّه يقف على قباله حتّى يهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان على الثبات في طاعة الله والإعمال على العبادة.

ثمّ بيّن سبحانه حال حزب الشيطان وحال حزب الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاء على كفرهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم

مَّغۡفِرَةٞ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ أي: ثواب عظيم.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الإنكار مقرّرا لهم ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ يعني الكفّار زيّنت لهم نفوسهم ومشتهياتهم أعمالهم السيّئة فتصوّروها حسنة أو زيّنه الشيطان لهم بأن أمالهم إلى الشبه المضلّة وتركوا النظر في الأدلّة وأغواهم حتّى تشاغلوا بما فيه عاجل اللّذّة وجواب الاستفهام محذوف أي: أهو كمن علم الحسن والقبيح ولم يزيّن له سوء عمله وقيل: تقديره: كمن هداه الله وزيّن له صالح عمله والآية تقرير لبيان التباين بين حال الفريقين.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ لاستحسانهم واستحبابهم الضلالة على الهدى وبسوء اختياره اقتضى العذاب فردّه إلى أسفل السافلين ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ بصرف اختيارهم إلى الهداية فيرفعه إلى أعلى علّيين. ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ أي: لا تهلك نفسك يا محمّد عليهم حسرة ولا يغمّك حالهم إذا كفروا واستحقّوا العذاب وهو كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ والحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فيجازيهم على صنيعهم.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر أدلّة التوحيد وشواهد القدرة وذلك أنّ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار لأنّ الهواء قد يسكن وقد يتحرك ويتموّج وعند حركته قد يتحرّك إلى اليمين وإلى اليسار وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ وهذه الاختلافات من طبيعة واحدة دليل على مسخّر ومدبّر حيث تختلف آثارها وأتى الإرسال بلفظ الماضي والإثارة بلفظ المستقبل لأنّه لمّا أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله: ﴿كُن﴾ لوجوب وقوعه

وسرعة كونه كأنّه كان فهو سبحانه قدّر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعيّنة والتقدير وقع فهو كالإرسال وأمّا الإثارة لمّا أسنده إلى الريح وهو يؤلّف في زمان فأتى بلفظ المستقبل على هيئتها التدريجيّ. ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي: أرض مجدبة فيمطر على ذلك البلد ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر الماء ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بأن أنبتنا فيها الزرع والكلاء بعد أن لم يكن ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كما لعل بهذه الأرض المجدبة الميّتة من إحيائها بالزرع والنبات ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم للجزاء من الثواب والعقاب ووجه التشبيه معلوم أي: كما أنّ الريح يجمع القطع السحابيّة كذلك تجتمع أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء وأيضا كما نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميّت لإحيائه كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن ثانيا وأيضا كما أنّ الأرض الميّتة قبلت الحياة اللائقة بها كذلك أعضاء الإنسان قبل الحياة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ اختلف في معناه، فقيل:

المعنى: من كان يريد علم العزّة وهي القدرة على القهر والغلبة لمن هي فإنّها للّه جميعا وقيل: معناه من أراد العزّة فليتعزّز بطاعة اللّه فإنّ اللّه يعزّه كما يقال: من أراد المال فالمال لفلان فليطلب من عنده ويؤيّد هذا المعنى ما رواه أنس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«إنّ ربّكم يقول كلّ يوم: أنا العزيز فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز»**[1].

ولعلّ المراد في الآية منع الكفّار عن العزّة الّتي كانوا يتوهّمونها من حيث إنّهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن من يأمرهم وينهاهم فكانوا ينحتون الأصنام ويقولون: إنّ هذه آلهتنا ثمّ إنّهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وكانوا يطلبون العزّة لأنفسهم وهي عدم التذلّل للرسول وترك الاتّباع فقال

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٣٤، وبحارالانوار، ج٦٨، ص١٢٠.

سبحانه: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزّة فهي كلّها للّه ومن يتذلّل له فهو العزيز ومن يتعزّز عليه فهو الذليل كما قال سبحانه: في آية اخرى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١] فله العزّة بالذات ولرسوله بواسطة القرب من العزيز وهو اللّه وللمؤمنين بواسطة قربهم للرسول.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ تقرير لبيان العزّة وذلك أنّ الكفّار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيّب من القول والكلم جمع «الكلمة» يقال: هذا كلم وهذه كلم فيذكّر ويؤنّث وكلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلّا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث ومعنى الصعود هاهنا القبول من صاحبه والإثابة عليه وكلّ ما يتقبّله اللّه من الطاعات يوصف بالرفع والصعود لأنّ الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويرفعونها إلى حيث شاء اللّه وهذا كقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[٢] ويمكن أن يكون المعنى يصعد إلى سمائه فجعل صعود العمل إلى سمائه صعودا إليه والمراد من ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الكلمات الحسنة من التعظيم والتقديس وأحسن الكلم «لا إلهَ إلّا اللّه».

﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: أنّ العمل الصالح يرفع الكلم الطيّب إلى اللّه فالهاء من يرفعه يعود إلى الكلم.

والثاني: على القلب من الأول أي: الكلم الطيّب يرفع العمل الصالح إلى اللّه حيث لا ينفع العمل الصالح إلّا إذا صدر عن التوحيد.

والثالث: أنّ العمل الصالح يقبله اللّه ويرفعه وعلى هذا يكون الكلام

١ـ سورة منافقون: ٨.

٢ـ سورة المطففين: ١٨.

ابتداء إخبار لا يتعلّق بما قبله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الّذين مكروا برسول اللّه في دار الندوة وتبانيهم في إحدى ثلاث: حبسه أو قتله ﷺ أو إجلائه ويشمل مكرات أصحاب السقيفة وقيل: يمكرون أي: يعملون السيّئات ولذا عدّاه بالسيّئات وإلّا فهو لازم أو المعنى يمكرون المكرات السيّئات ويشركون باللّه ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ في الآخرة ثمّ أخبر سبحانه أنّ مكرهم يبطل ويفسد فقال: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الماكرين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ ويفنى.

قال الفيض في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ عن القمي[1] قال: هو كلمة الإخلاص والإقرار بما جاء به النبيّ من عند اللّه من الفرائض والولاية ترفع العمل الصالح إلى اللّه وعن الصادق عليه السلام: **«الكلم الطيّب قول المؤمن: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله عليّ وليّ الله وخليفة رسول الله قال: والعمل الصالح الاعتقاد بالقلب بأنّ هذا لهو الحقّ من عند الله».**

وعن الباقر عليه السلام قال: **«قال رسول الله: إنّ لكلّ قول مصدّقا من عمل يصدّقه أو يكذّبه فإذا قال ابن آدم وصدّق قوله عمله، رفع قوله بعمله إلى الله وإذا خالف عمله قوله ردّ قوله على عمله الخبيث وهوي به في النار».**

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: **«ولايتنا أهل البيت وأومأ بيده إلى صدره فمن لم يتولّنا لم يرفع الله له عملا»**[2].

وفي «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«من قال: لا إله إلّا الله مخلصا طمست ذنوبه كما ينطمس الحرف الأسود من الرقّ الأبيض فإذا قال ثانية: لا إله إلّا الله مخلصا خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتّى تقول الملائكة بعضها لبعض:**

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٨، وتفسير الصافي، ج ٤، ص ٢٣٣.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٤٣٠، ومناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٧١.

اخشعوا لعظمة أمر الله فإذا قال ثالثة مخلصا: لا إله إلّا الله لم تنته دون العرش فيقول الجليل: اسكني فوعزّتي وجلالي لأغفرنّ لقائلك بما كان فيه». ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني إذا كان علمه صالحا ارتفع قوله[1] وكلامه.

وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

اعلم أنّ الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس فلمّا ذكر سبحانه شطرا من دلائل الآفاق من السماوات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح ذكر في هذه الآية من دلائل الأنفس فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: خلق

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٨٦، ومستدرك الوسائل، ج ٥، ص ٣٥٨.

آباءكم وأصلكم من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ماء قليل وهي من الأضداد وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أولاده أو المراد أنّ أصل النطفة من التراب أيضا. وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكورا وإناثا وقيل: ضروبا وأصنافا.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إشارة إلى كمال العلم فإنّ ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام في البطن لا يعلم حاله أحد كيف والأمّ الحامل لا تعلم منه شيئا؟ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ معناه وما يمدّ في عمر معمّر ولا يطول عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عمر ذلك المعمّر بانقضاء الأوقات عليه ولا يذهب بعض عمره بمضيّ الليل والنهار أو يكون المعنى: إنّ فلانا لو أطاع لبقي إلى وقت كذا وإذا عصا نقص عمره. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: إلّا وذلك مثبت في الكتاب وهو الكتاب المحفوظ فأثبت الله في امّ الكتاب عمر فلان كذا سنة ثمّ يكتب أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان وذهب ثلاثة أيّام حتّى يأتي على آخر عمره فبيّن سبحانه أنّه هو القادر على مثل هذا الخلقة والعالم بهذه الجزئيّات والأصنام الّتي تعبدونها لا قدرة ولا علم لها فكيف تستحقّ العبادة؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: الخلق والتعمير والنقصان على الله سهل يسير.

ثمّ قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ يعني العذب والمالح ثمّ ذكر الفرق فقال: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: طيّب بارد ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ جائز في الحلق هنيء ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فيه الملوحة والمرورة. قال أهل اللغة: لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة: مالح وإنّما يقال له: ملح كما أنّ الماء العذب إذا القي فيه ملح حتّى ملح لا يقال له إلّا مالح وإنّما يقال للماء الّذي أصل خلقته مملوحة: ملح لأنّ المالح شيء فيه ملح وماء البحر ليس ماء وملح بخلاف الطّعام الّذي وقع فيه الملح فيقال لهذا: مالح ولذلك: ماء ملح ولو أنّ ماء البحر

اكتسب الملوحة من أجزاء سبخة أرضيّة وماؤه بسبب المجاورة اكتسب الملوحة لكن لمّا ملح بسبب المجاورة كأنّهم جعلوا ملوحته أصلا وخلقة وفرّقوا بين اللغتين بهذا السبب.

وبالجملة قال المفسّرون: إنّ المراد من الآية ضرب المثل في حقّ الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن قالوا: إنّ الكفر والإيمان لا يتساويان كما لا يتساوى الماء الملح والماء العذب.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: ماخرات، وشاقّات البحر بالجري، بيان بأنّ حال الكافر دون حال البحرين لأنّ الأجاج يشارك الفرات في الخير والنفع إذ اللحم الطريّ يوجد فيهما والحلية تستخرج منهما والفلك تجري فيهما ولا نفع في الكفر والكافر وهذا الكلام على نسق قوله تعالى: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾[1]. وفي الآية إشارة إلى أمر آخر وهو الدليل على كمال القدرة وبيانه أنّ البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء فإنّ أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ والآخر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ثمّ إنّهما بعد اختلافهما يوجد فيهما امور متشابهة فإنّ اللحم الطريّ يوجد منهما ومن يوجد في المتشابهين اختلافا ومن المختلفين أشباها لا يكون إلّا قادرا مختارا وهذا دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذه النعم لمعاشكم ولأن تعرفوا نعم الله عليكم فتشكروه وتعرفون خالقكم.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مرّ بيانه مرارا وأمّا بيان قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ جواب لسؤال مقدّر

١ـ سورة البقرة: ٧٤.

المشركون وهو أنّهم قالوا: اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها فإنّ في الصيف تمرّ الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق وحركة الشمس هناك حمائليّة فيقع تحت الأرض أقلّ من نصف دائرة الزمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضدّ فيقصر النهار فقال الله سبحانه ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته وهو الّذي فعل ذلك. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ أي: ذلك الّذي فعل هذه الأمور ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فلا معبود إلّا هو وإذا كان الملك له كلّه فله العبادة كلّها ثمّ بيّن ما ينافي صفة الإلهيّة وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ﴾ من لفافة النواة فكيف تعبدونها؟ وذلك البيان لأجل أنّهم كانوا يقولون: إنّ الله فوّض أمر الأرض والأرضيّات إلى الكواكب الّتي هذه الأصنام على صورتها وطوالعها فقال: «لا يملكون قطميرا».

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ لكشف ضرّ ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنّها جماد لا تنفع ولا تضرّ ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على زعمكم أو أن يخلق الله لها سمعا ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه على أنّ النفع لا يحصل لكم منها في الدنيا يحصل لكم منها الضرر في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ﴾ بإشراككم بالله شيئا فينطقهم الله يوم القيامة لتوبيخ عابديها ويجوز أن يكون المراد بهم الملائكة وعسى فعلى هذا المعنى يكون معنى ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ أي: لا يلتفتون إليكم وهم مشغولون عنكم والظاهر المراد بالأصنام المعبودة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحقّ سبحانه فإنّه الخبير بكنه الأمور وهو يخبرك بما هو الصلاح

والفساد والمنافع والمضارّ. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن عبادتكم لا يحتاج إلى شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقّ للحمد على جميع أفعاله فلا يفعل إلّا ما يستحقّ به حمدا ولمّا بالغ الرسول في الدعوة قال الكفّار: لعلّ الله يحتاج إلى عبادتنا حتّى يأمرنا بها أمرا بالغا ويهدّدنا على تركها مبالغا فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ ولا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنّما هو لإشفاقه عليكم. واعلم أنّ التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدء معرفة وذلك لأنّ المخبر لا يخبر في الأكثر إلّا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أوفي ظنّ المتكلّم أنّ السامع لا علم له به والمبتدء لا بدّ من أن يكون معلوما عند السامع حتّى يقول له: أيّها السامع الأمر الّذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلانيّ كقول القائل: زيد قائم فإن كان الخبر معلوما عند السامع والمبتدء كذلك يقع الخبر تنبيها لا تفهيما ويحسن تعريف الخبر كقول القائل: الله ربّنا ومحمّد نبيّنا حيث عرف كون الله ربّا وكون محمّد نبيّا فيحتمل أن يكون قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ من هذا القبيل.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيان لغناه وفي العبارة بلاغة كاملة أي: ليس إذهابكم موقوفا إلّا على مشيّته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإنّ المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره وإنّما يقول: لو لا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها ولو لا الافتقار إلى العقار لتركتها. ثمّ زاد في بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن كان يتوهّم متوهّم أنّ هذا الملك له عظمة وكمال فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فبيّن سبحانه أنّه قادر بأن يخلق خلقا جديدا أحسن وأتمّ وأكمل.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: الإذهاب والإتيان غير معسور عليه ولا

يغلب العجز عليه و«العزيز» في اللغة الغالب من قوله: «ومن عزّ بزّ» أي: من غلب سلب فالله عزيز أي: غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال: هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا يغلب الله ذلك الفعل ولا يعجزه بل هو هيّن على الله.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن عدله في حكمه وأجاب الرؤساء والمتبوعون بما كانوا يقولون للتابعين: اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ الآية أي: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ ولا يؤخذ أحد بذنب غيره وإنّما يؤاخذ كلّ بما يقترفه من الآثام.

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالآثام والمعاصي ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ إلى أن يتحمّل عنها شيئا من إثمها وفي قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ زيادة بيان لأنّ المثقل قد يعان ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي: لا يحمل غيرها شيئا من ذلك الحمل ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي: ولو كان المدعوّ إلى التحمّل ذا قرابة منها وأقرب الناس

إليها ما حمل عنها فكلّ نفس بما كسبت رهينة قال ابن عبّاس: يقول الأب والأم: يا بنيّ احمل عنّي فيقول: حسبي ما عليّ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وهذا كقوله:[1] ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: إنّ إنذارك لا ينفع إلّا الّذين يخشون ربّهم في خلواتهم وغيبتهم عن الخلق أو المعنى: هم غائبون عن أهوال الآخرة ومعتقدون بها.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أداموها وقاموا بشرائطها وإنّما عطف الماضي على المستقبل إشعارا باختلاف المعنى لأنّ الخشية لازمة في كلّ وقت والصلاة لها أوقات مخصوصة. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات وقيل: أي: تطهّر من المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ جزاء ذلك يصل إليه دون غيره ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع الخلق إليه فيجازي كلّا على عمله.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: لا يتساوى الأعمى عن طريق الحقّ والّذي اهتدى إليه أو المشرك والمؤمن ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ﴾ أي: ظلمات الشرك والضلال ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: نور الإيمان والهداية وتكرار كلمة «لا» في قوله: ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ زائدة مؤكّدة للنفي ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ يعني الجنّة والنار وقيل: الظل الليل والحرور سموم النهار الحارّة ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ يعني المؤمنين والكافرين وقيل: يعني العلماء والجهّال وبالجملة كما لا يستوي هذه الأشياء ولا يتماثل ولا يتشاكل فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة غيره ولا يستوي المؤمن والكافر والحقّ والباطل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ينفع بالأسماع من يشاء أن يلطف له ولم يرد به نفي حقيقة السماع لأنّهم كانوا يسمعون آيات الله ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: إنّك لا تقدر

1ـ سورة النازعات: ٤٥.

على أن تنفع الكفّار بإسماعك إيّاهم إذ لم يقبلوا كما لا تسمع من في القبور من الأموات ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلّا مخوّف لهم بالله.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالدين الصحيح ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشّرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ خلا أي: مضى أي: كما أنت مبشّر ومنذر لقومك كذلك قبلك كان الرسل يخوّفونهم وينذرونهم وأقاموا الحجّة على قومهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمّد ولم يصدّقوك ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفّار أنبياء أرسلهم الله إليهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الباهرات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: وبالكتب ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ولعلّ المراد ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ صحف إبراهيم و﴿بِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل وإنّما كرّر ذكر الكتاب وعطفه على الزبر لاختلاف الصفتين فإنّ الزبور أثبت في الكتاب من الكتاب لأنّه يكون منقّرا منقّشا فيه كالنقر في الحجر. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فلمّا كذّبوا رسلهم ولم يعترفوا بنبوّتهم أخذتهم بالعذاب وأهلكتهم ودمّرت عليهم فكيف كان تغييري وإنكاري عليهم وإنزالي العقاب بهم؟

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ
جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

أي: أ لم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ غيثاً ومطراً ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ أخبر عن نفسه بنون الكبرياء والعظمة ﴿بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ثَمَرَٰتٖ﴾ جمع «ثمرة» وهي ما يجتنى من الشجرة ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ وطعومها وروائحها، اقتصر على ذكر الألوان لأنّها أظهر في التنوّع ولدلالة الكلام على الطعوم والروائح وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استفهام تقريريّ والاستفهام التقريريّ لا يقال إلّا في الشيء الظاهر جدا؛ كما أنّ من أبصر الهلال وهو خفيّ جدا؛ فقال له غير: أين هو فإنّه يقول له: في الموضع الفلاني فإن لم يره يقول له: الحقّ معك إنّه خفيّ وأنت معذور وإذا كان بارزا يقول له: أما ترى هذا هو ظاهر ولمّا كانت الشواهد ظاهرة فكأنّه سبحانه قال له: أنت صرت بصيرا ولم يبق ما يوجب الخفاء أما ترى هذه الآية؟

ثمّ إنّه سبحانه لمّا ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم كما أنّ السيّد إذا نصح بعض العبيد وأرشدهم وما نفعهم الإرشاد يقول لغيره: اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرّر معه ما ذكره مع الأوّل ويكون فيه إشعار بأنّ الأوّل فيه نقيصة لا يستأهل الخطاب وبعض الخطابات في القرآن للنبيّ من هذا العنوان.

وفي الآية بيان آخر بقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ لأنّ الجاهل قد يكون يتصوّر في ذهنه أنّ نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له: فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه: إنّه بالطبع فهو بإرادة اللّه فلمّا كان ذلك أسنده إلى المتكلّم مع أنّ قبله بصيغة الغائب.

﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ أي: وممّا خلقنا من الجبال جدد بيض وحمر وفي الآية دلالة على القدرة ورادّة على من ينكر الإرادة في اختلاف الألوان والطعوم كأنّ قائلاً يقول: اختلاف

الثمرات لاختلاف البقاع ألا ترى أنّ بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران والدارچين فردّ سبحانه زعمهم الباطل بأنّ بعض الجبال بل جبل واحد فيه مواضع حمر والجدد جمع جدّة وهي الخطّة والطريقة فطريقة حمراء متّصلة بخطّ أسود. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الظاهر أنّ الاختلاف راجع إلى كلّ لون أي: بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لأنّ الأبيض قد يكون على لون الجصّ وقد يكون على لون التراب الأبيض وكذلك الأحمر ولو كان المراد أنّ البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرّد تأكّد ومعنى الأوّل آكد وأولى وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ تأكيد «للسود» أي: سود غرابيب كالفاقع للأصفر.

فإن قيل: إنّ التأكيد لا يجيء إلّا متأخّرا فكيف جاء ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾؟ قال الزمخشريّ: ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ تأكيد لذي لون مقدّر في الكلام وتقديره سود غرابيب ثمّ أعاد السود مرّة اخرى فحينئذ فيه زيادة التأكيد لكونه ذكره مضمرا ومظهرا وقيل: هو على التقديم والتأخير ويجوز أن يكون ﴿سُودٌ﴾ عطف بيان يبيّن غرابيب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ﴾ وكذلك خلق سبحانه من النّاس والدوابّ الّتي تدبّ على وجه الأرض والأنعام كالإبل والغنم والإبل كذلك مختلف اللون كاختلاف الثمرات والجبال وكما أنّها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل. ثمّ تمّ الكلام وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ الخشية بقدر المعرفة فالعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فبيّن أنّ الكرامة بقدر التقوى ثمّ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ذكر سبحانه ما يوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التامّ وكونه غفورا يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع

اللّه فالمعنى أنّه سبحانه يبجّل ويعظّم. وحاصل المعنى أنّه ليس يخاف اللّه حقّ خوفه ولا يحذّر معاصيه خوفا من نقمته إلّا العلماء. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «يعني بالعلماء من صدّق قوله فعله ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم»[1] وفي الحديث: «أعلمكم باللّه أخوفكم للّه» قال[2] مسروق: كفى بالمرء علما أن يخشى اللّه وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه وإنّما خصّ العلماء بالخشية لأنّ العالم أحذر لعقاب اللّه من الجاهل حيث يختصّ بمعرفة التوحيد والعدل ويصدّق بالبعث والحساب والجنّة والنار.

ثمّ وصف سبحانه العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يقرءون القرآن في الصلاة وغيرها فأثنى عليهم بقراءة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: ملّكناهم التصرّف فيه ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في حال السرّ والعلن أي: أنفقوا في حال كونهم مسرّين ومعلنين وعن عبد اللّه بن عمر الليثيّ قال: قام رجل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول اللّه مالي لا أحبّ الموت؟ قال صلى الله عليه وآله: ألك مال؟ قال: نعم قال: فقدّمه قال: لا أستطيع قال: فإنّ قلب الرجل مع ماله إن قدّمه أحبّ أن يلحق به وإن أخّره أحبّ أن يتأخّر معه[3]. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي: راجين بذلك تجارة لن تكسد ولن تفسد ولن تهلك إشارة إلى الإخلاص وينفقون لوجهه لا أن يقال له: إنّه كريم. ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: أنفقوا لأن يوفّيهم اللّه أجورهم بالثواب ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لحسناتهم وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال في قوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ

١ـ الكافي، ج ١، ص٣٦، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٤٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٤٢، وبحارالانوار، ٦٧، ص٣٤٤.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٤٣، ومشكاة الانوار، ص٥٢٤.

﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفا في الدنيا[1] وقيل: معنى ﴿شَكُورٌ﴾ أنّه يقبل اليسير ويثيب عليه الكثير تقول: أشكر من بردفة وهي شجرة عارية من الورق تغيم السماء فوقها فتخضرّ وتورق من غير مطر.

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمّد وأنزلنا ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الصحيح الّذي لا يشوبه فساد والصدق الّذي لا يمازجه كذب وهو يدعو إلى الحقّ ويصرف عن الباطل ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ﴿مُصَدِّقٗا﴾ حال مؤكّدة لكونه حقّا ومصدّقا لما قبله من الكتب مثل التوراة والإنجيل لأنّه جاء موافقا لما بشّرت به تلك الكتب ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: من الكتاب الكبير وهو اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ وهذا جواب لما كانوا يقولونه: إنّه لم لم ينزل هذا القرآن على رجل عظيم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ﴾ يعلم صلاحهم وبواطنهم و﴿بَصِيرٞ﴾ يرى ظواهرهم وهذا مثل قوله:

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٤٣، وبحارالانوار، ج٦٤، ص٤٩.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1] فاختار محمداً ﷺ ولم يختر غيره فهو أصلح من الكلّ.

ثمّ قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ومعنى الإرث انتهاء الأمر والحكم إليهم والميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم واختلف في الّذين اصطفاهم اللّه من عباده في الآية فقيل: هم الأنبياء اختارهم اللّه برسالته وكتبه عن الجبّائيّ وقيل: هم المصطفون الداخلون في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾[2] وقيل: هم امّة محمّد أورثهم اللّه كلّ كتاب أنزله عن ابن عباس وقيل: هم علماء امّة محمّد ﷺ لما ورد في الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[3] والمرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا: «هي لنا خاصّة وإيّانا عنى»[4] وهو الأقرب من الأقوال والأصحّ لأنّهم أحقّ الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء واستيراث علم الأنبياء إذ هم المتعبّدون بحفظ الوحي والقرآن وبيان حقائقه ودقائقه.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ اختلف في أنّ الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى من يعود على قولين: أحدهما أنّه يعود إلى العباد وتقدير الكلام:

فمن العباد ظالم لنفسه وروي نحو ذلك عن ابن عبّاس والحسن وقتادة واختاره المرتضى من أصحابنا قال: والوجه أنّه لمّا علّق توريث الكتاب بمن اصطفاه من عباده بيّن عقبه أنّه إنّما علّق وراثة الكتاب ببعض العباد دون بعض لأنّ في العباد من هو ظالم لنفسه ومن هو مقتصد ومن هو سابق بالخيرات والقول

١ـ سورة الانعام: ١٢٦.

٢ـ سورة آل عمران: ٣٣.

٣ـ الكافي، ج١، ص٣٢، والامالي، للصدوق، ص١١٦.

٤ـ وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٤٧، والمناقب، ج٣، ص٢٧٤.

الثاني: أنّ الضمير يعود إلى المصطفين من العباد عن أكثر المفسّرين.

ثمّ اختلف في أحوال الفرق الثلاث على قولين: أحدهما: أنّ جميعهم ناج ويؤيّد ذلك ما ورد في الحديث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول اللّه يقول في الآية: «أمّا السابق فيدخل الجنّة بغير حساب وأمّا المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأمّا الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثمّ يدخل الجنّة فهم الّذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وعن عائشة أنها قالت: كلّهم في الجنّة أمّا السابق فمن مضى على عهد رسول اللّهﷺ بالجنّة وأمّا المقتصد فمن اتّبع أثره من أصحابه حتّى لحق بهم وأمّا الظالم فمثلي ومثلكم وروي عنها أنّها قالت: السابق الّذي أسلم قبل الهجرة والمقتصد الّذي أسلم بعد الهجرة والظالم نحن. وروي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: سابقنا سابق ومقتصد ناج وظالمنا مغفور له. وقيل: إنّ الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الّذي استوى ظاهره وباطنه والسابق الّذي باطنه خير من ظاهره. وقيل: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالصغائر ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ بالطاعات في الدرجة الوسطى ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ في الدرجة العليا عن جعفر بن حرب.

وروى أصحابنا عن الصادقعليه السلام أنّه قال: **«الظالم لنفسه منّا من لا يعرف حقّ الإمام والمقتصد منّا العارف بحقّ الإمام والسابق بالخيرات هو الإمام وهؤلاء كلّهم مغفور لهم»**[1].

وعن زياد من المنذر عن أبي جعفرعليه السلام قال: **«أمّا الظالم لنفسه منّا من عمل صالحا وآخر سيّئا وأمّا المقتصد المتعبّد المجتهد وأمّا السابق بالخيرات فعليّ والحسن والحسين ومن قتل من آل محمّد شهيدا»**[2].

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٤٦، وبحار الانوار، ج٢٣، ص٢١٣.

٢ـ المناقب، ج٣، ص٢٧٤، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٤٦.

والقول الآخر: أنّ الفرقة الظالمة لنفسها غير ناجية قال قتادة: الظالم لنفسه أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق بالخيرات هم السابقون المقرّبون من الناس كلّهم، كما قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾[1] وقال عكرمة عن ابن عبّاس: إنّ الظالم هو المنافق والمقتصد والسابق من جميع الناس وقال الحسن: السابقون هم الصحابة والمقتصدون هم التابعون والظالمون هم المنافقون وفي «الصافي» نقلا عن «بصائر الدرجات» عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية «هي في ولد فاطمة عليها السلام»[2].

وعن الصادق عليه السلام أنّه قيل له: إنّها في الفاطميّين فقال: «ليس حيث تذهب ليس يدخل في هذا من سلّ سيفه ودعا الناس إلى الضلال» فقيل: من الظالم لنفسه قال: «الجالس في بيته لا يعرف حقّ الإمام والمقتصد العارف بحقّ الإمام والسابق الإمام»[3] وعن الكاظم أنّه تلا هذه الآية وقال: «نحن الّذين اصطفانا الله عزّ وجلّ وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كلّ شيء»[4].

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «أراد الله بذلك العترة الطاهرة ولو أراد الأمّة لكانت بأجمعها في الجنّة لقول الله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآية ثمّ جمعهم كلّهم في الجنّة فقال: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم»[5].

وعن الصادق عليه السلام «أنّ فاطمة لعظمها على اللّه حرّم اللّه ذرّيّتها على النار

١ـ سورة الواقعة: ٧.

٢ـ الصافي، ج٦، ص١٢٩، ونقلاً عن البصائر، ص٦٥.

٣ـ الكافي، ج١، ص٢١٥، وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٣٨.

٤ـ الكافي، ج١، ص٢٢٦.

٥ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٠٧، وتحف العقول، ص٤٦٦.

وفيهم نزلت ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ الآية[1] وفي الاحتجاج عن الصادق أنه سئل عنها وقيل له: إنّه لولد فاطمة خاصّة فقال: «أمّا من سلّ سيفه ودعا الناس إلى نفسه إلى الضلال من ولد فاطمة فليس بداخل في هذه الآية». قيل له: من يدخل فيها؟ قال: «الظالم لنفسه الّذي لا يدعو الناس إلى ضلال ولا هدى والمقتصد منّا أهل البيت العارف حقّ الإمام والسابق الإمام»[2].

وفي «المعاني» عنهﷺ أنّه سئل عنها فقال: «نزلت فينا أهل البيت» فقيل له: فمن الظالم لنفسه؟ قال: «الّذي استوت حسناته وسيّئاته منّا أهل البيت فهو الظالم لنفسه» فقيل: من المقتصد منكم قال: «العابد لله في الحالين حتى يأتيه اليقين». فقيل: فمن السابق منكم بالخيرات؟ قال: «من دعا والله إلى سبيل ربّه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يكن للمضلّين عضدا ولا للخائنين خصيما ولم يرض بحكم الفاسقين إلّا من خاف على نفسه ودينه ولم يجد أعوانا» انتهى[3].

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ المعنى: إنّ إيراث الكتاب واصطفاء الله إيّاهم بإذن الله وأمره وهو الفضل العظيم.

فإن قيل: لم قدّم الظالم وأخّر السابق وإنّما يقدّم الأفضل؟

فالجواب أنّه قد يقدّم الأدنى في الذكر على الأفضل قال سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾[4] وقال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[5] وقال: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[6] وقال: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ

١ـ نور الثقلين، ج ٤، ص٣٦٤، والخرائج والجرائح، ج ١، ص ٢٨١.

٢ـ الاحتجاج، ج ٢، ص١٣٩، وتفسير الصافي، ج ٤، ص٢٣٩.

٣ـ معاني الاخبار، ص١٠٥، وتفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٧٧.

٤ـ سورة الحج: ٦١.

٥ـ سورة الشورى: ٤٩.

٦ـ سورة الملك: ٢.

مُّبِينٌ ﴾[1] ويمكن أن يقال: إنّما قدّم الأدنى على الأفضل لئلّا ييئس الظالم من رحمته وأخّر السابق لئلّا يعجب بعمله أو رتّب هذا الترتيب على مقامات الناس لأنّ أحوال الناس ثلاثة معصية ثمّ التوبة ثمّ القربة فإذا عصا فهو ظالم وإذا تاب فهو مقتصد وإذ تمحّض في عبادة اللّه اتّصل باللّه وعدّ من السابقين.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ هذا تفسير للفضل كأنّه قيل: ما ذلك الفضل الكبير؟ فقال: هي جنّات أي: جزاء جنّات أو دخول جنّات ويجوز أن يكون بدلا من الفضل أي: ذلك الفضل دخول جنّات. ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ جمع «أسورة» وهي جمع «سوار» وهي حلية اليد من ذهب ولؤلؤ أي: ويحلّون فيها أساور من لؤلؤ أو من ذهب صفائه صفاء اللؤلؤ أو مرصّع باللؤلؤ من حليت المرأة فهي حالية ومتحلّية والتحلّي بالأساور كاشف عن الفراغ من السعي والبطش ويدلّ على الغناء والراحة وزوال كلّ مكروه ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ وهو الأبريسم المحض.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ فاخبر سبحانه عن حال الداخلين بأنّهم إذا دخلوا الجنّة يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ اعترافا منهم بنعمته لا على وجه التكليف بل شكرا على هذه النعمة من الفرح ويعنون من ﴿ٱلۡحَزَنَ﴾ الحزن الّذي أصابهم قبل دخول الجنّة لأنّهم كانوا يخافون دخول النار ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ لذنوب عباده وقبيح أفعالهم و﴿شَكُورٌ﴾ يقبل اليسير من محاسن أعمالهم وشكر اللّه هو مكافاته على شكرهم وقبول يسير طاعتهم وإن كان حقيقه الشكر لا يجوز عليه ولا يصحّ أن يكون سبحانه منعما عليه لأنّ تمام النعم منه فهو المنعم لا المنعم.

قوله: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ ﴾ هذا من كلامهم أي: أنزلنا دار الخلود

١ـ سورة التغابن: ٢

يقيمون فيها أبدا لا يموتون ولا يتحولون عنها من فضله ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسّنا في الجنّة عناء ومشقّة ولا يمسّنا ولا يصيبنا فيها إعياء وتعب أي: ليس في الجنّة كالدنيا مظانّ المتاعب وقيل: النصب التعب الممرض واللغوب هو ما يلغب منه وما يحصل من ذلك المرض فكأنّه قال: لا يمسّنا مرض ولا دون ذلك.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ذكر ما أعدّه لأهل الجنّة من أنواع الثواب عقّبه بذكر ما أعدّه للكفّار من أليم العقاب فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدانيّة اللّه وجحدوا نبوّة نبيّه ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ جزاء على كفرهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ أو يستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ولا يسهّل عليهم عذاب النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل هذا العذاب ونظيره ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ جاحد كثير الكفران مكذّب لأنبياء اللّه.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ ويتصايحون ﴿فِيهَا﴾ في النار بالاستغاثة يقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من عذاب النار ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ ونؤمن بدل الكفر ونطع بدل المعصية وردّنا إلى الدنيا لنعمل بالطاعات الّتي تأمرنا بها ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من المعاصي. فوبّخهم اللّه تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: ألم نعطكم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكّر ويعتبر وينظر في امور دينه وعواقب حاله من يريد أن يتذكّر واختلف في هذا المقدار فقيل: هو ستّون سنة وهو المرويّ عن أمير المؤمنين قال عليه السلام: «العمر الّذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستّون سنة»[1] وهو إحدى الروايتين عن ابن عبّاس وروي عن النبيّ أيضا مرفوعا أنّه قال: «من عمّره الله ستّين سنة فقد أعذره الله»[2] وقيل: هو أربعون سنة عن ابن عبّاس ومسروق وقيل: هو توبيخ لابن ثماني عشر سنة، عن وهب وقتادة وروي ذلك عن الصادق عليه السلام[3].

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: المخوف من عذاب اللّه وهو محمّد صلى الله عليه وآله عن ابن زيد وجماعة وقيل: النذير القرآن وقيل: الشيب والبياض في الشعر عن عكرمة وجماعة ومنه قول الشاعر:

رأينا الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير

وقال عديّ بن زيد:

وبياض السواد من نذر ... الموت وهل بعده يجيء نذير

وقيل: ﴿النَّذِيرُ﴾ موت الأهل والأقارب وقيل: كمال العقل.

﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب وحسرة الندم ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع

١ـ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٨٢، ومجمع البيان، ج ٨، ص ٢٤٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٨١، وبحار الانوار، ج ١٢، ص ٢٨٥.

٣ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٤٩، وتفسير نورالثقلين، ج ٤، ص ٣٦٨.

العذاب عنهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لدوامهم في العذاب وبيان لأمر آخر وهو أنّه سبحانه لمّا قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] ولا يزاد عليها فلو قال قائل: الكافر ما كفر بالله إلّا أيّاما معدودة فكان ينبغي أن لا يعذّب إلّا مثل تلك الأيّام فأجاب الله تعالى أنّ الله لا يخفى عليه غيب السماوات والأرض ولا يخفى عليه ما في الصدور وكان يعلم من الكافر أنّ في قلبه تمكّن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده وبالجملة لا يخفى عليه شيء ممّا يغيب عن الخلائق علمه فلا تضمروا في أنفسكم ما يكرهه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم معاشر الكفّار امّة بعد امّة وخلائف القرون الماضية وأحدثكم بعده وأورثكم ما كان لهم ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ﴾ ضرر ﴿كُفْرُهُۥ﴾ وعقاب كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: شدّة البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: خسرانا وهلاكا، والكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلّا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلّا خسارا، فإنّ العمر كرأس المال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل لهم يا محمّد: أخبروني أيّها المشركون عن الأوثان الّذين أشركتموه مع الله في العبادة ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وبايّ شيء أوجبتم لها العبادة وأيّ شيء خلقوه من الأرض؟ فإن قيل: كيف يفسّر قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ في معنى أخبروني؟ لأنّ الاستفهام يستدعي جوابا مثاله يقول القائل: أ رأيت ما ذا فعل فلان فيقول السامع: باع أو اشترى ولو لا تضمّنه معنى أخبروني لما كان الجواب إلّا قوله

١ـ سورة الشورى: ٤٠.

لا أو نعم فحينئذ يستخبر المستفهم الخبير ويطلبه فيصحّ معنى أخبروني.
﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ألهم شرك في خلقها ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ وأنزلنا عليهم كتابا وأمرا يصدّق دعواهم فيما هم عليه من الشرك ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ فيكونون على حجّة واضحة لعبادتهم إيّاها من ذلك الكتاب والضمير في قوله ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يمكن أن يعود إلى الشركاء أي: هل آتينا الشركاء كتابا فتصحّ العبادة ويمكن أن يعود الضمير إلى المشركين.

وحاصل المعنى أنّ هذه العبادة الباطلة لا عقليّة بسبب أنها مخلوقة عاجزة ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزء من الأجزاء ولا شيئا في السماء ولا نقليّة لأنّا ما آتيناهم كتابا فيه يكون أمرا بجواز العبادة لها فهذه العبادة لا عقليّة ولا نقليّة بل صرف التقليد فوعد بعضهم بعضاً في فائدة عبادة الأصنام من الشفاعة أو الرزق ليس إلّا غرورا لا حقيقة له وطمع في مالا يطمع فيه.

النظم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متّصل بقوله: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فالمراد أنه تعالى يعلم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لعدتم إلى كفركم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ
مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ
نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾
ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ
تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

﴿ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

المعنى: لمّا بيّن الله شرك المشركين قال: مقتضى شركهم زوال السماوات والأرض وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً كما قال عزّ وجلّ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[1] وبيّن أنّه تعالى يمسكهما لئلّا تزولا أو المعنى أنّه يمسكهما من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتها. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: إن قدّر أن تزولا عن مراكزهما ما أمسكهما أحد ولا يقدر على إمساكهما أحد ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد الله أو من بعد زوالهما ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وما ترك تعذيبهم إلّا حلما منه تعالى وإلّا كانوا يستحقّون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم ولم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على الشرك وهو لمن تاب ويرحمه بعد التوبة وإن استحقّ العقاب.

في «الكافي» عن أمير المؤمنين أنّه سئل عن الله عزّ وجلّ يحمل العرش أم العرش يحمله فقال عليه السلام: **«الله عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما بينهما وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ الآية»**[2].

وفي الإكمال عن الرضا عليه السلام في حديث: **«بنا يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا»**[3]. وعنهم عليهم السلام: **«لو لا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها»**[4].

١ـ سورة مريم: ٩٠ وبعده ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ فشركهم كدعواهم للرحمن ولداً يقتضي زوال السموات والأرض لكنه يصفح عنهم حلماً.

٢ـ الكافي، ج ١، ص١٢٩، وبحارالانوار، ج ٣٠، ص ٧٠، وتفسير الصافي، ج ٤، ص٢٤٢.

٣ـ كمال الدين، ص٢٠٢.

٤ـ الامالي، للصدوق، ص٢٥٣، وكمال الدين، ص٢٠٧.

ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: إنّهم بعد أن أشركوا والمراد كفّار مكّة حلفوا بالله بأيمان غليظة قبل أن يأتيهم محمّد ﷺ ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول مخوّف من جهة الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ إلى قبول قوله واتّباعه ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ الماضية يعني اليهود والنصارى وذلك أنّ قريشا لمّا بلغهم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى لو أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: محمّد وصحّ مجيئه بالبيّنة والظهور ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فإنّهم قبل البعثة كانوا كافرين بالله وبعدها كفروا برسوله وتباعدوا عن الحقّ.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عتوا على الله وأنفة من أن يكونوا تبعا لغيرهم وكانوا على حالة الاستكبار في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال: علم الفقه وحرفة الحدادة وأضيف المصدر إلى صفة المصدر فالتقدير: ومكروا المكر السيّئ والمراد المكر برسول الله وبالمؤمنين ومكر السيّئ كلّ مكر أصله الخدعة والكذب وكان تأسيسه على فساد لأنّ من المكر ما هو حسن وهو مكر المؤمنين بالكافرين إذا حاربوهم من الوجه الّذي يحسن أن يمكروا بهم.

قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا ينزل جزاء المكر السيّئ إلّا بمن فعله. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فهل ينتظرون إلّا عادة الله في الأمم الماضية أن يهلكهم إذا كذّبوا رسله وينزل بهم العذاب جزاء على كفرهم فإن كانوا ينتظرون ذلك ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يغيّر الله عادته من عقوبة الكافر ولا يبدّلها وهذا أمر واقع لا محالة ليس له من دافع ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذّبين إلى غيرهم.

فإن قيل: التبديل تحويل فما وجه التكرار؟

فالجواب أنّ قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي: العذاب للكافر لا يتبدّل بغيره وبقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ أي: لا يتحول العذاب عن مستحقّه إلى غيره فتبيَن الفرق بين التبديل والتحويل لأنّ التبديل تغيير الشيء مكان الشيء وتعويضه ولكنّ التحويل تصيير الشيء في غير المكان الّذي كان فيه فحينئذ ليس تكرارا ولو فرضنا التكرار فليتمّ تهديد المسيء ولعلّ المراد من «سنة الله» أنّ عادة اللّه جرت بأن إذا كان في القوم من يؤمن أو يكون في أصلاب الكافرين من يؤمن فلا يعذّبهم بعذاب الاستئصال فلذلك أمهلهم وليس لهذه العادة من تحويل وتغيير.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ألم يسر هؤلاء الكفّار الّذين أنكروا هلاك الأمم الماضية في الأرض والآية استشهاد على ما قبله من جريان سنّته على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في أسفارهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار ديار الأمم العاتية والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدّر يليق بالمقام.

وتقدير الكلام: أقعدوا ولم يسيروا في الأرض حتّى ينظروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مثل قوم لوط وعاد وثمود ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأطول أعمارا وما أغنى عنهم طول المدى وشدّة القوى والحالة أنّ أولئك كانوا أشدّ من هؤلاء قوّة. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: لم يكن اللّه يفوته شيء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بجميع الأشياء ﴿قَدِيرٗا﴾ على ما لا نهاية له وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ الآية، قطع لأطماع الجهّال بأن لو قال قائل: هب أنّ الأوّلين كانوا أشدّ قوّة وأطول أعمارا لكنّا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضيّة لها خواصّ أو كواكب سماويّة لها آثار مخصوصة فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ إلى قوله ﴿عَلِيمٗا﴾ بأفعالهم قديرا على إهلاكهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ لمّا هدّد الله المكذّبين بمن مضى وكانوا يستعجلون العذاب من شدّة عنادهم وفساد عقائدهم ويقولون: عجّل لنا عذابنا فقال الله تعالى في هذه الآية: للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الناس سريعا بنفس الظلم فإنّ الإنسان ظلوم جهول وإنّما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممّن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذّبين ولو أخذهم بنفس الظلم لكان كلّ يوم إهلاك فقال سبحانه: ولو يؤاخذ الله جميعا بما كسبوا من السيّئات كما فعل بأولئك ما ترك على ظهر الأرض من نسمة تدبّ عليها من بني آدم وقيل: من غيرهم أيضا من شؤم معاصيهم وهو المرويّ عن ابن مسعود وأنس.

ويعضد القول الأول قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة والضمير في قوله: ﴿ظَهْرِهَا﴾ عائد إلى الأرض ولم يجر لها ذكر لدلالة الكلام على ذلك والعلم الحاصل به ممّا تقدّم في الآية وما تأخّر أمّا ما تقدّم فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها وأمّا ما تأخّر فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأنّ الدوابّ على ظهر الأرض.

فلو قيل: إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدوابّ يهلكون؟

فالجواب أنّ خلق الدوابّ نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدوابّ أقرب النعم خصوصا للإنسان وأعلى درجات المخلوقات في النفع من عالم العناصر للإنسان الدوابّ فيزيل الله هذه النعمة وإزالة هذه النعمة ليست عقوبة للدوابّ بل عقوبة للإنسان والدوابّ المخلوقة تبعا ونفعا للإنسان فإذا كان الهلاك عامّا للإنسان فلا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى

الدوابّ. ثمّ من أعظم نعم اللّه المطر لأنّ به يحصل نعمة البقاء فإذا لم يستحقّوا قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت الدوابّ الأرضيّة وأمّا حيوانات البحريّة فتعيش بماء البحر وهو سبحانه قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

فإن قيل: كيف يقال لما عليها: ظهر الأرض؟ لأنّ الأرض كالدابّة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر ووجه الأرض ظهرها على أنّ الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب واحد والبطن والباطن من باب واحد فوجه الأرض ظهر لأنّه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فإذا جاء وقت الهلاك فاللّه بالعباد بصير إمّا ينجّيهم ويكون توفّيهم تقريبا من اللّه لا تعذيبا في حقّ المؤمنين وتعذيبا للكافرين كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

تمّت السورة.

١ـ سورة الأنفال: ٢٥.

سورة يس

مكية، إلّا آية منها وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية[1] نزلت بالمدينة.

فضلها أبيّ بن كعب عن النبيﷺ قال: «من قرأ سورة يس يريد وجه الله عزّ وجلّ غفر الله له وأعطي من الأجر كأنّما قرأ القرآن اثنتي عشرة مرّة وأيّما مريض قرئت عنده سورة يس نزل عليه بعدد كلّ حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً صفوفاً يستغفرون له ويشهدون قبضه ويتبعون جنازته ويصلّون عليه ويشهدون دفنه وأيّما مريض قرأها وهو في سكرات الموت أو قرئت عنده أتاه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فسقاه إيّاها وهو على فراشه فيشرب فيموت ريّان ويبعث ريّان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتّى يدخل الجنة وهو ريّان»[2].

وعن أبي بكر عن النبيﷺ أنّه قال: «سورة يس تدعى في التوراة المنعمة» فقيل: وما المنعمة؟ فقال: «تعمّ صاحبها خير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كلّ شرّ وتقضي له كلّ حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجّة ومن سمعها عدلت له ألف دينار في سبيل الله ومن كتبها ثمّ شربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف بركة

١ـ سورة يس: ٤٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٥٤، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٢٢.

وألف رحمة ونزعت عنه كلّ داء وغلّ»[1].

وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ لكلّ شيء قلبا وقلب القرآن يس»[2].

وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفّف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات»[3].

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ لكلّ شيء قلبا وقلب القرآن يس فمن قرأها في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتّى يمسي ومن قرأها في ليلة قبل أن ينام وكّل به ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم ومن كلّ آفة وإن مات في نومه أدخله الله الجنّة وحضر غسله ثلاثون ألف ملك كلّهم يستغفرون له ويشيّعونه إلى قبره بالاستغفار له فإذا ادخل لحده كانوا في جوف قبره يعبدون الله وثواب عبادتهم له وفسّح في قبره مدّ بصره وأمن من ضغطة القبر ولم يزل له في قبره نور ساطع إلى عنان السماء إلى أن يخرجه الله من قبره فإذا أخرجه لم تزل الملائكة معه يحدّثونه ويضحكون في وجهه ويبشّرونه بكلّ خير حتّى يجوزوا به الصراط والميزان ويوقفوه من الله موقفا لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلّا ملائكة الله المقرّبون وأنبياؤه المرسلون وهو مع النبيّين واقف بين يدي الله لا يحزن مع من يحزن ولا يهتمّ مع من يهتمّ ولا يجزع مع من يجزع ثمّ يقول له الربّ تعالى: اشفع عبدي اشفّعك في جميع ما تشفع وسلني عبدي أعطك جميع ما تسأل فيسأل فيعطى ويشفع فيشفّع ولا يحاسب فيمن يحاسب ولا يذلّ مع من يذلّ ولا يبكت بخطيئته ولا بشيء من سوء عمله ويعطى كتابا منشورا فيقول الناس بأجمعهم: سبحان الله ما كان لهذا العبد خطيئة واحدة ويكون من رفقاء محمّد صلى الله عليه وآله»[4].

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٥٤، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص ٣٢٢.

٢ـ جوامع الجامع، ج٣، ص١٢٩، وتفسير الرازي، ج٢٦، ص١١٣.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٥٤، وبحارالانوار، ج٩٩، ص٣٠١.

٤ـ ثواب الاعمال، ص١١١، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٥٥.

وروى محمّد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ لرسول الله اثني عشر اسما خمسة منها في القرآن: محمّد وأحمد وعبد الله ويس ونون»[(1)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ
﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ
أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

المعنى: قد تكرّر الكلام في الحروف المقطّعة عند مفتتح السور في أوّل البقرة وقيل: ﴿يسٓ﴾ معناه يا إنسان وتصغير الإنسان انيسين حذف الصدر منه وبقي العجز فيحتمل أن يكون الخطاب إلى الإنسان الكامل ابتداء وهو محمّد صلى الله عليه وآله وقيل: معناه: يا محمّد وهو اسم النبي صلى الله عليه وآله عن عليّ بن أبي طالب وأبي جعفر عليهما السلام[(2)] وقد ذكرنا الرواية فيه قبيل هذا وقيل: معناه يا سيّد الأوّلين والآخرين وقيل: معناه يا رجل بلغة.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ أقسم سبحانه بالقرآن المحكم من الباطل أو سمّاه حكيما لما فيه من الحكمة فكأنّه المظهر للحكمة الناطق بها.

ويختلف إعراب كلمة ﴿يسٓ﴾ باختلاف معانيها فمن قرأ بالرفع على أنّها خبر لمبتدء محذوف أي: هذه يس وأمّا بالضمّ على النداء المفرد واكتفى

١ـ الخصال، ص٤٢٦، ومجمع البيان، ج٨، ص ٢٥٥.

٢ـ الكافي، ج٦، ص ٢٠، ووسائل الشيعة، ج١٥، ص١٣٠.

من الاسم بحرف واحد وهو السين والياء حرف نداء ونظير حذف بعض الاسم قول النبي ﷺ: «كفى بالسيف شا»[1] أي: شاهدا فحذف العين واللام من شاهد فكذلك حذف من «إنسان» الفاء والعين وجعل ما بقي منه اسما قائما برأسه وهو السين فقيل: «ياسين» وهو شبيه بقول الشاعر حيث قال: «قلنا لها قفي لنا قالت ق» أي: وقفت أو تكون الكلمة مبنيّة على الضمّ كحيث وأمّا بالنصب فتقديره: اتل يس أو يكون مبنيّة بالفتح كأين وكيف وقرئ بالكسر مثل جير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالكسر لأنّ إضمار الجارّ غير جائز وليس فيه حرف جرّ وقسم. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الجملة مقسم عليه.

فإن قيل: إنّ المطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام في القرآن؟ فيه وجوه:

الاول: أنّ العرب كانوا يتوقّون الأيمان الكاذبة وكانوا يقولون ويعتقدون أنّ اليمين الكاذبة توجب خراب العالم وصحّح النبي ﷺ ذلك بقوله: اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع[2]، ثمّ إنّهم كانوا يقولون: إنّ النبي ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب وكان النبيّ يحلف بأمر اللّه وما كان يصيبه عذاب بل كان كلّ يوم أمنع مكانا وأرفع شأنا فكان القسم يوجب اعتقاد أنّه ليس بكاذب وما يراد من الدليل إلّا إثبات المدّعى وحصول المطلوب.

الوجه الثاني: أنّ المناظر إذا أقام برهانه ولم يقبل طرفه بقوّة جدله وكابر لا يجوز أن يأتي المناظر بدليل آخر لأنّ المكابر يقول في الدليل الآخر مثل ما قاله في الدليل الأوّل ولا يقبل فلا يجد المناظر بدًا لإثبات مراده إلّا اليمين فكذلك

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٥٧، وتفسير الآلوسي، ج٢٢، ص٢١١.

٢ـ انظر: الامالي، للصدوق، ص٥١١، ومن لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٧.

النبيّ لمّا أقام البراهين وقالت العرب: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] تعيّن التمسّك بالأيمان لعدم فائدة الدليل.

الثالث: هو أنّ هذا ليس مجرّد الحلف وإنّما هو دليل خرج في صورة اليمين لأنّ القرآن معجزة ودليل كونهﷺ مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر أي: إنّك ثابت على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق إلى المقصد والدين كذلك فإنّه توجّه إلى الله والمقصود أنّ محمّدا على الصراط المستقيم الّذي يكون عليه المرسلون وفيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحيّة الّذين يقولون: المكلّف يصير واصلا إلى الحقّ فلا يبقى عليه تكليف وذلك أنّ الله بيّن أنّ المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون ومتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز؟

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: هذا القرآن تنزيل الغالب في ملكه الرحيم بخلقه قرئ بالجرّ على أنّه بدل من القرآن كأنّه قال: والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم وقرئ بالنصب فيه وجهان: أحدهما: مصدر فعله منويّ أي: نزل تنزيل العزيز الرحيم والثاني: أنّه مفعول فعل معنويّ كأنّه قال: والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم لكنّ الزمخشريّ اختار الرفع على الخبريّة للمبتدأ وهو هذا.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لتخوّف به من معاصي الله قوما لم ينذر آباؤهم قبلهم لأنّهم كانوا في زمان الفترة بين عيسى ومحمّدﷺ وقيل: المعنى لم يأتهم نذير من أنفسهم وقومهم وإن جاءهم من غيرهم وقيل: معناه لم يأتهم من أنذرهم بالكتاب حسب ما أتيت وهذا على قول من

١ـ سورة سبأ: ٤٤.

قال: كان في العرب قبل نبيّنا من هو نبيّ كخالد بن سنان وقسّ بن ساعدة الأياديّ وغيرهما وقيل: معناه لتنذر قوما كما انذر آباؤهم فمعنى قوله ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: ما انذروا بعد ما ضلّوا عن طريق الرسول المتقدّم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عمّا تضمّنه القرآن وعمّا أنذر اللّه به من نزول العذاب والغفلة مثل السهو وهو ذهاب المعنى عن النفس.

ثمّ أقسم سبحانه فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وجب الوعيد واستحقاق العقاب عليهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويموتون على كفرهم وقد سبق ذلك في علم اللّه وقيل: معناه لقد سبق القول على أكثرهم أنّهم لا يؤمنون وذلك أنّه سبحانه أخبر ملائكته أنهم لا يؤمنون فحقّ قوله عليهم لأنه قد سبق في علمه أنّ هذا يؤمن وأنّ هذا لا يؤمن فقال في حقّهم: إنّهم لا يؤمنون وقوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ جواب القسم وتقدير الكلام واللّه يحقّق عدم إيمان أكثرهم لكن لا بطريق الجبر بل بسبب إصرارهم الاختياريّ على الكفر والإنكار وعدم تأثّرهم من الإنذار بحيث لا يثنيهم عاطف.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ قيل: إنّ هذه الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميّين كان حلف أبو جهل لئن رأى محمّدا يصلّي ليرضخنّ رأسه فأتاه وهو ﷺ يصلّي ومعه حجر ليدمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلمّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر من يده فقال صاحبه المخزوميّ: أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر فأغشى اللّه بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتّى نادوه: ما صنعت فقال: ما رأيته ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني.

وروى أبو حمزة الثماليّ عن عمّار بن عاصم عن شقيق بن سلمة عن

عبد الله بن مسعود أنّ قريشا اجتمعوا بباب النبيﷺ فخرج إليهم فطرح التراب على رؤوسهم وهم لا يبصرونه قال عبد الله بن مسعود: هم الّذين سحبوا في القليب قليب بدر[١].

وروى أبو حمزة الثماليّ عن مجاهد أنّ قريشا اجتمعوا بباب النبيّ فقالت: لئن دخل محمّد لنقومنّ إليه قيام رجل واحد فدخل النبيّ فجعل الله من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فلم يبصروه وصلّى النبيّ ثمّ أتاهم فجعل النبيﷺ ينشر على رؤوسهم التراب وهم لا يرونه فلمّا خلّى عنهم رأوا التراب وقالوا: هذا ما سحركم ابن أبي كبشة[٢].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ وروي عن ابن مسعود وابن عبّاس أنّهما قرءا «إنّا جعلنا في أيمانهم» وقرأ بعضهم في أيديهم وقال بعضهم على القراءة المشهورة واستعاروا الأعناق بالكناية عن الأيدي فالمعنى واحد في الجميع لأنّ الغلّ لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق ومثله في التنزيل ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[٣] ولم يقل: والبرد لأنّ المعنى اللازم أنّ ما يقي من الحرّ يقي من البرد. واختلف في معنى الآية على وجوه:

أحدها: أنّه سبحانه بسوء اختيارهم واستحقاقهم جعلهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله ولا يبسطون أيديهم إلى الخير والزكاة وإنّما ذكره ضربا للمثل وتقديره: إنّ هؤلاء في إعراضهم عمّا تدعوهم إليه كمثل رجل غلّت يده إلى عنقه لا يمكنه أن يبسطهما وطامح برأسه لا يمكنه من أن يطأطئ

١ـ تفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٧٩، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٥٨.

٢ـ تفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٨٠، ومجمع البيان، ج٨، ص ٢٥٨.

٣ـ سورة النحل: ٨١.

رأسه لأنّ المغلول تكون يده مجموعة في الغلّ إلى عنقه والمغلول الّذي بلغ الغلّ ذقنه بقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر طريق قدميه وهو كناية عن عدم هدايته إلى الطريق الحقّ فهذا الّذي يهديه النبيّ إلى الصراط المستقيم وهو يعاند ويمتنع عن قبول قوله جعل ممنوعا كالمغلول.

وثانيها: أنّ المعنى كان هذا القرآن أغلالا في أعناقهم يمنعهم عن الخضوع لتدبّره واستماعه لاستثقالهم أحكامه وأنّهم لمّا استكبروا عنه وأنفوا من اتّباعه وكان المستكبر رافعا رأسه ولاويا عنقه شامخا بأنفه لا ينظر إلى الأرض صاروا كأنّما غلّت أيديهم إلى أعناقهم وهذا المعنى قريب في الجملة إلى الوجه الأوّل.

وثالثها: أنّ المعنى على سبيل الحقيقة وذلك أنّ ناساً من قريش همّوا بقتل النبيّ صلى الله عليه وآله فجعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه صلى الله عليه وآله كما بيّنّا في نزول الآية هذا المعنى.

ورابعها: أنّ المراد به وصف حالهم يوم القيامة فهو مثل قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وإنّما ذكره بلفظ الماضي للتحقيق وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي: متأبّون قهرا أن يطأطئون رؤوسهم بسبب الغلّ يقال: بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الّذي به الحياة وهذا الكافر يمتنع عن قبول الإيمان فيهلك كما يهلك البعير القامح.

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وفي الآية بيان معبّر عن خذلان الله إيّاهم لمّا كفروا أي: تركناهم مخذولين فصار خذلانهم سدّاً بين أيديهم ومن خلفهم وإذا فسّر الآية بأنّها وصف حال المشركين في الآخرة على بيان الوجه الرابع من الوجوه المذكورة الأربعة فالكلام على حقيقته يكون عبارة عن ضيق المكان في النار بحيث لا

يجدون متقدّما ولا متأخّراً إذ سدّ عليهم جوانبهم وإذا حملناه على صفة القوم الّذين همّوا بقتل النبيّ فالمراد جعلنا بين أيدي أولئك الكفّار منعا ومن خلفهم منعا حتّى لم يبصروا النبيّ فأغشينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبيّ وقرئ بالعين المهملة والمعنى مناسب مأخوذ من العشواء وقيل: فأغشيناهم العذاب فهم لا يبصرون النار.

ويمكن أن يكون في الآية إشعار بنكتة لطيفة وهي أنّ الإنسان له هداية فطريّة والكافر تركها وهداية نظريّة والكافر بسبب عناده ما أدركها فكأنّه تعالى قال: جعلنا من بين أيديهم سدّاً فلا يسلكون طريقة الاهتداء الّتي هي نظريّة وجعلنا من خلفهم سدّاً فلا يرجعون إلى الهداية الجبلّيّة الفطريّة.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: الإنذار وعدمه سيّان بالنسبة إلى الإيمان منهم. فإن قيل: إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟

فالجواب أنّه تعالى قال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ولم يقل: «سواء عليك» فالإنذار بالنسبة إلى النبيّ واجب وخروج عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا ولكن بالنسبة إليهم على السواء وانتفاء الفائدة في الإنذار قد صدر منهم. ثمّ قال تعالى:

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟
وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ

﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا
تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨
قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ
مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾

المعنى: لمّا بيّن سبحانه أنّ الكفّار لا يؤمنون أكثرهم بسبب إنكارهم النبوّة والقرآن عقّبه بذكر من ينتفع بالإنذار فقال:

﴿إِنَّمَا﴾ ينتفع بتخويفك وإنذارك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ والمراد القرآن ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في حال غيبته عن الناس بخلاف المنافق وقيل: معناه وخشي الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يا محمّد من هذه صفته ﴿بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ أي: ثواب خالص من الشوائب والغفران جزاء الإيمان فكلّ مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل. وهاهنا بيان لطيفة وهي: أنّ بعض العلماء قالوا: الله والرحمن اسمان علمان كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ فالله اسم ينبئ عن الهيبة والجلالة والرحمن ينبئ عن الرحمن والعاطفيّة وقال: في موضع ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ وقال هاهنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ يعني مع كونه تعالى ذا هيبة لا تقطعوا رجاءكم عنه ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ لمّا ذكر أصلا من الأصول وهو النبوّة ذكر أصلا آخر في هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ الآية وفي قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدءا وخبراً كقول القائل: «أنا أبو النجم وشعري شعري» ومثل هذا الكلام يقال عند الشهرة العظيمة وذلك لأنّ من لا يعرف يقال له: من أنت فيقول: أنا ابن فلان فيعرف ومن كان معروفاً إذا قيل له: من

أنت يقول: أنا أنا أي: لا معرّف لي أظهر من نفسي فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾.

وثانيهما: أن يكون الخبر ﴿نُحْيِ﴾ كأنّه قال: «إنّا نحيي الموتى» ونحن يكون تأكيدا قادرين كمال القدرة ونحيي الموتى ونكتب ما قدّموا أي: نحصي ما قدّموا وأسلفوا من الأعمال الصالحة والفاسدة وما أخّروا وقصّروا واكتفى بذكر أحدهما عن الآخر مثل قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والمراد البرد وقيل: نكتب ما قدّموه من عمل ليس له أثر. ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: ما يكون أثر وقيل: المراد بآثارهم أعمالهم الّتي صارت بعدهم سنّة يقتدى فيها بهم حسنة كانت أم قبيحة وقيل: المراد خطاهم إلى المسجد وسبب ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أنّ بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه فنزلت الآية[1] وفي الحديث عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أعظم الناس في الصلاة ثوابا أبعدها إليها ممشى»[2] ولمّا نزلت الآية وكانوا قبل ذلك ناوين النقلة ظلّوا في دورهم ثابتين فقال ﷺ: «إنّ الله يكتب خطوكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم»[3].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وأحصينا وعدّدنا كلّ شيء من الحوادث في كتاب مبين ظاهر لا يدرس أثره وهو اللوح المحفوظ والوجه في إحصاء ذلك اعتبار الملائكة به إذ قابلوا به ما يحدث من الأمور ليكون فيه دلالة على معلومات الله سبحانه على التفصيل وقيل: أراد صحائف الأعمال وعن عليّ عليه السلام قال: «أنا والله الإمام المبين أبيّن الحقّ من الباطل وورثته من رسول الله»[4].

وفي «المعاني» عن الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال: «نزلت هذه الآية على

1ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٦٣، وبحارالانوار، ج٧٠، ص٣٢٢.

2ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٦٣، وكنز العمال، ج٧، ص٥٥٥.

3ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٤٩.

4ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢١٢، وبحارالانوار، ج٣٥، ص٤٢٧.

النبيّ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قام أبو بكر وعمر من مجلسهما، وقالا: يا رسول الله هو التوراة؟ قال: «لا» قالا: فهو الإنجيل؟ قال: «لا» قالا: هو القرآن؟ قال: «لا» قالا: فما فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله: «هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء»[1].

وفي «الاحتجاج» عن النبيّ صلى الله عليه وآله في حديث قال معاشر الناس: ما من علم إلّا علّمنيه ربّي وأنا علّمته عليًا وقد أحصاه الله فيّ وكلّ علم علّمت فقد أحصيته في إمام المتّقين وما من علم إلّا علّمته عليًا[2].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هؤلاء أضراب أي: هؤلاء أمثال أي: ومثّل لهم يا محمّد مثالا أو اذكر لهم مثلا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ وترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذه البلدة الأنطاكية وقيل: المعنى مثّل قومك بأصحاب القرية الأنطاكية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء وهم بعثوا على قرية وأنت بعثت على العالم فتكون تتحمّل أذاهم ومكارههم.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذّبوا الرسولين قال ابن عبّاس: ضربوهما وسجنوهما ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هما ﴿بِثَالِثٍ﴾ وقوّيناهما برسول ثالث وكان اسم الرسولين شمعون ويوحنّا واسم الثالث يونس وقال ابن عبّاس: اسمهما صادق وصدوق والثالث اسمه شلوم وقيل: إنّهم رسل عيسى وهم الحواريّون وإنّما أضافهم تعالى إلى نفسه لأنّ عيسى أرسلهم بأمره. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قالوا: يا أهل القرية إنّ الله أرسلنا إليكم.

﴿قَالُواْ﴾ يعني أهل القرية: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فلا تصلحون

١ـ معاني الأخبار، ص٩٥، ومناقب آل أبي طالب، ج٢، ص٢٦٣.

٢ـ الاحتجاج، ج١، ص٧٤.

للرسالة كما لا نصلح نحن لها كما قال قوم محمّد هذا الكلام ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: أنتم بشر مثلنا فكيف صرتم رسل الله ولا يجوز رجحانكم علينا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلّا كاذبون في ادّعائكم.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ إشارة إلى أنّهم بمجرّد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا وكرّروا القول عليهم وأكّدوه بلام التأكيد واستشهدوا بعلم الله في رسالتهم وإنّما قالوا ذلك بعد ما قامت الحجّة منهم بظهور المعجزة فلم يقبلوها.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس يلزمنا إلّا أداء الرسالة وليس علينا أن نحملكم قهرا على الإيمان فإنّا لا نقدر.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: قال هؤلاء الكفّار: إنّا تشاءمنا بكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عمّا تدعونه من الرسالة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة وقيل: معناه لنشتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا﴾ يعني الرسل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: الشؤم كلّه معكم بإقامتكم على الكفر بالله تعالى فأمّا الدعاء إلى التوحيد وعبادة الله ففيه غاية البركة والخير واليمن وقيل: معنى ﴿طَائِرُكُم﴾ أي: نصيبكم وحظّكم من الخير والشرّ معكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ ثمّ قال المرسلون جوابا عن قول الكفّار حيث قالوا: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني أ تفعلون بنا ذلك وإن ذكّرتم وتبيّن لكم صدقنا وظهر الأمر بالمعجزة والبرهان ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وليس فينا ما يوجب التشأم بنا ولكنّكم قوم متجاوزون عن الحدّ في التكذيب للرسل، والإسراف الإفساد أي: أنتم تقصدون إيلام من يجب في حقّه الإكرام والمسرف هو المجاوز الحدّ بحيث يبلغ الضدّ لأنّ الواجب اتّباع الدليل فإن لم يوجد الاتّباع فلا أقلّ من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ فكان اسمه حبيب النجّار عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين وكان قد آمن بالرسل عند ورودهم القرية وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة فلمّا بلغه أنّ قومه قد كذّبوا الرسل وهمّوا بقتلهم جاء يعدو. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الّذين أرسلهم اللّه إليكم وأقرّوا برسالتهم وإنّما علم هو بنبوّتهم لأنّهم لمّا دعوه قال: أ تأخذون على ذلك أجرا؟ قالوا: لا وقيل: إنّه كان به زمانة أو جذام فأبرؤه فآمن بهم عن ابن عبّاس.

وشأن القصّة: أنّ عيسى عليه السلام بعث رسولين إلى مدينة أنطاكية فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجّار فسلّما عليه فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. فقال: أ معكما آية؟ قالا: نعم نشفي المريض ونبرء الأكمه والأبرص بإذن اللّه، فقال الشيخ: إنّ لي ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن اللّه صحيحا، ففشا الخبر في المدينة وشفى اللّه على أيديهما كثيرا من المرضى.

وكان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه فدعاهما وقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة الأوثان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر فقال الملك: أو لنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وأوجد آلهتك قال: قوما حتّى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق وضربوهما.

وقال وهب بن منبّه: بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياه ولم يصلا إلى ملكها وطالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا اللّه فغضب الملك وأمر بحبسهما وجلد كلّ واحد منهما مائة جلدة فلمّا

كذّب الرسولان وضربا بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريّين على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلدة متنكّرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه ثمّ قال له شمعون ذات يوم: أيّها الملك بلغني أنّك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك قال: فإن رأى الملك دعاهما حتّى نطّلع ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: الله الّذي خلق كلّ شيء لا شريك له قال شمعون لهما: وما آتاكما ربّكما؟ قالا: ما نتمنّاه فأمر الملك حتّى جاءوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتّى انشقّ موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعا حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجّب الملك، فقال شمعون للملك: أ رأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعا مثل هذا فيكون لك ولإلهك شرفا فقال الملك: ليس لي عنك سرّ إنّ إلهنا الّذي نعبده لا يضرّ ولا ينفع ثمّ قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكم على إحياء ميّت آمنّا به وبكما قالا: إلهنا قادر على كل شيء فقال الملك: إن هاهنا ميّتا مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه وكان غائبا فجاءوا بالميّت وقد تغيّر وأروح فجعلا يدعوان ربّهما علانية وجعل شمعون يدعو ربّه سرّا فقام الميّت وقال لهم: إنّي قد متّ منذ سبعة أيّام وادخلت في سبعة أودية من النّار وأنا احذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجّب الملك فلمّا علم شمعون أن قوله آثّر في الملك دعاه إلى الله فآمن وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون.

وقد روى مثل ذلك العيّاشيّ بإسناده إلى الثماليّ وغيره عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام إلّا أنّ في بعض الروايات: بعث الله الرسولين إلى أهل

أنطاكية ثمّ بعث الثالث وفي بعضها أنّ عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثمّ بعث وصيّه شمعون ليخلصهما وأنّ الميّت الّذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك وإنّه خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له: يا بنيّ ما حالك قال: كنت ميّتا فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني قال: يا بنيّ أفتعرفهما إذا رأيتهما قال: نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمرّ عليه رجل بعد رجل فمرّ أحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما ثمّ مرّ الآخر فعرفهما وأشار بيده إليهما فآمن الملك وأهل مملكته.

وقال ابن إسحاق: بل كفر الملك وأجمع هو وأهل مملكته على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكّرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثمّ ذكر سبحانه تمام الحكاية عن الرجل الّذي جاءهم من أقصى المدينة فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: أيها الكفّار اتّبعوا من لا يطلبون الأجر ولا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى ﴿وَهُم

﴿تُهۡتَدُونَ﴾ إلى طريق الحقّ فلمّا قال هذا الكلام أخذوه ورفعوه إلى الملك فقال له الملك: أ فأنت تتّبعهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وأيّ شيء لي لم أعبد خالقي الّذي أنشأني وهداني وفي الكلام إشعار بأنّ المانع مفقود والمقتضي موجود وقد وجب شكر المنعم لأنّه أنعم عليّ بالإيجاد والهداية. وفي قوله: ﴿فَطَرَنِي﴾ لطيفة وهي: أنّه معنى فطرني ولو أنّ معناه أنشأني ولكن مشعر بأنّه جعلني عين الفطرة الّتي فطر الناس عليها، فأنا باق عليها والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وفي العدول من التكلّم إلى الخطاب معنى لطيف وهو إشارة إلى الخوف والرجاء لأنّ من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى والعابد عابد يعبد الله لكونه إلها مالكا يستحقّ العبادة سواء أنعم أو لم ينعم وقسم يعبد الله خوفا من المخالفة وقسم يعبد الله للنعمة الواصلة إليه فجعل هذا الرسول نفسه من الطبقة الاولى وجعلهم دون ذلك من الطبقة الثانية والثالثة لأنّه علم أنّهم ليسوا قابلين أن يكونوا من الطبقة الاولى.

وهاهنا بيان وهو أنّه لم فتح الياء في قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ والحال أنّ الأصل سكون الياء؟ قال أبو عمرو: لئلّا يكون الابتداء بـ ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ ولكن قرأ في الباقي على الأصل كما في قوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾[1] بسكون الياء.

وبالجملة ثمّ أنكر عبادة الأصنام فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعبدهم ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ أي: إذا أراد الله إهلاكي والإضرار بي ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تدفع ولا تمنع شفاعة الأوثان عنّي شيئا أي: لا شفاعة لهم فتغني ولا يخلصوني ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من ذلك الضرر والإهلاك والمكروه وفي قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى أنّ غيره ليس باله لأنّ

١ـ سورة النمل: ٢٠.

المتّخذ لا يكون إلها لأنّ المتّخذ يجدّد أمرا ما كان وإلهيّة الإله كان ثابتا في أزل الآزال.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: إنّي إن فعلت ذلك وأتّخذ إلها غير الله وأعدل إذن أكون في ضلال واضح ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: آمنت وصدّقت بربّكم الّذي أخرجكم وخلقكم فاسمعوا قولي واقبلوه.

واختلف في المخاطبين في الآية قيل: الخطاب إلى الرسولين، قال المفسّرون: أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال: إنّي آمنت بربّكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي عند الله وقيل: المعنى أيّها السامعون إنّي آمنت بربّكم. ثمّ إنّ القوم لمّا سمعوا ذلك القول وطئوه بأرجلهم حتّى مات فأدخله الله الجنّة وهو حيّ فيها يرزق ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وقيل: رجموه حتّى قتلوه وقيل: لمّا أرادوا أن يقتلوه رفعه الله إليه فهو في الجنّة لا يموت إلّا بفناء الدنيا وهلاك الجنّة وقيل: إنّ القوم قتلوه إلّا أنّ الله سبحانه أحياه وأدخله الجنّة.

فلمّا دخلها ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ تمنّى أن يعلم قومه بما أعطاه الله من جزيل النعمة والثواب ليرغبوا فيه وليؤمنوا ولينالوا ذلك وفي تفسير الثعلبيّ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين عليّ أمير المؤمنين وصاحب يس ومؤمن آل فرعون فهم الصدّيقون وأفضلهم عليّ عليه السلام**»(١).

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: من المدخلين في الجنّة والإكرام هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم وفي هذا دلالة على نعيم القبر لأنّه إنّما قال ذلك وقومه أحياء في الدنيا وإذا جاز نعيم القبر جاز عذاب القبر فإنّ الخلاف فيهما واحد.

١ـ تفسير الثعلبي، ج٨، ص١٢٦، وتفسير جوامع الجامع، ج٣، ص١٣٥، وتفسير الصافي، ج ٤، ص ٢٥١.

وكلمة «ما» في قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي﴾ مصدريّة أو أن تكون موصولة أي: بالّذي غفر لي ويجوز أن يكون المعنى: بأيّ شيء غفر لي ربّي فيكون استفهاما.

ثمّ حكى سبحانه ما أنزله بقومه من العذاب والاستئصال فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتله أو من بعد رفعه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: الملائكة أي: لم ننتصر منهم لإهلاكهم بعد قتلهم الرسل جندا كثيرا من الملائكة يقاتلونهم والمراد الإشارة إلى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه وما كان يحتاج الأمر إلى إرسال جند يهلكهم وإنّما النازل من العذاب عليهم بصيحة ملك واحد أخمدت نارهم وخربت ديارهم.

ثمّ بيّن الله سبحانه فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ما كانت الواقعة إلّا صيحة قال الزمخشري: أصله: إن كان شيء إلّا صيحة فكان الأصل أن يذكّر لكنّه انّث لما بعده من المفسّر وهو صيحة وواحدة تأكيد لبيان أنّ الأمر عندنا هيّن ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ إشارة إلى سرعة الهلاك فإنّ خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها ووصفهم بالخمود لأنّهم لمّا قتلوا حبيبا النجّار غضب الله عليهم فبعث جبرئيل حتّى أخذ بعضادتا باب المدينة وكانت المدينة عظيمة ثمّ صاح بهم صيحة فماتوا دفعة عن آخرهم لا يسمع لهم حسّ كالنار إذا طفئت وسكنت أنفاسهم في أسرع وقت كما أنّ النار والسراج والشعلة تنطفئ دفعة واحدة.

فإن قيل: إذا كانت صيحة واحدة تكفي لقوم وامّة وأهل بلدة عظيمة مثل أنطاكية من ملك واحد فكيف أنزل جنودا لم تروها من الملائكة يوم بدر مع أنّه كان ذلك الملك وهو جبرئيل مع الملائكة؟ فذلك لجلالة محمّدﷺ وإلّا كان تحريك ريشة واحدة من جناح ملك كان كافيا في إهلاك العالم وما كان رسل عيسى في درجة محمّدﷺ.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي: هذا وقت الحسرة فاحضري والتنكير للتكثير، والعباد هم الّذين أخذتهم الصيحة فيا حسرة وندامة عليهم وتشمل هذه الحسرة لجميع المكذّبين بالرسل والمراد أنّه تحقّقت الندامة عند تحقّق العذاب.

وهاهنا بيان وهو أنّه من المتحسّر في الآية وفيه وجوه: الأوّل أنّه لا متحسّر أصلا في الحقيقة والمقصور أنّ ذلك الوقت وقت الندامة والحسرة لأنّ الفاعل يرفض إذا كان غير مقصود به أو القائل بقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ هو اللّه على الاستعارة تعظيماً وتهويلاً للأمر فحينئذ كالألفاظ الّتي وردت في حقّ اللّه كالنسيان والاستهزاء وأمثاله. أو المعنى: أنّه تعالى مخبر عن وقوع الندامة والحسرة في ذلك الوقت بصورة النداء لا بصورة الإخبار والمقصود الإخبار. الثالث: المتحسّر المسلمون والملائكة كما حكي عن حبيب النجّار أنه لمّا قتلوه كان يقول: «اللّهم اهد قومي» وبعد ما قتلوه وادخل الجنّة يتمنّى وكان يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فبيّن سبحانه سبب الحسرة وسبب وقوع العذاب فحينئذ هذا الكلام من قول اللّه: والمعنى أنّهم حلّوا محلّ من يتحسّر عليه وعذّبوا بسبب استهزائهم بالرسل ويحتمل أن يكون من كلام حبيب ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ إلى قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من كلام القوم لمّا عاينوا العذاب قالوا: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ يعني على الرسل حيث لم نؤمن بهم وقتلناهم فندموا حين لم ينفعهم الندامة ومعنى الحسرة أن يرتكب الإنسان أمرا ثمّ يشتدّ ندمه على ذلك الفعل ما لا نهاية له حتّى يبقى قلبه حسيرا.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ

وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

المعنى: ثمّ هدّد سبحانه كفّار مكّة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قرنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ مثل قوم عاد وثمود وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا يعودون في الدنيا أفلا تعترون بهم وأنكم ستصيرون إلى مثل حالهم فانظروا ألّا تصيروا مثلهم واحذروا أن يأتيكم العذاب والهلاك وأنتم في غفلة وغرّة. ويسمّى أهل كلّ عصر قرنا لاقترانهم في الوجود[1]. ثمّ بيّن أنّ من أهلكه الله هو غير متروك بل بعده حساب وعقاب وحبس وعذاب، وإن ترك من هلك لكان الموت راحة، قال الشاعر:

ولـــو أنّـــا إذا متنـــا تركنـــا   لكان الموت راحة كـلّ حـيّ

ولكنّـــا إذا متنـــا بعثنـــا   ونسأل بعده عـن كـلّ شـيء

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وفي «إن» وجهان: أحدهما: أنّها مخفّفة من المثقّلة واللام في «لَمَّا» فارقة بينها وبين النافية و«ما» زائدة مؤكّدة للمعنى فالقراءة حينئذ بالتخفيف في «لما» وثانيهما: أنّها نافية فحينئذ «لما» بمعنى «إلا» ومشدّدة. وحاصل المعنى أنّ الأمم يوم القيامة يحضرون فيقفون على ما عملوه في الدنيا من الماضين والباقين مبعوثون للحساب والجزاء.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: وحجّة ودلالة قاطعة لهم على قدرتنا على البعث ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: الأرض القحطة المجدبة الّتي لا تنبت أحييناها بالنبات ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: كلّ حبّ يتقوّتونه مثل الحنطة والشعير والأرز وغيرها من الحبوب ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ومن ذلك الحبّ يأكلون وينتفعون.

١ـ كذا قال الراغب في المفردات، وقيل فيه وجوه أخر.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ في الأرض بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وإنّما خصّ النوعين لكثرة منافعهما وأنواعهما ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: وفجّرنا في تلك الأرض الميتة أو في تلك الجنّات عيونا من الماء ليسقوا بها الكرم والنخيل.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما فعل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ من ثمر النخيل، وعود الضمير إلى أحد المذكورين لحصول العلم بأنّ الأعناب في حكم النخيل كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١) وترك الذهب حيث الإرجاع في الضمير به وقيل: الضمير عائد إلى اللّه أي: ليأكلوا من ثمر اللّه لأنّ سبب وجود الثمار ليس إلّا باللّه وإرادته ويمكن أن يكون الضمير عائد إلى التفجير أي: وفجّرنا فيها من العيون تفجيرا ليأكلوا ثمر ذلك التفجير.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: إنّ «ما» نافية أي: تلك الثمار ما عملته أيديهم بل نحن الزارعون واللّه أثمر النخل وأنبت البقل وقيل: «ما» موصولة فإنّه قال: والّذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير ومن السقاية وأمثالها وقيل: «ما» مصدريّة أي: ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون واللّه ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق اللّه وهذا المعنى على قراءة من قرأ ﴿وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ولا يجوز ذكر الهاء المفعول على هذا المعنى ومع هذه النعم العديدة والقدرة الكاملة ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ منعمهم وخالقهم.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

١ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية. سورة التوبة: ٣٤.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

لفظة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ علم دالّ على التسبيح وتقديره: اسبّح تسبيحاً للّذي خلق أصناف الأشياء. ووجه تعلّق الآية بما قبلها هو أنّه لمّا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهم تركوه وعبدوا غيره فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ وغيره لم يخلق شيئا وقد خلق سبحانه الأصناف والأشكال من الأشياء فالحيوان على مشاكلة الذّكر للأنثى وكذلك النخل والحبوب أشكال فلذلك قال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من سائر النبات ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وخلق منهم أولاد أزواجا ذكورا وإناثا ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ممّا في بطون الأرض وقعر البحار ولم يشاهدوه ولم يتّصل خبره بهم. ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ ودلالة اخرى لهم ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ وننزع من الليل ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ ونخرج ضوء الشمس والمراد من النهار الضوء أي: نضمحلّ الضوء ونسلبه فيبقى الهواء مظلما كما كان لأنّ الله يضيء الهواء بضياء الشمس فإذا سلخ منه الضياء كشط وازيل يبقى مظلما.

وقيل: إنّما قال سبحانه ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ لأنّه تعالى جعل الليل كالجسم لظلمته وجعل النهار كالجلد والقشر وهو عارض فالنهار كالكسوة والليلة أصل فهو كالجسم فإذا تميّز وانتزع منه الضوء ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في ظلام الليل لا ضياء لهم فيه.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: ودلالة اخرى لهم الشمس أي: إنّها تجري لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا فلا تزال تجري حتّى تنقضي الدنيا وقرئ «لا مستقرّ لها» والمعنى واحد أي: لا قرار لها إلى انقضاء الدنيا ويمكن أن يكون اللام للوقت والسبب نحو ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ فالجري بسبب حصول

الوقت وقيل: معناه أنها تجري لوقت واحد لا تعدوه ولا يختلف. أو المعنى أنّها تجري إلى أقصى منازلها في الشتاء والصيف لا يتجاوزها ولها في الارتفاع غاية لا تنقطع دونها وفي الهبوط غاية لا يتجاوزها ولا تقصر عنها فمستقرّها ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر الّذي لا يعجزه شيء ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الّذي لا يخفى عليه.

وهاهنا بيان وهو: أنّ المكان يدفع شبه الفلاسفة والزمان يدفع شبه المشبّهة.

أمّا بيان الأوّل: وهو أنّ الفلسفيّ يقول: لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل، وقبل وبعد لا يتحقّق إلّا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال فنقول: إنّه قد وافقتمونا على أنّ الأمكنة متناهية لأنّ الأبعاد متناهية بالاتّفاق فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدما وهو موصوف بالفوقيّة وفوق وتحت لا يتحقّق إلّا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه فإن قالوا: فوق السطح الأعلى لا خلأ ولا ملأ نقول: قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود.

وأمّا بيان الثاني: فلأنّ المشبّه يقول: لا يمكن وجود موجود إلّا في مكان فاللّه في مكان فنقول: فيلزمكم أن تقولوا: اللّه في زمان لأنّ الوهم كما لا يمكنه أن يقول: هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول: هو كان موجودا ولا زمان وكلّ زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أنّ اللّه قديم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: وقدّرنا وعيّنا للقمر مجاري ومنازل أي: جعلنا القمر ذا منازل حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل كلّ يوم وليلة منزلا منها لا يختلف حاله إلى أن يقطع الفلك إلى أن يعود في آخر الشهر دقيقا كالعذق اليابس العتيق المعوجّ المقوّس ثمّ يخفى يومين آخر الشهر.

وشبّهه سبحانه بالعذق لأنّه إذا مضى على العذق أيّام جفّ ويقوّس فيكون أشبه الأشياء بالهلال والهلال به والغالب أنّ العذق يصير كذلك ويتقوّس إذا مضى عليه ستّة أشهر.

وروى عليّ بن إبراهيم بإسناده قال: دخل أبو سعيد المكاري ـ وكان واقفيّاً ـ على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال: أبلغ من قدرك أنّك تدّعي ما ادّعاه أبوك فقال له أبو الحسن: «مالك أطفأ الله نورك وأدخل الفقر بيتك أما علمت أنّ الله سبحانه أوحى إلى عمران إنّي واهب لك ذكرا يبرأ الأكمه والأبرص فوهب له مريم ووهب لمريم عيسى فعيسى من مريم ومريم من عيسى وعيسى ومريم شيء واحد وأنا من أبي وأبي منّي» فقال له أبو سعيد:

فأسألك عن مسألة قال: «سل ولا إخالك تقبل منّي ولست من غنمي ولكن هلمّها قال: ما تقول في رجل قال عند موته: كلّ مملوك لي قديم فهو حرّ لوجه الله؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: ما ملكه لستّة أشهر فهو قديم وهو حرّ» قال: وكيف صار كذلك؟ قال: «لأنّ الله يقول: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ سمّاه الله قديماً ويعود العرجون كذلك لستّة أشهر» قال: فخرج أبو سعيد من عنده وذهب بصره وكان يسأل على الأبواب حتّى مات[1].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعة سير القمر لأنّ الشمس أبطأ سيرا من القمر فإنّ الشمس تقطع منازلها في سنة والقمر يقطعها في شهر فلا يمكن أن يدرك أحدهما الآخر وخلقهما على وفق الحكمة وجعل لكلّ منهما ومن الكواكب مطالع ومجاري مخصوصة متعيّنة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلّا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فحينئذ لا تدرك الثمار ولا تنضج. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ولا

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢١٥.

يسبق الليل النهار ولا يجتمع ليلتان ليس بينهما يوم بل يتعاقبان ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: وكلّ من الشمس والقمر والنجوم وذكر الشمس والقمر مشعر بالكواكب والنون عوض عن الضمير الّذي ذكر الشمس والقمر يشعر بوجود الضمير. في فلك يسيرون بانبساط وسهولة وكلّ ما انبسط في شيء فقد سبح فيه ومنه السباحة في الماء. وإنّما قال: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بالواو والنون لما أضاف إليها فعل مثل الآدميّين ووصفها بصفة من يعقل كما قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ قال ابن عبّاس: تدور كما تدور الغزل في الفلكة.

ويستنبط من بعض الأخبار كما ورد عن الرضا عليه السلام أنّ النهار خلق قبل الليل[1].

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

ثمّ امتنّ الله على خلقه بذكر فنون نعمه دالًّا بذلك على وحدانيّته فقال:

﴿وَآيَةٌ﴾ وحجّة وعلامة لهم على اقتدارنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: آباءهم وأجدادهم الّذين هؤلاء من نسلهم وانتشر منهم خلق كثير وتسمّى الآباء «ذرية» من ذرء الله الخلق لأنّ الأبناء والأولاد خلقوا منهم

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٧٥، وبحارالانوار، ج٥٤، ص٢٢٧.

وسمّي الأولاد ذرّيّة لأنّهم خلقوا من الآباء وقيل: الذرّيّة هم الصبيان والنساء وخصّ الذرّيّة بالذكر في السفينة مع أنّ الآباء أيضا حملوا لضعفهم ولأنّه لا قوّة لهم على السفر كقوّة الرجال. ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: سفينة نوح المملوة من الناس وما يحتاج إليه من فيها فسلموا من الغرق والفلك السفينة لأنّ السفينة تدور في الماء ومنه الفلك لأنّها تدور بالنجوم وفلك ثدي المرأة إذا استدار.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ﴾ إذا حملناهم في السفن ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ بتهييج الرياح والأمواج ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ ولا مغيث ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ولا يخلصون من الغرق. وهاهنا بيان لغويّ صرفيّ وهو أنّه جعل الفلك تارة جمعا مثل قوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ﴾[1] واخرى فردا مثل قوله: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وهذا ليس من قبيل لفظ المشترك الّذي وضعت بحركة واحدة لمعنيين بل الحركة الأصليّة في المعنيين مختلفة ولكن في الصورة متّحدة مثلها قولك: سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد نظنّ أنّها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركة أصليّة وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيّرة حيث إنّ الجمع يشتقّ من الواحد وهو ساجد ولا بدّ أن يلحق المشتقّ تغيير في الحركة أو في الحروف أو في مجموعها فساجد لمّا أردنا أن نشتقّ منه لفظ جمع غيّرناه وجئنا بلفظ السجود إذا عرفت هذا فالفلك عند كونه واحدا مثل «قفل» وعند كونها جمعا مثل «خشب» فإذا استعملت الكلمة بمعنى الجمع فيكون واحدها فلكة انتهى.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح سفنا يركبون فيها هؤلاء كما ركب أولئك والمراد السفن الّتي عملت بعد

١ـ سورة النحل: ١٤.

سفينة نوح على صورتها وشكلها وحاصل المعنى أنّ خلقنا لهؤلاء مثل ما خلقنا للمتقدّمين منهم و«من» في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ قيل: صلة زائدة مثل ما جاءني من أحد لكن سيبويه يقول «من» لا تقع صلة إلّا بعد النفي لكن هي مبيّنة وقيل: المراد وخلقنا ممّا يماثل الفلك ما يركبون من الإبل فإنّها سفائن البرّ وقيل: ممّا يماثل السفينة المراد الحمولة من الدوابّ كالإبل والبقر والحمير وإنّما جعلها مخلوقة لله مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرّد كون صنعهم بإقدار الله وإلهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بحكمته وقدرته كما يعرب عن هذا المعنى قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[١].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: لا يغاثون ولا ينقذون ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيمن علم الله منه أنّه مؤمن أو سيؤمن أو ننقذهم للتمتّع زمانا قليلا في الدنيا ونمتّعه إلى حين قدّرناه لتقضي آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للمشركين ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أمر الآخرة واعملوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا واحذروها ولا تغترّوا بها أو اتّقوا ما مضى من الذنوب وما تأتي من الذنوب بالتوبة للماضي والاجتناب للمستقبل وقيل: معناه: اتّقوا العذاب المنزل على الأمم الماضية وما خلفكم من العذاب الآخرة وجواب ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ محذوف أي: إذا قيل لهم اتّقوا لعلّكم ترحمون لا يتّقون ويعرضون ويدلّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: أعرضوا عن التفكّر في الحجج والمعجزات و«من» في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ هي الّتي تزاد بعد النفي للتأكيد والاستغراق ومن الثانية للتبعيض أي: ليس تأتيهم آية إلّا أعرضوا عنها

١ـ سورة هود: ٣٧.

وذلك سبيل من ضلّ الهدى وخسر الآخرة. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أيضا ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ في طاعته وأخرجوا من أموالكم ما أوجب الله عليكم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي: احتجّوا في منع الإنفاق والحقوق بأن قالوا: كيف نطعم من يقدر الله على إطعامه ولو شاء الله إطعامه أطعمه فإذا لم يطعم دلّ على أنّه لم يشأ إطعامه.

واختلف في هؤلاء القائلين: فقيل: هم اليهود حين أمروا بإطعام الفقراء وقيل: هم مشركوا قريش قال لهم أصحاب الرسول ﷺ: أطعمونا من أموالكم ما زعمتم أنّه لله وذلك قوله: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[1] وقيل: هم الزنادقة من الناس الّذين أنكروا الصانع تعلّقوا بقوله: ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فقالوا: إن كان هو الرازق فلا فائدة في التماس الرزق منّا وقد رزقنا وحرّمكم فلم تأمرون بإعطاء من حرمه الله؟

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من بقيّة قول الكفّار لمن أمرهم بالإطعام. وقيل: إنّه من قول الله حين ردّوا هذا الجواب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الّذي تعدنا به نزول العذاب بنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنت وأصحابك وهذا استهزاء منهم بخبر النبيّ وخبر المؤمنين.

فقال تعالى في جوابهم: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أى ما ينتظرون إلّا صيحة واحدة يريد النفخة الاولي عن ابن عبّاس، أي: إنّ القيامة تأتيهم بغتة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ الصيحة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يختصمون ويتناظرون في الأسواق وفي الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد نشروا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم الساعة والرجل يليط حوضه ليسقي إبله وماشيته فما يسقيها حتّى تقوم

١ـ سورة الانعام: ١٣٦.

وقيل: وهم يختصمون هل ينزل بهم العذاب أم لا؟ فإن قيل: إنّهم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها.

فالجواب: أنّ الانتظار فعليّ لأنهم كانوا يفعلون ما يستحقّون به البوار وتقريب الساعة والعذاب. والتنكير في الصيحة لبيان عظمتها وهولها كقولك: إنّ لفلان مالا أي: كثير عظيم وقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ للتأكيد والمبالغة في شدّة الصيحة أي: لا يحتاج معها إلى ثانية وتأخذهم وتعمّهم بالأخذ وتصل إلى من في المشارق والمغارب.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فبيّن الله سبحانه شدّة الأخذ بحيث لا يمهلهم إلى أن لا يتمكّنوا من الوصيّة، والتوصية بالقول والقول يوجد أسرع ممّا يوجد الفعل كأنّه قال سبحانه: لا يستطيعون كلمة فكيف فعلا يحتاج إليه زمان معتدّ به من أداء الواجبات وردّ المظالم؟

ولفظ التوصية ذكر في الآية لبيان أنه لا قدرة له على أهمّ الأمور فإنّ وقت الموت الحاجة إلى الوصيّة أقدم من كلّ الأمور والتنكير في التوصية للتعمّم ولأنّ التوصية قد يحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها والحاصل أنّ الساعة إذا أخذتهم بغتة لم يقدروا على الإيصاء بشيء ولا يقدرون إلى الرجوع إلى أهليهم. ثمّ بيّن سبحانه ما بعد الصيحة فقال:

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟
يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ
﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى

﴿ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا
مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾

أخبر الله عن النفخة الثانية وما يلقونه فيها إذا بعثوا بعد الموت فقال:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ فإن قيل: إنّ في هذا الموضع يقول: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ وفي موضع آخر ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1] والقيام غير النسلان وقوله: في الموضعين ﴿فَإِذَا هُم﴾ يقتضي أن يكونا معا فالجواب أنّ القيام لا ينافي المشي السريع ولا ينافي النظر والماشي قائم أو أنّ المواضع كثيرة أو أنّ لسرعة الأمور كان الكلّ في زمان واحد كقول امرئ القيس: «مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً».

وبالجملة فصارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادّين الإحياء والإماتة والصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة لمّا كانت الأجزاء مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق وأمّا حالة الموت كانت الأجزاء متفرّقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فعند الاجتماع تتفرّق وعند الافتراق تجتمع.

فائدة: اعلم أنّ «إذا» الّتي للمفاجاة هي «إذا» الّتي للظرف لكنّ الشيء قد يكون ظرفا للشيء معلوما كونه ظرفا فعند الكلام يعلم كونه ظرفا وعند المشاهدة لا يتجدّد علم كقول القائل: إذا طلعت الشمس أضاء الجوّ وإذا رأى إضاءة الجوّ عند الطلوع لم يتجدّد علم زائد وأمّا إذا قلت: خرجت فإذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب لكنّه لم يكن معلوما فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفا مفاجاة عند الإحساس فقيل: «إذا» للمفاجاة.

مسألة فلو قيل: أين يكون ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة

١ـ سورة الزمر: ٦٨.

الجبال؟ وذلك بأن يجمع اللّه الأجزاء كلّ واحد في الموضع الّذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه. وفي الآية إشعار بكمال القدرة حيث إنّه في زمان واحد يجتمعون وينسلون إلى الموضع الّذي يحكم اللّه فيه ولا حكم لغيره سراعا فلمّا رأوا أهوال القيامة ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وقرئ «يا ويلتنا» أي: كلّ واحد منهم يقول: يا ويل احضر فهذا أوان حضورك وقرئ من أهبّنا من هبّ من نومه إذا انتبه وإنّما يقولون: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ مع أنّهم كانوا معذّبين في القبر فكيف قالوا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟

قيل: إنّ للكفّار هجعة بين النفختين ويرفع اللّه العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون ويجدون فيها طعم النوم فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا أهوال القيامة دعوا بالويل والثبور وقالوا ذلك أو أنّهم لكثرة ما يشاهدون من الأهوال يختلط عقولهم يظنّون أنّهم كانوا نياما وقيل: إذا عاينوا جهنّم وما فيها من أنواع العذاب يصير عندهم عذاب القبر في جنبها مثل النوم فيقولون ذلك.

وقرئ «من بعثنا» بمن الجارّة والمصدر. و«المرقد» إمّا مصدر أي: رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس أي: المراقد والقبور.

ثمّ يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فيما أخبرونا عن هذا المقام وهذا البعث قال قتادة: أوّل الآية من قول الكافرين وآخرها للمسلمين: قال الكافرون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وقال المسلمون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

ثمّ أخبر سبحانه عن سرعة بعثهم فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لم تكن المدّة والنفخة إلّا مدّة صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: فإذا الأوّلون والآخرون مجموعون في عرصات القيامة محصورون في موقف الحساب وقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ يدلّ على أنّ كونهم

ينسلون إجباريّ لا اختياريّ.

ثمّ بيّن سبحانه ما يكون في ذلك اليوم بقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لييأس الكافر والمعنى أنّه لا ينقص من له حقّ شيئا من حقّه من الثواب والعوض بل الأمور جارية على مقتضى العدل.

ثمّ ذكر سبحانه حال أوليائه فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ شغلهم النعيم عن أهوال القيامة وغمرهم سرورهم عمّا فيه أهل النار من العذاب وأنّ أهل العذاب أقاربهم، قال ابن عبّاس: شغلوا بافتضاض العذارى وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[1] قال: «وحواجبهنّ كالأهلّة وأشفار أعينهنّ كقوادم النسور»[2] وقيل: باستماع الألحان مشغولون.

وقيل: شغلهم في الجنّة سبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء فثواب الرجل بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[3] وثواب اليد ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾[4] وثواب الفرج ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وثواب البطن ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ الآية، وثواب الأذن ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾[5] يسمعون الأصوات المطربة وثواب العين ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[6] فاكهون فرحون والفكه الطيّب النفس الضحوك فظهور البشر في الوجه والجبهة يقال: رجل فكه وفاكه ولم يسمع

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٨٢، وبحارالانوار، ج٨، ص٩٤.

٢ـ القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح وهي كبارها والنسور جمع نسر: الطائر المعروف.

٣ـ سورة الحجر: ٤٦.

٤ـ سورة الطور: ٢٣ـ ١٩.

٥ـ سورة الواقعة: ٢٢ـ ٦٢.

٦ـ سورة الزخرف: ٧١.

لهذا فعل في الثلاثيّ أو مأخوذ من الفكاهة فهو كناية عن الأحاديث الطيّبة وقيل: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: ذوو فكاهة كما يقال: لاحم وشاحم أي: ذو لحم وشحم.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ هم وحلائلهم في الدنيا ممّن وافقهم على إيمانهم في أستارهم من الظلال الّتي لا حرّ فيها ولا برد وقيل: المراد من الأزواج اللّاتي زوّجهم اللّه من الحور العين في ظلال أشجار الجنّة أي: في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر وعليها الحجال وقيل: هي الوسائد ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ عليها وجالسون جلوس الملوك إذ ليس عليهم من الأعمال شيء وكلّما اتّكئ عليه فهو أريكة والجمع «أرائك».

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: ما يتمنّون ويشتهون و«ما» موصولة أو موصوفة ويدعون يفتعلون من الدعاء عبّر بها عن مدعوّ عظيم الشأن أي: كلّ ما يدعونه حاصل لهم قال أبو عبيدة: يقول العرب: ادّع عليّ ما شئت أي: تمنّ عليّ.

ثمّ بيّن سبحانه ما يشتهون فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: لهم سلام ومنى أهل الجنّة أن يسلم اللّه عليهم ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وسلام بدل من ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ كأنّه لمّا قال: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ بيّنه ببدله فقال: «لهم سلام» فيكون في المعنى «سلام» كالمبتدء الّذي خبره «لهم» كما يقال: لزيد مال أو سلام خبر لمبتدء محذوف والمعنى ما يدّعونه لهم وهو سلام يقال لهم. ﴿قَوْلًا﴾ كائنا من واسطته تعالى ومن جهة لطفه وإكرامه إمّا بواسطة الملك أو بدونها مبالغة في تكريمهم قال ابن عبّاس: والملائكة يدخلون عليهم بالتحيّة من ربّ رحيم.

ثمّ ذكر سبحانه أهل النار فقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم: انفصلوا واعتزلوا معاشر العصاة والكفرة من جملة المؤمنين وكونوا على حدة قيل: إنّ لكلّ كافر بيتا في النار يدخل فيه فيردم ويسدّ بابه لا يرى ولا يرى.

ثمّ خصّهم بالتوبيخ فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ألم أنهاكم على ألسنة الأنبياء والرسل في الكتب المنزلة أن لا تطيعوا الشيطان فيما يأمركم به وقلت لكم: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عليكم. وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يخلق عبادة الشيطان لأنّه حذّر عباده عن عبادته ووبّخ عليه ولا يجوز أن يوبّخ ما خلقه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾

ثمّ بيّن سبحانه ما يقوله للكفّار يوم القيامة ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ فوصف عبادته بأنّه طريق مستقيم من حيث كان طريقا إلى الجنّة وذكر عداوة الشيطان لبني آدم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: أضلّ الشيطان خلقا كثيرا منكم بأن دعاهم وأغواهم وحملهم على الضلال ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنّه يغويكم ويصدّكم عن الحقّ فتنتبهون وصورة الكلام صورة الاستفهام ومعناه الإنكار عليهم والتبكيت لهم. وفي هذا بطلان مذهب أهل الجبر في أنّ الله لم يرد إضلالهم لأنّه سبحانه أنكر إضلال الشيطان إيّاهم ووبّخهم على متابعتهم إيّاه.

وهاهنا بيان وهو أنّه إن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه أو ممنوع عنه والنظر في هذا الأمر لا بدّ وأن يكون من جهة الشرع ومن بيان الشارع فإن لم تكن مأذونا فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فإن اتّبعته فقد عبدته ثمّ إنّ الشيطان يأمر أوّلا بمخالفة الله ظاهرا فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه بل يقول له: اعبد الله كي تكون عزيزا عند الناس وليرتفع شأنك عندهم وينتفع بك إخوانك وأعوانك وذلك لأنّ

غرضه اللعين أن يفسد عملك وينتزعه عن القربة ويدخله في الشرك ويجعله هباء منثورا وأنت بزعمك أنّك عبدت الله فهذا نوع من عبادة الشيطان وإطاعته ونوع آخر أن يحملك على المعاصي وذلك أيضا على تفاوت فمن المعاصي ما يقع والعامل فيه موافق جنانه ولسانه وأركانه ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح ويرتكب جريمة كارها بقلبه لما يقترف من ذنبه مستغفرا لربّه يعترف بسوء ما يقترف فهو أيضا عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ومتى كان العاصي منزجرا مستكرها بالقلب فهو مصداق الحديث النبويّ حيث قال: «**قال الله: لو لم تذنبوا لخلقت أقواما يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم**».

إذا عرفت هذا فالطاعة الّتي تقع بالأعضاء الظاهرة للشيطان إذا كانت البواطن طاهرة فمكفّرة بالأسقام والآلام كما ورد في الأخبار ومن ذلك قولهﷺ: «**الحمّى من فيح جهنّم**»[1]. وقولهﷺ: «**السيف محاء للذنوب**»[2] أي: لمثل هذه الذنوب ويدلّ عليه ما قالﷺ في الحدود «**أنّها كفّارات**»[3] وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلّا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الربّ فالقلب أمير واللسان خاصّته والأعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب لأنّه أعرض عن الله وأقبل على محبّة غير الله فهو المستعقب للعقاب الأليم والعمدة في سبب عداوة إبليس لآدم تكرمة آدم فحسده وشقاوة إبليس بسبب ترك السجود لآدم فإذا كان الشيطان للإنسان عدوّا مبينا فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشراب والزنا ويكره

١ـ دعائم الإسلام، ج ٢، ص١٤٦، وسائل الشيعة، ج٢، ص٦٤٧.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٩٧، والدّر المنثور، ج ٢، ص٩٨.

٣ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٩٧.

مساخطه من العبادة والمجاهدة والسبب أنّ اللعين يستولي على الإنسان بمعونة من نفس الإنسان وترك الإنسان الاستعانة بالله فيستعين الشيطان بالشهوة الّتي خلقها تعالى فيه لجواز التكليف ولمصالح بقائه وبقاء نوعه والجاهل يجعلها سببا لفساد حاله وتتقوى الشيطان بالدعوة بها إلى مسالك المهالك كما أنّ اللعين يستعين بغضبه الّذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه فيجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضارّ فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه وصحيح المزاج والعاقل لا يشتهي إلّا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبيء لا يستغني الإنسان عن الاستنشاق وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له في الاستخلاص إلّا الاستصلاح بالهواء الطيّب والروائح العطرة والرشّ بالخلّ والماورد فكذلك طريقة الإصلاح في الدنيا ترك استنشاق الهواء الوبيء الّذي هو الشيطان، وترك هوى النفس الّذي يعين عدوّ الله وتحريف الهوى بالتذكّر والذكر الطيّب الّذي هو بمنزلة الخلّ والعطر لفساد الهواء، فإذا صحّ مزاجه فحينئذ لا يميل إلّا إلى الحقّ ويحصل له مع العبادة الفة فهنالك يعترف الشيطان بأنّه ليس له عليه سلطان ولا يكون من حزب الضالّين بل من المفلحين.

مسألة: في الجبلّ ستّة لغات: كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمّهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمّهما مع التخفيف وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضمّ الجيم ومع كسره وفي معنى الجبلّ الجيم والباء واللام لا يخلو عن معنى الاجتماع والجبلّ فيه اجتماع الأجسام الكثيرة فالمراد من الجبلّة الجمع العظيم.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ بيّن سبحانه مآل أهل الضلال يخاطبون بعد التوبيخ ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وذلك

عند إشرافهم على شفير جهنّم أي: كنتم توعدونها على ألسنة الرسل بمقابلة عبادة الشيطان.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أمر إهانة وتنكيل كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[1] أي: ادخلوها وقاسوا فنون عذابها وأصل الصلاء اللزوم ومنه المصلّي الّذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره وقيل: معناه: صيروا صلاها أي: وقودها بما كنتم تكفرون جزاء على كفركم بالله وتكذيبكم أنبياء الله.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ والمراد الختم حقيقة يوضع على أفواه الكفّار يوم القيامة فلا يقدرون على النطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ أي: تستنطق الأعضاء الّتي لا تنطق في الدنيا لتشهد عليهم.

واختلف في كيفيّة الشهادة من الجوارح على وجوه:

أحدها: أنّ الله يجعلها خلقة يمكن أن تتكلّم وتعترف بذنوبها.

وثانيها: أنّ الله يجعل فيها كلاما وإنّما نسب الكلام إليها لأنّه لا يظهر إلّا من جهتها.

وثالثها: أنّ الله يجعل فيها آيات دالّة على أنّ أصحابها عصوا المعاصي فسمّي ذلك شهادة منها كما يقال: عيناك تشهدان كذا.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: تنطق الأعضاء بما كسبوا في الدنيا من الذنوب فجعل الله الشاهد عليهم منهم.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا

١ـ سورة الدخان: ٤٩.

عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

أخبر سبحانه عن قدرته على إهلاكهم وبيان استحقاق هؤلاء الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّته فقال:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ. والطمس محو الشيء حتّى يذهب أثره ولا يدرك منه شيء ولو أردنا أن نفعل بهم ما يوجب جناياتهم المستدعية لها لطمسنا على أعينهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يعني فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الّذي اعتادوا سلوكه ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الطريق وكيف يتوجّهون حينئذ جهة السلوك وكيف يتردّدون إلى منازلهم لأنّه إذا طمست أعينهم لم يهتدوا إليها وقيل: المعنى ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ أي: لأعميناهم عن الهدى ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فطلبوا طريق الحقّ وقد عموا عنه فكيف يبصرون؟ عن ابن عبّاس.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ كأنّ قائلاً يقول: الأعمى قد يهتدي بالأمارات العقليّة أو الحسيّة غير الحسّ البصر كالأصوات واللمس فقال: ولو نشاء مسخناهم وسلبنا قوّتهم وغيّرنا صورهم وعذّبناهم بنوع آخر من العذاب فأقعدناهم في منازلهم ممسوخين قردة وخنازير كما فعلنا بغيرهم أو جعلناهم حجارة في منازلهم ليس فيهم أرواحهم فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء ولا رجوعا إلى الخلقة الاولى بعد المسخ وهذا تهديد من الله لهم والمكان والمكانة واحد.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: من نطوّل عمره نصيّره بعد القوّة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلوقة فكأنّه نكس خلقه وردّه إلى حال الهرم الّتي تشبه حال الصبى

في ضعف القوة وغروب الغلم. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ويتدبرون في أنّ الله يقدر على الإعادة كما قدر على ذلك وقرئ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بصيغة الغائب. ثمّ أخبر عن نبيّه ووصفه توكيدا لقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي: ما علّمناه صناعة الشعر وإنشائه ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أن يقول الشعر من عند نفسه وما يتسهّل له الشعر وما كانﷺ يتزيّن له ببيت شعر حتّى أنّهﷺ تمثّل ببيت شعر جرى على لسانه: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا» فقال بعض الأصحاب: يا رسول الله إنّما قال الشاعر: «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا» أشهد أنّك لرسول الله وما علّمك الشعر وما ينبغي لك وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله يتمثّل ببيت أخي بني قيس:

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تـزوّد

فجعلﷺ يقول: «ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار»

فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله فيقول: إنّي لست بشاعر وما ينبغي لي فأمّا قوله:

«أنـــا النبـــيّ لا كـــذب أنـا بـن عبـد المطّلـب»[1]

فقد قال قوم: إنّ هذا ليس بشعر وقال آخرون: إنّما هو اتّفاق منه وليس بقصد منه إلى قول الشعر. وقيل: إنّ معنى الآية ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ بتعليم القرآن وما ينبغي للقرآن أن يكون شعرا فإنّ نظمه ليس بنظم الشعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعر فإنّ الشعر كلام متكلّف موضوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنيّ على خيالات واهية ومثل هذا لا يصلح للنبيّ ولا يتأتّى له لو طلبه فرضا كما جعلناه امّيا لا يهتدي للخطّ لتكون الحجّة أثبت والشبهة

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٨٧، ونورالثقلين، ج٤، ص٣٩٣.

أدحض وقد صحّ أنّه كان يسمع الشعر ويحثّ عليه لكن شعر الحكمة وقال لحسّان بن ثابت: لا تزال يا حسّان مؤيّدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الّذي أنزلناه عليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ من عند ربّ العالمين ليس بشعر ولا رجز ولا خطبة والمراد بالذكر أنّه يتضمّن ذكر الحلال والحرام والدلالات وأخبار الأمم الماضية للاعتبار فجمع سبحانه بينها لاختلاف فائدتها ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: من كان مؤمنا لأنّ الكافر كالميّت بل أقلّ من الميّت لأنّ الميّت وإن كان لا ينتفع ولا يتضرّر لكنّ الكافر لا ينتفع بدينه ويتضرّر به وقيل: المراد من الحيّ العاقل روي ذلك عن عليّ عليه السلام. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويجب الوعيد والعذاب على الكافرين بكفرهم وكلمة «القول» كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] وقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[2] لأنّه قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3] فلمّا وجد منهم التكذيب جاء التعذيب. ثمّ إنّه أعاد دلائل الوحدانيّة فقال:

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا
نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ

١ـ سورة السجدة: ١٣.

٢ـ سورة الزمر: ٧١.

٣ـ سورة الإسراء: ١٥.

ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ
﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

أي: ألم يعلموا علما يقينيا متاخم للمعاينة ﴿أَنَّا﴾ لأجلهم ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ تولّينا إحداثه بالذات من غير وليّ وناصر وذكر «الأيدي» استعارة يفيد المبالغة في التفرّد والاختصاص و«اليد» في اللغة تطلق على الجارحة والقوّة والنعمة ﴿أَنْعَٰمًا﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ ولو لم نخلقها لما ملكوها ولما انتفعوا بها وبألبانها وركوب ظهورها ولحومها وقيل: المراد هم لها ضابطون لم نخلقها وحشيّة لا يقدرون على ضبطها.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ وسخّرناها لتصرّفهم حتّى صارت منقادة غير نافرة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ على تقدير حذف المضاف أي: ذو ركوبهم وذو الركوب هو المركوب ويجوز أن يكون المعنى: فمن منافعها ركوبهم وأمّا ركوبتهم فهي المركوبة كالحلوبة والجروزة لما يحلب ويجرز. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ قسّم الأنعام وجعل منها ما يركب ومنها ما يذبح.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ فمن منافعها لبس أصوافها وأوبارها وأشعارها وأكل لحومها وركوب ظهورها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعم. ثمّ ذكر سبحانه جهلهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعبدون تلك الآلهة لكي ينصروهم ويدفعوا عنهم عذاب الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني هذه الآلهة الّتي عبدوها لا يقدر على نصرهم والدفع عنهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفّار جند للأصنام يغضبون لهم

ويحضرونهم في الدنيا كالجند وهي لا تسوق إليهم خيرا ولا تدفع عنهم شرا وقيل: المعنى أنّ هذه الآلهة معهم في النار محضرون لأن كلّ حزب مع ما عبدته من الأوثان في النار كما قال سبحانه ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1].

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في تكذيبك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم فنجازيهم على ذلك أي: نعلم عقائدهم الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ويعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والتقدير ثمّ نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقا سويّا ثمّ جعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن امّه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلّما خصيما جدليّا وذلك قوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ذو بيان ونطق. وإنّما ذكر «الخصيم» مكان الناطق لأنّه أعلى أحوال الناطق لأنّ الناطق مع نفسه لا يبيّن كلامه والمتكلّم مع غيره أظهر في النطق وأبين فمن قدر على جميع ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة وهي أسهل من الإنشاء والإبداع ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان واقعا بالطبيعة لأنّ الطبيعة ليست بقادرة ولا حسّاسة وفي حكم الموات فكيف يصلح منها الفعل ولا يجوز أن يكون الوقوع بسبب الاتّفاق لأنّ المحدث لا بدّ له من محدث قادر قبل زمان الحدوث.

وفي الآية دلالة على صحّة استعمال النظر في الدين لأنّه سبحانه أقام الحجّة على قيام النشأة الثانية بوجود النشأة الاولى وألزم من أقرّ بالأولى أن يقرّ بالثانية.

١ـ سورة الأنبياء: ٩٨.

ثمّ أكّد سبحانه هذا البيان بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي: ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي وفتّه بيده ويتعجّب ممّن يقول: إنّ الله يحييه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: وترك النظر والتدبّر في خلق نفسه إذ خلق من نطفة. ثمّ بيّن سبحانه قول المنكر للحشر والمتمثّل ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: البالية المتفتّتة واختلف في القائل لذلك فقيل: هو ابيّ بن خلف وهو المراد بالإنسان في الآية، عن الصادق عليه السلام[1] وقيل: هو العاص بن وائل السهميّ وقيل: اميّة بن خلف.

ثمّ ردّ سبحانه عليه بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهذا المنكر من الإعادة يا محمّد: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لانّ من قدر على الاختراع فهو قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ من الابتداء والإعادة فكما خلقه ولم يكن كذلك شيئا يعيده وإن لم يبق منه شيئاً مذكورا.

ثمّ زاد في بيان القدرة وأخبر من صنعه سبحانه بما هو عجيب الشأن فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ والمراد أنّكم إذا تستبعدون الإعادة بسبب فناء وحياة سارية في الإنسان فلا تستبعدوا الإعادة لهذا السبب فإنّ النار في الشجر الأخضر الّذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تشاهدون حيث منه توقدون وجعل لكم من الشجر الرطب المطفئ للنار نارا محرقة يعني بذلك الشجر المرخ والعفار وهما شجرتان يتّخذ الأعراب نارها منها فمن قدر على أن يخرج من الشجر الّذي هو في غاية الرطوبة نارا حارة مع مضادة النار للرطوبة ويخرج الضدّ من الضدّ فيقدر على إعادتكم قال الكلبيّ: كلّ شجر ينقدح منه النار إلّا العنّاب لكنّ العرب استمجد المرخ والعفار لكثرة هذه المادة فيهما.

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص٢٩٦، ومجمع البيان، ج٨، ص ٢٩٠.

ثمّ ذكر سبحانه من خلقه ما هو أعظم من الإنسان وهو خلق السماوات والأرض فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ مع عظمهما وكثرة أجزائهما يقدر على إعادة البشر. ثمّ أجاب فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يخلق خلقا بعد خلق العالم بجميع ما خلق.

وذكر قدرته على إيجاد الأشياء فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فعبّر عن هذا المعنى بكلمة ﴿كُن﴾ لأنه أبلغ في القدرة وليس هنا قول وإنّما المراد إخبار بحدوث ما يريده تعالى وقيل: إنّما هو في التحويلات نحو قوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1] و﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[2] وما أشبه ذلك. ولفظ الأمر على عشر أوجه: أحدها: الأمر لمن هو دونك، والثاني: الندب كقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[3]، وثالثها: الإباحة نحو قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟﴾[4] ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾[5] والرابع: الدعاء نحو ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[6] الخامس: الترفية كقوله: ارفق بنفسك، السادس: الشفاعة نحو قولك: شفّعني فيه، السابع: التحويل نحو ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ الثامن: التهديد نحو ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[7] التاسع: الاختراع والإحداث والوقوع نحو قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ العاشر: التعجّب نحو ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾[8]

١ـ سورة البقرة: ٦٥.

٢ـ سورة الإسراء: ٥٠.

٣ـ سورة النور: ٣٣.

٤ـ سورة الجمعة: ١٠.

٥ـ سورة المائدة: ٢.

٦ـ سورة الكهف: ١٠.

٧ـ سورة السجدة: ٤٠.

٨ـ سورة مريم: ٣٨.

وبالجملة حاصل المعنى أنّه سبحانه إذا أراد فعل شيء بمنزلة ما يقول للشيء: ﴿كُن﴾ فيكون في الحال، كقول الشاعر:

فقالت له العينان سمعا وطاعة وحـدّرتا كالـدرّ لمّـا يثقّـب

وإنّما أخبر الشاعر عن سرعة دمعه دون أن يكون ذلك قولا على الحقيقة.

قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تنزيها عن نفي القدرة على الإعادة وغير ذلك ممّا لا يليق بصفاته الّذي بيده أي: بقدرته ملك كلّ شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة إلى حيث لا يملك الأمر والنّهي أحد سواه.

تمّت السورة بحمد الله.

سورة الصافات

مكية. فضلها: قال أبيّ بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ سورة الصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنيّ وشيطان وتباعدت عنه مردة الشيطان وبرأ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة إنه كان مؤمنا بالمرسلين»[1].

وروى الحسين بن أبي العلاء عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة لم يزل محفوظا من كل آفة مدفوعا عنه كل بلية في حياته الدنيا مرزوقا في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق ولم يصبه الله في ماله ولا في ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم ولا من جبار عنيد وإن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيدا وأماته شهيدا وأدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة»[2].

التفسير: افتتح الله هذه السورة بمثل ما اختتم به سورة يس من ذكر التوحيد والبعث فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٩٣، ونور الثقلين، ج ٤، ص٣٩٩.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٢، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٩٣.

ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾

قرئ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ بإدغام التاء في الصاد وكذلك بإدغام التاء في الزاي في ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ وكذلك بإدغام التاء في ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ قالوا: إدغام هذه الحروف الثلاثة فيما يليها حسن لمقاربة الحرفين في الثلاثة.

واعلم أنّ هذه الأشياء الثلاثة المقسم بها يحتمل أن يكون صفات للملائكة أي: واقفين صفوفا إمّا في السماوات للعبادة كما أخبر اللّه عنهم أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[1] وقيل: إنّهم يصفّون أجنحتهم في الهواء منتظرين لأمر اللّه أو أنّ لكلّ واحد منهم درجة ومرتبة معيّنة في الذات والشرف وذلك يشبه الصفوف أو صفّ الغزاة المجاهدين في سبيل اللّه.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ يقال: زجرت البعير إذا أحثثه ليمضي وزجرت فلانا عن سوء أي: نهيته ففي وصف الملائكة بالزجر قيل: المراد الملائكة الّذين وكّلوا بالسحاب يزجرونها من موضع إلى موضع وقيل: المراد منه أنّ الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهام فيزجرونهم عن المعاصي زجرا أو يزجرون الشياطين عن التعرّض لبني آدم بالشرّ والإيذاء وإلقاء الهداية في قلوب البشريّة في مقابلة إغواء الشياطين وإضلالهم للبشر فقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ إشارة إلى تأثير الجواهر الملكيّة في تنوير الأرواح القدسيّة البشريّة كما قال سبحانه: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وذلك إشارة إلى كيفيّة تأثيراتها في إزاله ما لا ينبغي عن الأرواح البشريّة وحاصل المعنى أنّ اللّه سبحانه يوصل مفهوم زجر الملائكة إلى قلوب العباد كما يوصل مفهوم إغواء

١ـ سورة الصافات: ١٦٥.

الشيطان إلى قلوبهم ليصحّ التكليف. وقيل: المراد رفع المؤمنين أصواتهم عند قراءة القرآن لأنّ الزجرة الصيحة.

﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ اختلف فيها أيضاً أحدها: أنّها الملائكة تقرء كتب اللّه تعالى والذكر الّذي ينزل على الموحى إليه أو الكتب الّتي كتب اللّه لملائكته وفيه ذكر الحوادث فتزداد يقينا بوجود المخبر على وقوع الخبر والثالث ذكر جماعة قرّاء القرآن من المؤمنين يتلونه في الصلاة وإنّما لم يقل: «تلوا» كما قال: ﴿زَجْرًا﴾ لأنّ التالي قد يكون بمعنى التابع ومنه قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[1] فلمّا كان اللفظ مشتركا بيّنه بلفظ يزيل الإبهام.

وكلّ هذه الأمور أقسام أقسم اللّه تعالى بها أنّه واحد ليس له شريك فقال في جواب الأقسام ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ واختلف في مثل هذه الأقسام فقيل: أقسام باللّه كلّها على تقدير وربّ الصافّات وربّ الزاجرات وربّ التين وربّ الزيتون.

فإن قيل: ذكر القسم أمّا للمؤمن فهو مقرّ بالتوحيد وأمّا للكافر فهو منكر والحلف لا يكون دليلا فما الفائدة.

فالجواب أنّ القرآن نزل بلغة العرب وعندهم إثبات الأمر بالحلف واليمين طريقة مألوفة ولو أنّه ليس بدليل لكنّه سبحانه ما اقتصر على ذكر الدليل بالحلف بل أتى بالدليل اليقينيّ في كون الإله واحدا لأنّه عقّب اليمين بالدليل بقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ والنظر في انتظام العالم وخلقة دليل يقينيّ فالقسم للتأكيد ولذلك قال سبحانه: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: خالقهما ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ وهي مشارق الشمس ومطالعها بعدد أيّام السنة ثلاثمائة وستّون مشرقا والمغارب كذلك يطلع كلّ يوم من

١ـ سورة الليل: ٢.

مشرق ويغرب في مغرب والشروق قبل الغروب ولذلك قدّم في الذكر.

ويحتمل أن يكون المراد من المشارق والمغارب مشارق الكواكب ومغاربها فإنّ لكلّ كوكب مشرقا ومغربا وذكر المشارق يغني عن ذكر المغارب كقوله ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[1] على أنّ الشروق أكثر نفعا من الغروب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ الّتي هي أقرب السماوات إلينا وإنّما خصّها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قرئ ﴿بِزِينَةٍ﴾ منوّنة ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجرّ وهو ردّ معرفة على نكرة مثل ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ﴾ والكواكب بدل من الزينة مثل قولك: مررت بأبي عبد الله زيد وقرأ عاصم بالتنوين في الزينة ونصب الكواكب يريد زيّنّا الكواكب قال الزجّاج: يجوز أن تكون ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في النصب بدلا من قوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾ لأنّ ﴿بِزِينَةٍ﴾ في موضع النصب وقرأ الباقون «بزينة الكواكب» بالجرّ على الإضافة من غير تنوين «الزينة».

والحاصل: أنّه سبحانه بيّن أنّه زيّن سماء الدنيا لمنفعتين إحداهما: للزينة والثانية: للحفظ من الشيطان المارد وبيان زينة السماء بالكواكب أي: بنور الكواكب وضوئها والنور والضوء أحسن الصفات في الزينة ثمّ إنّ أشكالها متزيّنة ومختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريّا وأمثالها وكيفيّة طلوعها وغروبها وإنّ الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق يرى أمرا عجيبا مزيّنا.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ قال المبرّد: إذا ذكرت فعلا ثمّ عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنّه قد دلّ على فعله مثل قولك افعل وكرامة لأنّه لمّا قال: افعل علم أنّ الأسماء لا تعطف على الأفعال فالمعنى

١ـ سورة النحل: ٨١.

افعل ذلك وأكرمك كرامة وكذلك قوله: ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: حفظناها من كلّ شيطان خبيث متمرّد أن لا يدنوا منها فإنّهم كانوا يسترقّون السمع ويستمعون إلى كلام الملائكة ويلقون ما يستمعون ويوسوسونها في قلوب الكهنة ويوهمونهم أنّهم يعرفون الغيب فمنعهم اللّه تعالى عن ذلك بهذه الشهب ويرميهم بها.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: لكيلا يتسمّعونا إلى الكتبة من الملائكة في السماء والمراد من ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الملائكة لأنّهم أهل الملأ الأعلى.

﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ * دُحُورٗا﴾ أي: يرمون بالشهب من كلّ جانب من جوانب السماء إذا أرادوا الصعود طردوا دفعا لهم بالعنف ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك أيضا عذاب دائم يوم القيامة لكفرهم وتمرّدهم.

﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ استثناء من الاستماع والتقدير لا يسمّعون إلى الملائكة إلّا من وثب الوثبة إلى قريب من السماء فاختلس خلسة واستلب استلابا بسرعة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ فلحقه وأصابه نار مضيئة محرقة و«الثّاقِب» النيّر المضيء فإن قيل: إنّ الجنّ من النار فكيف يحترقون؟ نعم نار القويّة تؤثّر في النار الضعيفة كالسراج ينطفئ بالنار القويّة[1].

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ

١ـ كذا في تفسير الإمام ولكن النار القوية انما تطفئ بلهيبها لا بذاتها بل الجواب ان البشر من الطين فكيف يوجعه ويزجره المواد الطينية إذا ضرب بها مع أنه قال عز وجل ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ ولم يقل يحرقه ويفنيه.

زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾

المعنى: في الآية استدلال على وقوع الحشر وإمكانه فقال: استفت يا محمّد واسأل من هؤلاء المنكرين ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من خلق السماوات والأرض والملائكة وما بينهما ولا شكّ أنّهم يعترفون بأنّ خلق هذا القسم أشدّ من خلقهم فحينئذ بالحريّ أن يكون قادرا على إعادة الحياة في هذه الأجساد ولا شكّ أنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: لاصق لازم أي: إنّ هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حيّة في المرّة الاولى ولو لا كونه تعالى قادرا على إحيائهم لما حصلت الحياة في المرّة الاولى ولا شكّ أنّ القابليّة باقية وأنّ قادريّته تعالى باقية لأنّ هذه القابليّة والقادريّة من الصفات الذاتيّة فامتنع زوالها.

وقيل: المعنى: اسألهم يا محمّد ﷺ أهم أحكم صنعا وأشدّ قوّة أم من خلقنا قبلهم من الأمم الماضية والقرون السالفة والمراد أنّكم لستم بأحكم خلقا من غيركم من الأمم وقد أهلكناهم بالعذاب فإن قالوا: نحن أشدّ قوّة فاعلمهم أنّ الله خلق أصلهم من طين لاصق لازم وأنّ هؤلاء من نسله وذرّيّته فكأنّهم خلقوا منه.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ يا محمّد من هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث [وَ] هم [يَسْخَرُونَ] من تعجّبك وتقريرك للبعث وقرئ بضمّ التاء على تقدير قل يا محمّد: بل عجبت أو أنّ العجب نسبه إلى ذاته تعالى على معنى الاستعظام اللازم للعجب أي: ينبغي أن يقع العجب فرضا والعجب من الله خلاف عجب الآدميّين كما قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[1] وقال: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ

١ـ سورة الأنفال: ٣٠.

﴿مِنْهُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[2] والمكر والخداع والسخرية من الله بخلاف هذه الأحوال من العباد وقد دلّ القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله أمّا القرآن فقوله: ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾[3] والمعنى وإن تعجب يا محمّد من قولهم فهو أيضا عجب عندي وأمّا الخبر فقوله ﷺ: **«عجب ربّكم من شابٍ ليس له صبوة وعجب ربّكم من ألكم وقنوطكم»** وأنكر شريح فقال: إنّ الله لا يعجب إنّما يعجب من لا يعلم، قال الأعمش: فذكرت إنكار الشريح عند إبراهيم الخوّاص فقال: إنّ شريحا معجب برأيه إنّ عبد الله قرأ بضمّ التاء وهو أعلم من شريح[4].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولمّا بيّن سبحانه تباعد الكفّار عن حالة النبي ﷺ غاية التباعد بأنّ النبي ﷺ يتعجّب من إنكارهم المعاد مع هذه الأدلّة وهم يسخرون منه في إصراره على إثبات المعاد حتّى أنّهم إذا رأوا آية من آيات الله ومعجزة مثل انشقاق القمر وغيرها أو خوّفوا بالله ووعظوا بالقرآن لا يتذكّرون ولا يقبلون ويستسخرون ويستهزءون ويحملونه على السحر.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقالوا: لتلك الآية: ما هذا إلّا سحر وتمويه ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بعد ذلك وكيف نبعث بعد ما صرنا ترابا.

﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يبعثون الّذين اتّصفوا بصفة الترابيّة والعظاميّة والمراد منهم الإنكار من البعث ﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾ مبتدء وخبره محذوف تقديره مبعوثون أي: ليس الأمر كذلك هذا إذا كان الواو ساكنة ومن فتح الواو جعلها واو

١ـ سورة التوبة: ٧٩.

٢ـ سورة النساء: ١٤٢.

٣ـ سورة الرعد: ٥.

٤ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٩٩، وزاد المسير، ج٦، ص٢٨٩.

العطف دخل عليها همزة الاستفهام كقوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون وأنتم صاغرون ذليلون أشدّ الذلّة.

ثمّ ذكر أنّ بعثهم بزجرة وصيحة واحدة فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: قصّة البعث صيحة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ من إسرافيل والزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة فكأنّهم زجروا عن الحال الّتي هم فيها إلى المحشر ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى الأمر الّذي كذّبوا به أو المعنى أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فيعترفون بالعصيان ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ من العذاب وهو كلمة يقولها القائل عند الوقوع في الهلكة كقوله ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ ويقولون: هذا يوم الجزاء.

هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ قيل: من بقيّة قول الكفّار يقولون بعضهم لبعض بعد قولهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وقيل: تمّ كلام الكفّار بعد قولهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ من كلام الملائكة لهم وهو أليق بالعبارة لأنّ قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كلام غير الكفّار وسوق على قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ فحكى سبحانه ما يأمر الملائكة به بأن يأمرهم ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بارتكاب المعاصي أي: اجمعوهم من كلّ جهة وقيل: ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله وبتكذيبهم الرسل وقيل: ظلموا الناس وأزواجهم أي: وأشباههم والزوج بمعنى الشبه والشكل نحو

قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: أشباها وأشكالا ثلاثة فيكون المعنى إنّ صاحب الزنا يحشر مع أصحاب الزنا وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر وكذلك اليهوديّ مع اليهوديّ وقيل: المراد وأشياعهم من الكفّار وقيل: المراد وأزواجهم المشركات فكأنّه سبحانه قال: احشروا المشركين والمشركات.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام زيادة في تخسيرهم وتخجيلهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: خذوهم إلى ذلك الطريق ودلّوهم عليه. فإن قيل: ما معنى ﴿احْشُرُوا﴾ مع أنّهم قد حشروا وحضروا من قبل في الموقف لأنّهم قالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فالمراد احشروهم واجمعوهم إلى دار الجزاء وهي جهنّم ولذلك قال: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

فلو قيل: كيف يصحّ ذلك وقد قال: بعده ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ ومعلوم أنّ حشرهم إلى الجحيم إنّما يكون بعد المسألة؟

فالجواب أنّه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب.

ولعلّ المراد من الظالم المطلق في الآية مصروف إلى الكفّار ويؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ويمكن بل الأولى أن يكون المراد بـ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الرؤساء لأنّك لو جعلت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عامّا في كلّ من أشرك لم يكن للأزواج معنى وقيل: في معنى «الأزواج» القرناء من الشياطين والمراد ما كانوا يعبدون من دون اللّه من الأوثان والأصنام ونظيره ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1].

فإن قيل: إنّ تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنّم؟ أجاب القاضي بانّه ورد الخبر بأنّها تعاد وتحيا لتحصيل المبالغة في توبيخ الكفّار وتخجيلهم وهذا القول بعيد لأنّه لم يصدر عنها ذنب فكيف تعذيبها

١ـ سورة البقرة: ٢٤.

ولكن يبقون على الجماديّة ولكن للتخجيل يحشرون مع عابديهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ أي: إذا انتهوا إلى الصراط قيل للملائكة: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن أعمالهم ويسألهم الخزنة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وقيل لهم على سبيل التوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا وذلك أنّ أبا جهل كان يقول يوم بدر: نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة: مالكم غير متناصرين وما لشركائكم أيّها الكفّار لا يمنعونكم من العذاب.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ يقال: استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع له أي: صاروا منقادين لا حيلة لهم يتخاصمون لهم في دفع تلك المضارّ لا العابد ولا المعبود.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: الرؤساء والأتباع يسأل بعضهم بعضاً وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم يقولون: غررتمونا ويقول أولئك: لم قبلتم منّا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ فشرح سبحانه ذلك التساؤل فيقول الكفّار لغواتهم: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ من جهة النصيحة واليمن والبركة وقيل: معناه كنتم تأتوننا من قبل القوّة فتخدعونا بأقوى الوجوه أو المراد من ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ الدّين والحقّ أي: تنبّئون لنا ما نضلّ به وعلى المعنى الأوّل لا استعارة اليمين للأعمال الخيريّة لأنّ مباشرة الأعمال الخيريّة غالبا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى ويتمنون بالجانب الأيمن ويسمّونه بالبارح أو المراد بأنّ أئمّة الكفّار كانوا يحلفون للأتباع: أنّ ما يدعونهم إليه هو الحقّ فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم أي: آتيتمونا من ناحية المواثيق والأيمان الّتي قدّمتموها لنا.

١ـ سورة الزمر: ٧١.

فأجاب الرؤساء لهم ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين بالله وموصوفين بالإيمان حتّى يقال: إنّا أزلناكم عنه. ثمّ قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أي: ما كان لنا قدرة عليكم حتّى نقهركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ ضالّين غالين في معصية الله وباغين ومتجاوزين إلى أفحش الظلم وأعظم المعاصي.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا تمام الحكاية عن قول الكفّار الّذين قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ ثمّ قالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ إشارة إلى قول الله لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] أي: إذا لا نؤمن ونموت على الكفر فقد أوجب العذاب الّذي نستحقّه على الكفر والإغواء ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب ندركه كما ندرك الطعام بالذوق.

ثمّ يعترف المغوين بأنا أغويناكم عن الحقّ وأضللناكم ودعوناكم إلى الغيّ ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ وداخلين في الضلالة وخيّبناكم وخيّبنا ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يومئذ في ذلك اليوم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ واشتراكهم واجتماعهم ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الّذين جعلوا لله شركاء وقيل: معنى الآية إنّا مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين. ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما فعل ذلك بهم من أجل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول ذلك ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

١ـ سورة ص: ٨٥.

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾ أي: يأنفون من هذه المقالة ويقولون: لا ندع آلهتنا وعبادة أصنامنا لقول شاعر مجنون يعنون النبي ﷺ.

فردّ الله عليهم وكذّبهم بأن قال: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ليس بشاعر ولا مجنون ولكنّه أتى بما يقبله العقول من الدّين الحقّ أو الكتاب الحقّ ﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وحقّق ما أتى به المرسلون من بشاراتهم بمقدمه الشريف أو صدّقهم بأن أتى بمثل ما أتوا به من الدعوة إلى التوحيد. ثمّ خاطب الكفّار فقال سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ أيها المشركون ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ على كفركم ونسبتكم إيّاه إلى الشعر والجنون لأنّ مقالاته ليست إلّا وحي وهو أعقل الخلق ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على قدر أعمالكم ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وهذا الاستثناء منقطع أي: لكن عباد الله المخلصين الّذين أخلصوا العبادة للّه وأطاعوه في كلّ ما أمرهم به فإنّهم لا يذوقون العذاب وإنّما ينالون الثواب.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ
سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ
﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

بيّن سبحانه ما أعدّه لعباده المخلصين من أنواع النعم فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ جعل لهم التصرّف فيه وحكم لهم به في الأوقات ثمّ فسّر ذلك الرزق بأن قال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة يقع على الرطب واليابس من الثمار كلّها يتفكّهون بها ويتنعّمون بالتصرّف فيها ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ مع ذلك معظّمون قيل: المراد من الرزق المعلوم معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشيّة وإن لم يكن هناك بكرة وعشيّا وقيل: معناه إنّ ذلك الرزق

معلوم الصفة لكونه مخصوصا بخصائص خلقها اللّه فيه من طيب طعم ورائحة ولذّة وحسن منظرة أو يتيقّنون دوامه لا كرزق الدنيا الّذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع والتعبير بالفاكهة لأنّ الفاكهة عبارة عمّا يؤكل لأجل التلذّذ لا لأجل الحاجة وأرزاق أهل الجنّة كلّها فواكه لأنّهم مستغنون عن حفظ الصحّة بالأقوات فإنّهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكلّ ما يأكلونه فهو على سبيل التلذّذ ولمّا كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان غيرها أولى بالحضور. ولمّا ذكر مأكولهم وصف مساكنهم فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومعناه أنّه لا كلفة عليهم في التلاقي للتخاطب والانس وفي بعض الأخبار أنّهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلّا مع حصول الخواطر والميل إلى القرب.

ولمّا شرح اللّه صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ يقال للزجاجة الّتي فيها الخمر: «كأسا» وتسمّى الخمر نفسها كأسا. قال الشاعر:

وكأس شربت على لذّة ... واخرى تداويت منها بها

وعن الأخفش كلّ «كَأۡسٖ» في القرآن فهي الخمر.

﴿مِّن مَّعِينِۭ﴾ أي: من شراب أو من نهر ﴿مَّعِينِۭ﴾ مأخوذ من عين الماء أي: يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمّي «معينا» لظهوره ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في السير إذا اشتدّ فيه. ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفة للخمر أشدّ بياضا من اللبن وقوله: «لَذَّةٖ» وصفت باللذّة كأنّها نفس اللذّة وعينها كما يقال: فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة أو المعنى ذات لذّة بحذف المضاف. ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ والغول أن يغتال عقولهم. قال مطيع بن أياس:

وما زالت الكأس تغتالهم ... وتذهب بالأول فالأول

وقال الليث: «الغول» الصداع أي: ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا. قال الواحدي: وحقيقته الإهلاك يقال: غاله إذا أهلكه وسمّي الصداع «غولا» لأنّه يؤدي إلى الهلاك. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وقرئ بكسر الزاي يقال: أنزف الرجل إذا نفدت خمرته وأنزف إذا ذهب عقله من السكر والمعنى على الفتح: لا يذهب عقولهم ولا يسكرون وليس فيها نوع فساد من صداع أو خمار أو سكر.

ولمّا ذكر سبحانه مشروبهم عقّب بذكر منكوحهم فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ ومعنى القصر الحبس أي: إنّهنّ يحبسن نظرهنّ ولا ينظرن إلى غير أزواجهنّ ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء أي: نجلاء كبار الأعين حسانها ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبّههنّ ببيض النعام المكنونة عن الغبار والكدورة المصونة من كلّ شيء ومعنى هذا التشبيه أنّ ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فإنّ ذلك من أحسن ألوان البدن. ثمّ قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب. قال الشاعر:

وما بقيت من اللذّات إلاّ ... محادثة الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمّا جرى لهم وعليهم فيخبر كلّ صاحبه بإنعام الله عليه.

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ
فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي

لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا تمام الحكاية عن أحوال أهل الجنّة وإقبال بعضهم على بعض في المسألة عن الأحوال. ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في دار الدنيا وصاحب يختصّ بي إمّا من الإنس على قول ابن عبّاس: وإمّا من الشيطان ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: كان يوبّخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول إنكارا وتعجبا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ومحاسبون ومجازون أي: ذلك القرين كان يقول على وجه الاستنكار: أن إذا متنا نحشر ونبعث بعد أن صرنا ترابا أي: هذا لا يكون أبدا وهذا أبلغ في النفي.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: ثمّ هذا المؤمن قال لإخوانه في الجنّة بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: إلى أهل النار وهل في الجنّة موضع يرى منه هذا القرين في النار وهل تحبّون أن تطلّعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل: إنّ في الجنّة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار. ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فاطّلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط النار قيل: القائل في قوله ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ هو الله أو بعض الملائكة وقرئ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ على لفظ المضارع المنصوب وعلى لفظ الماضي وإذا كان بلفظ المضارع يكون المعنى: هل أنتم مطّلعون فأطّلع أنا أيضا وإذا كان بصيغة الماضي يكون المعنى عرض عليهم الاطّلاع فقبلوا ما عرضه. فاطّلع هو بعد ذلك ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: قال القائل: بعد ما اطّلع إلى حال قرينه مخاطبا له: تالله قد كان قريبا أن تهلكني بالإغواء وتجعل حالي كحالك و«إن» هي المخفّفة من المثقّلة بدلالة مصاحبته لام الابتداء لها أي: إنّك كدت تهلكني بما دعوتني إليه في الدنيا

بقولك: لا نبعث ولا نعذّب فقد ظهر الأمر خلاف ذلك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: ولو لا لطفه تعالى وعصمته وهدايته حتّى آمنت لكنت أنا معك في النار ولا يستعمل «أحضر» إلّا في الشرّ.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ المعنى: أنّ هذا المؤمن يقول لهذا القرين السوء الّذي في النار يخاطبه ويقول له على وجه التوبيخ والتقريع: أليس كنت تقول: «ما نحن بمائتين» وقرئ بمائتين ولا نموت إلّا الموتة الّتي تكون في الدنيا ولا عذاب ولا رجوع أ فرأيتم أنّ الأمر ظهر بخلاف ما زعمتم وقيل: إنّ هذا الكلام من مكالمات أهل الجنّة بعضهم لبعض على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنّة ولهذا عقّبه بقوله:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فحينئذ يكون معنى الآية: ما نحن بميّتين في هذه الجنّة إلّا موتتنا الّتي كانت في الدنيا وما نحن بمعذّبين كما وعدنا الله ويريدون به التحقيق لا الشكّ وإنّما قالوا هذا القول لأنّ لهم في ذلك سرورا مجدّدا وفرحا مضاعفا وإن كانوا قد عرفوا أنّهم سيخلدون في الجنّة وهذا كما أنّ الرجل يعطي المال الكثير فيقول: أ كلّ هذا الملك لي وهذا كقوله:

أ بطحاء مكّة هذا الّذي أراه عيانا وهذا أنا

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

ثمّ قال سبحانه تمام الحكاية عن قول أهل الجنّة: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ الثواب

والفوز والفلاح ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ في دار التكليف وقيل: إنّ هذا من قول الله أي: لمثل هذا النعيم الّذي ذكرناه ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ والمذكور من قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ إلى قوله: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ والمراد الترغيب في طلب الثواب بالطاعة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: أذلك الّذي ذكرناه من قرى أهل الجنّة وما أعدّ لهم خير من حيث النزل و«النزل» ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء والتشريفات وما يتقوّت به أم نزل أهل النار وهو الزّقوم مع أنّه لا خير فيه وإنّما قال: ﴿خَيْرٌ﴾ على وجه المقابلة مثل قوله: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[1] أو جاء بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾ مع أنّ في الزقّوم ليس إلّا الألم والغمّ فهو على سبيل السخريّة بهم وسوء اختيارهم قال العلّامة أبو السعود في تفسيره: ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرة صغيرة الورق لها زفرة كريهة الرائحة مرّة تكون في تهامة سمّيت به الشجرة الموصوفة[2].

﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهذه الشجرة يقتاتها أهل النار وإنّما صارت هذه الشجرة فتنة للظالمين لأنّ الكفّار لمّا سمعوا هذه الآية أنكروا وقالوا: كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنّم مع أنّ النار تحرق الشجرة ولهذه الجهة صارت فتنة لهم والحالة أنّ خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر كما أنّ الله يقدر أن يخلق الزقّوم من جوهر ومن مادّة لا تأكله النار ولا تحرقه كما أنّها لا تحرق السلاسل والأغلال فيها وكما أنّه لا تحرق حيّاتها وعقاربها وكذلك الضريع وما أشبه ذلك فمعنى كونها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ وقعت هذه الشبهة الركيكة في قلوبهم وصارت سببا لإنكارهم.

والقول الثاني في تفسير الآية في كون الشجرة فتنة لهم في النار لأنّهم

١ـ سورة الفرقان: ٢٤.

٢ ـ تفسير أبي السعود، ج٧، ص١٩٣، وانظر: تفسير الألوسي، ج٢٣، ص٩٥.

كلّفوا بتناولها وشقّ ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقّهم أي: شدّة عذاب لهم من قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[1] أي: يعذّبون.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إنّ الزقّوم شجرة تنبت في قعر جهنّم وأغصانها ترفع إلى دركاتها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ «الطلع» للنخلة غلاف الثمرة وسمّي بالطلع لطلوعه كلّ سنة في النخل فاستعير لشجرة الزقّوم لفظيّة وهذا التشبيه حيث إنّ الناس لمّا اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة فحسن التشبيه في القبح برؤس الشياطين وهذا من باب التشبيه بالمتخيّل لا بالمحسوس قال امرؤ القيس:

أ تقتلني والمشرفيّ مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغـوال

مع أنّ الغول لم يره أحد. وقيل: إنّ رؤوس الشياطين ثمرة يقال لها: الأستن تشبه بني آدم وقيل: إنّ الشيطان نوع من الحيّات.

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي: أهل النار يأكلون من ثمرة تلك الشجرة فيملئون بطونهم منها من شدّة ألم الجوع وقد روي أنّ اللّه تعالى يجوعهم حتّى أنسوا عذاب النار من شدّة الجوع فيصرخون إلى مالك فيحملهم إلى تلك الشجرة ومنهم أبو جهل فيأكلون منها فيغلي بطونهم كغلي الحميم فإذا شبعوا من أكل الزقّوم يشتدّ عطشهم فيحتاجون إلى الشراب. فعند هذه وصف اللّه شرابهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ و«الشوب» كلّ ما خلط بغيره فالمعنى إذا غلبهم العطش الشديد سقوا من ذلك المشوب من غسّاق أو صديد جهنّم حارّ مغبور الّذي بلغ نهاية في الحرارة حتّى إذا قربوها

١ـ سورة الذاريات:١٣.

من وجوههم ليشربوا شوت وجوههم كما قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[1] فإذا وصلت إلى بطونهم صهر ما في بطونهم والجلود فذلك شرابهم وطعامهم وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ على شجرة الزقّوم زيادة لشوبا وخليطا بهذا الشراب المذكور ويكرهون على هذا الأكل الشراب وثمّ يرجعون بعد الأكل والشرب ويردّون إلى الجحيم وذلك أنّهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج عن الجحيم كما يورد الإبل الماء و﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة الّتي منازلهم فيها فينقلبون بعد الأكل والشرب إلى منقلبهم.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ المعنى: إنّه سبحانه علّل الاستحقاق والوقوع في تلك الشدائد كلّها بترك الإيمان وتقليد الآباء من غير دليل واقتفائهم بآبائهم وتسرّعهم إلى اتّباعهم ومعنى الإهراع الإسراع.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

ذكر سبحانه ما يوجب التسلية لنبيّه فقال:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ اللام هي الّتي تدخل في جواب القسم المحذوف و«قد» للتأكيد أي: قبل هؤلاء الّذين في عصرك وكذّبوك ضلّ أكثر الأمم الماضية.

١ـ سورة الكهف: ٢٩.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ من الأنبياء والمرسلين يخوّفونهم من عذاب الله وحاصل المعنى أنّ إرساله تعالى الرسل وتكذيب الأمم الرسل قد سلف ويجب لك ـ صلّى الله عليك ـ أسوة بهم وتصبر كما صبروا وفي الآية دلالة على أنّ أهل الحقّ في كلّ زمان كانوا أقلّ من أهل الباطل.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: من المكذّبين المعاندين الحقّ كيف أهلكهم وما ذا حلّ بهم من العذاب؟ ثمّ استثنى من المنذرين فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الّذين أنذرهم الأنبياء وقبلوا منهم وأخلصوا عبادتهم لله تعالى فإنّ الله خلصهم من ذلك العذاب ووعدهم بجزيل الثواب.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ أي: دعانا نوح بعد أن يئس من إيمان قومه لننصره على على قومه وذلك قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[1] ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ نحن لدعائه وأجبناه إلي ما سأل بإهلاك قومه وقيل: المعنى هو على العموم لمن دعانا. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من المكروه الّذي كان ينزل به من قومه و«الكرب» كلّ غمّ يصل حرّه إلى الصدر وأصل النجاة من النجوة فهي المرتفع فهي الرفع من الهلاك وأهله هم الّذين في السفينة معه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ بعد الغرق فالناس كلّهم بعد نوح عن ولد نوح قال الكلبيّ: لمّا خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلّا ولده ونساءهم. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ذكرا جميلا وأثنينا عليه في امّة محمّد ويسلّم عليه إلى يوم القيامة فكأنّه قال: وتركنا على نوح التسليم والصلوات إلى يوم القيامة بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣١٢.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومعنى تركنا أبقينا يقال: ما ترك فلان أي: ما أبقى والمراد من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الملائكة والثقلين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا نوحا ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فمن أحسن بأفعال الطاعات وتجنّب المعاصي نكافيه بإحسانهم ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنّ نوحا من عبادنا المؤمنين، والآية تتضمّن مدح المؤمنين حيث أنّ نوحا منهم.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: من لم يؤمن به والمقصود من الآيات تحذير القوم عن سلوك مثل طريقتهم لئلّا يعاقبوا بمثل عقوبتهم.

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟
عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ
﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾

المعنى: وإن من شيعة نوح إبراهيم يعني: إنّه على منهاجه في التوحيد والعدل واتّباع الحقّ وما كان بين نوح وإبراهيم إلّا نبيّان هود وصالح وألفان وستّمائة وأربعون سنة وقيل: المعنى: وإنّ من شيعة محمّد إبراهيم ومعنى الشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ حين صدّق الله وآمن به بقلب خالص من

الشرك بريء من المعاصي على ذلك عاش وعليه مات وقيل: بقلب سليم من كلّ ما سوى الله لم يتعلّق بشيء غيره عن أبي عبد الله عليه السلام[١].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه التهجين لفعالهم والتقريع لهم ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيّ شيء تعبدون ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ «الإفك» أشنع الكذب وأصله قلب الشيء عن جهته الّتي هي له أي تريدون عبادة آلهة دون عبادة الرحمن ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يصنع بكم مع عبادتكم غيره وقيل: المعنى كيف تظنّون بربّكم أنّه على أيّ صفة ومن أيّ جنس من أجناس الأشياء حين شبّهتم به هذه الأصنام؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عن ابن عبّاس إنّهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم وذلك أنّه عليه السلام أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنّها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلّف عنهم ليبقى خاليا في بيت الأصنام فيقدر على كسرها.

وهاهنا بحث وهو أنّ النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم، ثمّ إنّه عليه السلام ما كان سقيماً فلمّا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كان ذلك كذبا؟

وفي الجواب عنهما وجوه كثيرة: الأوّل: أنّه نظر نظرة في النجوم وكانت تأتيه سقامة كالحمّى في بعض أوقات اللّيل والنهار فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فجعله عذرا في تخلّفه عن الذهاب معهم عن العيد الّذي لهم وكان صادقا فيما قال. لأنّ السقم كان يأتيه في ذلك الوقت وإنّما تخلّف لأجل مقصوده وذلك تكسير الأصنام وأمّا قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم في هذا الوقت كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أي: إنّك

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣١٥، وبحار الانوار، ج١٢، ص٢٦.

ستموت ووجه آخر وهو أنّا لا نسلّم أنّ النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لأنّ من اعتقد أنّ اللّه خصّ كلّ واحد من هذه الكواكب بقوّة وخاصيّة لأجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بحرام وباطل ويجوز أن يكون اللّه أعلمه بالوحي أنّه سيسقمه في وقت مستقبل وجعل العلامة على ذلك إمّا طلوع نجم واتّصاله بآخر على وجه مخصوص. فلمّا رأى إبراهيم تلك الإمارة فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تصديقا بما أخبره اللّه تعالى ويمكن أن يكون مراده بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سقيم القلب حزنا على إصرارهم على عبادة الأوثان وهي لا تسمع ولا تبصر ونظره في النجوم فكرته في أنّها مخلوقة محدثة مدبّرة فكيف هؤلاء يعبدونها؟

وما رواه العيّاشيّ بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام أنّهما قالا: واللّه ما كذب إبراهيم وما كان سقيما[١] محمول على هذه الوجوه المذكورة وما روي أنّ إبراهيم كذب ثلاث كذبات قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله[٢]. ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[٣] وقوله في سارة: «إنّها اختي» فيمكن أن يتأول مثلا مثل قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم، وسارة اختي أي: في الدّين و﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ على ما ذكرناه في موضعه.

وبالجملة لمّا قال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكان قد غلب الأسقام عليهم من باب الطاعون وكانوا يخافون العدوى ففارقوه وهربوا منه إلى معبدهم في البرّيّة وتركوه وذلك قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: هاربين مخافة العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليهم في خفية وأصل «الروغ» الميل

١ـ تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٤، وتفسير نورالثقلين، ج٤، ص٤٠٦.

٢ـ صحيح البخاري، ج٤، ص١١٢، وج٦، ص١٢١، ومسند أحمد، ج٢، ص٤٠٣.

٣ـ سورة الأنبياء: ٦٣.

بحيلة ومنه روغان الثعلب ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: هلّا تأكلون من الطعام الّذي كانوا يضعونها عند الأصنام للتبرّك عليه كما كان عادتهم ذلك للاستشفاء والاستبراك واليمن ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أي: لم لا تجاوبوني. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ فمال إبراهيم مستعليا عليهم ضربا موكّدا شديدا و﴿ضَرْبًا﴾ مصدر مؤكّد «لراغ» أي: ضربهم ضربا شديدا وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتين وقوّة الآلة تقتضي قوّة الفعل وفيه قول آخر: وهو أنّ المراد من «اليمين» الحلف أي: أتى الضرب بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: أقبلوا بعد الفراغ من عيدهم إلى إبراهيم يسرعون و«الزفيف» حالة بين المشي والعدو من زفيف النعام لأنّهم اطّلعوا على صنع إبراهيم بأصنامهم فقصدوه مسرعين وحملوه إلى بيت أصنامهم وبعد ما أتوا به جرى بينهم وبينه من المحاورات ما نطق به قوله تعالى في غير هذه السورة: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[1] فأجابهم على وجه الحجاج: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: تعبدون منحوتكم وما عملتم من الأصنام فكيف تعبدون معمولكم؟ وهذا كما يقال: فلان يعمل الحصير والمراد أنّ اللّه خلق أصل الحجارة الّتي تعملون منها الأصنام.

واحتجّ أهل الجبر بأنّ فعل العبد مخلوق للّه وقالوا: إنّ لفظ «ما» مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ معناه: وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية: واللّه خلقكم وخلق عملكم.

والجواب: أنّ هذه الآية حجّة عليهم لا حجّة لهم لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ وأضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل

١ـ سورة الأنبياء: ٦٢.

ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد.

والجواب الثاني: أنّه سبحانه إنّما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الأصنام ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها بقبيح فعلهم وعبادتهم ولو كان معناه والله خلقكم وخلق عبادتكم لكانت الآية على أن يكون عذرا لهم أقرب وأولى من أن يكون لوما وتهجينا ولكان لهم أن يقولوا: ولم توبّخنا على عبادتها والله هو الفاعل لذلك فيكون الحجّة لهم لا عليهم ولأنّه قد أضاف الفعل والعمل إليهم بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فكيف يكون مضافا إلى الله وهذا تناقض؟

وأمّا قولهم: لفظة «ما» مع ما بعدها في تقدير المصدر ممنوع وبيانه أنّ سيبويه والأخفش اختلفا في أنّه هل يجوز أن يقال: أعجبني ما قمت أي: قيامك فجوّزه سيبويه ومنعه الأخفش وجماعة وقالوا: إنّ هذا لا يجوز إلّا في فعل المتعدّي ولو سلّمنا لكنّه أيضا قد يكون بمعنى المفعول لأنّ المراد من قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أ تعبدون المنحوت لا النحت لأنّهم ما عبدوا النحت وإنّما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله: ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ المعمول لا العمل فحينئذ لفظة «ما» مع ما بعدها كما يجيء بمعنى المصدر فقد يجيء بمعنى المفعول فكان حمل الآية هنا على المفعول أولى لأنّ الآية بيان تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام.

وبالجملة لمّا أورد إبراهيم عليهم هذه الحجّة القويّة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء فـ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ وكيفيّة ذلك البنيان لا يدلّ عليها لفظ القرآن قال ابن عبّاس: بنوا حائطا من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤوه نارا فطرحوه فيها فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي: جحيم ذلك البنيان والجحيم النار العظيمة

والألف واللام في ﴿الْجَحِيمِ﴾ يدلّ على النهاية. ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وحيلة وتدبيرا في إهلاكه وإحراقه بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ بأن أهلكناهم وسلّمنا إبراهيم ورددنا كيدهم عنه ولمّا أشرفوا عليه بعد إيقاعه في النار رأوه سالما وعلموا أنهم مغلوبون فلمّا انقضت هذه الواقعة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: مهاجر وأهجر ديار الكفّار وأذهب إلى حيث أمرني الله بالذهاب إليه وهي الأرض المقدّسة أي: يهديني ربّي.

فإن قيل: إنّ إبراهيم جزم في هذه الآية بأنّه تعالى سيهديه، وإنّ موسى لم يجزم به بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

قلنا: العبد إذا تجلّى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود وإذا تجلّى له مقامات كونه غنيّا عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر إلّا الرجاء والطمع قال بعض أهل التفسير: وهو أوّل من هاجر ومعه لوط وسارة إلى الشام وإنّما قال ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ترغيبا لمن هاجر معه في الهجرة.

فلمّا قدم الأرض المقدّسة سأل إبراهيم ربّه الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: أعطني بعض الصالحين يريد الولد لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[2] و﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾[3] وفي الآية دلالة على أنّ الصلاح أشرف مقامات العباد.

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي

١ـ سورة مريم: ٥٣.

٢ـ سورة الأنبياء: ٧٢، ٩٠.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾

المعنى: أخبر سبحانه أنّه استجاب لإبراهيم بقوله: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ ﴾ بابن وقور، والحليم الّذي لا يعجل الأمر قبل وقته مع القدرة عليه أو الّذي لا يعجل بالعقوبة.

﴿ فَلَمَّا ﴾ أدرك و﴿بَلَغَ﴾ الحدّ الّذي يقدر فيه على السعي أي: شبّ وبلغ الابن إلى أن يتصرّف ويمشي معه ويعينه وكان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وقيل: المراد من السعي العمل للّه والعبادة والنسك والفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ ﴾ فصيحة معربة عن مقدّر حذف لعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلّف بعد البشارة ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ومعنى «رأى» في الكلام على خمسة أوجه: أحدها: أبصر، والثاني: علم نحو رأيت زيدا فاضلا والثالث: بمعنى ظنّ كقوله ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾. والرابع: اعتقد، نحو قوله:

وإنّا لقوم ما نرى القتل سبّة ⁂ إذا ما رأته عامر وسلول

والخامس: بمعنى الرأي نحو رأيت هذا الرأي وأمّا رأيت في المنام فمن رؤية البصر.

فمعنى الآية إنّ إبراهيم قال لابنه: إنّي أبصرت في المنام رؤيا تأويلها

الأمر بذبحك فانظر ما الّذي تراه وأيّ شيء ترى من الرأي ولا يجوز أن يكون ترى هاهنا بمعنى تبصر لأنّه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين ولا يجوز أن يكون بمعنى علم أو ظنّ أو اعتقد لأنّ هذه الأشياء تتعدّى إلى مفعولين وليس هنا إلّا مفعول واحد مع استحالة المعنى فلم يبق إلّا أن يكون من الرأي.

وقيل: إنّ اللّه تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليقظة بأن يمضي ما يأمره به في حال نومه من حيث إنّ منامات الأنبياء لا تكون إلّا صحيحة ولو لم يأمر بذلك في حال اليقظة لما كان يجوز أن يعمل على ما يراه في المنام. وقال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس: منامات الأنبياء وحي وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حقّ إذا رأوا شيئا فعلوه.

وقال أبو مسلم: رؤيا الأنبياء مع أنّ جميعها صحيحة ضربان أحدهما: أن يأتي الشيء كما رأوه ومنه قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[1] الآية، والآخر: أن يكون عبارة عن خلاف الظاهر ممّا رأوه في المنام وذلك كرؤيا يوسف الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين وكان رؤيا إبراهيم من هذا القبيل لكنّه لم يأمن أن يكون ما رآه ممّا يلزم العمل به على الحقيقة. وروي أنّه عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه كأنّ قائلاً يقول له إنّ اللّه يأمرك بذبح ابنك[2]. وقيل: إنّ إبراهيم حين بشّر بغلام حليم قال: هو إذا للّه ذبيح فقيل: لإبراهيم قد نذرت نذرا فف بنذرك فلمّا أصبح قال إبراهيم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

وبالجملة بعد أن رأى ليلة التروية ذلك المنام وأصبح تروّى في ذلك المنام عن الصباح إلى الرواح أمن اللّه هذا الحلم أمن الشيطان؟ فمن ثمّ سمّي

١ـ سورة الفتح: ٢٧.

٢ـ تفسير القرطبي، ج١٥، ص١٠٢، وتفسير الرازي، ج٢٦، ص١٥٣.

«يوم التروية» فلمّا أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنّه من الله فسمّي «عرفة» ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ نحره فسمّي «يوم النحر».

فإن قيل: إمّا أن يقال: إنّه ثبت بالدليل عند الأنبياء أنّ كلّ ما رآه في المنام فهو حقّ حجّة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة بل كان عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وأن لا يراجع الولد فيه وأن لا يقول له: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وأن لا يوقف العمل إلى أن يقوله له الولد: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[1] ثمّ إذا ثبت له ما رأى في المنام حجّة لم يكن إلى هذه التروّي والتفكّر حاجة وإن كان الثاني وهو عدم الثبوت فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الولد بمجرّد رؤيا لم يدلّ الدليل على كونها حجّة؟

ويمكن الجواب: أنّه لا يبعد أنّه كان عند الرؤيا متردّدا فيه ثمّ تأكّدت الرؤيا بالوحي الصريح.

واختلفوا في أنّ هذا الذبيح من هو فقيل: إنّه إسحاق وهذا قول عليّ عليه السلام وعمر والعبّاس بن عبد المطّلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهريّ والسّديّ ومقاتل[2] وقيل إنّه إسماعيل وهو قول ابن عبّاس وابن عمر وسعيد بن المسيّب والحسن والشعبيّ ومجاهد والكلبيّ.

واحتجّ القائلون بأنّه إسماعيل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أنا ابن الذبيحين» فقال له أعرابيّ: يا ابن الذبيحين فتبسّم، فسئل عن ذلك فقال: «إنّ عبد المطّلب

١ـ الوالد إنما يكون وليا على ولده لا مالكاً لدمه وروحه والقربان يكون من ماله لا من مال غيره إلا إذا أجازه الولد ذلك لوالده وإلا فهو قتل نفس محرم لا قربان.

٢ـ كذا في تفسير الإمام الرازي.

لمّا حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحنّ أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له: افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والذبيح الثاني إسماعيل»[١].

الحجّة الثانية: عن الأصمعيّ أنّه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعيّ اين عقلك ومتى كان إسحاق بمكّة وإنّما كان إسماعيل بمكّة وهو الّذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكّة.

الحجّة الثالثة: أنّ اللّه وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[٢] لأنّه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

الحجّة الرابعة: الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكّة ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح بالشام[٣].

واحتجّ من قال: إنّ ذلك الذبيح إسحاق بوجهين: الوجه الأوّل: أنّ أوّل الآية وآخرها يدلّ على ذلك أمّا أوّلها فإنّه تعالى حكى عن إبراهيم قبل هذه الآية أنّ إبراهيم قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أجمعوا على أنّ المراد منها مهاجرته إلى الشام ثمّ قال: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلّا هو إسحاق ثمّ قال بعده: فلمّا بلغ معه السعي وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الّذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الّذي حصل في الشام.

١ـ بحارالانوار، ج١٢، ص١٣٢، وانظر: كنز العمال، ج١٢، ص٣٧٩.

٢ـ سورة مريم: ٥٤ وانما يصح هذا إذا كان المراد بإسماعيل في الآية إسماعيل بن إبراهيم فراجع.

٣ـ وقد استدل على ذلك بوجهين آخرين: الاول: انه قال رب هب لي من الصالحين وإنما يصلح ذلك ممن لا ولد له أبداً فإذاً هو إسماعيل لأنه أول أولاده والثاني: انه تعالى بشره بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب فكيف يأمره بذبح إسحق ولم يولد بعد يعقوب؟

الوجه الثاني: ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل نبيّ الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله.

وبالجملة فالّذين قالوا: الذبيح إسماعيل كان الذبح بمنى والّذين قالوا: إسحاق قالوا: هو ببيت المقدس.

واعلم أنّ الله لا يأمر إلّا بما يكون حسنا في ذاته ولا ينهى إلّا عمّا يكون قبيحا في ذاته وقد يكون الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسنا وتارة لأجل أنّ ذلك الأمر يفيد صحّة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به في ذاته حسنا ألا ترى أنّ السيّد إذا أراد أن يروض عبده فإنّه يقول له: إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانيّ ويكون ذلك من الأفعال الشاقّة ويكون مقصود السيّد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل لأنّ ذلك الفعل قد يكون المولى لا يرضى بوقوعه بل الغرض من الأمر الشاقّ أن يوطّن العبد نفسه على الانقياد والطاعة فإذا أطاع وفعل مقدّمات التكليف رفع عنه عند ذلك التكليف.

قال الرازيّ: واحتجّوا بهذه الآية على أنّ الله قد يأمر بما لا يريد وقوعه والدليل عليه أنّه سبحانه أمر بالذبح وما أراد وقوعه أمّا أنّه أمر بالذبح فلما تقدّم في تفسير الآية وحيث لم يقع لأنّ الله نهى عن ذلك الذبح والنهي عن الشيء يدلّ على أنّ الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنّه تعالى أمر بالذبح وثبت أنّه ما أراده وذلك يدلّ على أنّ الأمر قد يوجد بدون الإرادة انتهى[1].

﴿قَالَ﴾ ابنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ أي: ما أمرت به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ستصادفني بحسن توفيقه ممّن يصبر على الشدائد في جنب الله ويسلم لأمره. ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلما الأمر وأطاعاه ﴿وَتَلَّهُۥ

١ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص١٥٦.

﴿لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على جبينه وقيل: كبّه على جبهته وهذا خطاء لأنّ الجبين غير الجبهة وللوجه جبينان والجبهة بينهما وإنّما وضع جبينه على الأرض لئلّا يرى وجهه فيلحقه رقّة الآباء[1]. وروي أنّ إسماعيل قال: اذبحني وأنا ساجد لئلّا تنظر إلى وجهي فعسى أن ترحمني فلا تذبحني. ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الواو زائدة. قال المفسّرون: لمّا أضجعه للذبح نودي من الجبل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فسعد إبراهيم سعادة عظيمة وتبيّن إطاعتهما واستحقّا الأجر العظيم ونبوّة ولده.

حكي في قصّة الذبيح أنّ إبراهيم لمّا أراد ذبحه قال: يا بنيّ خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلمّا توسّط شعب ثبير (بتقديم الثاء المثلّثة) أخبره بما امر به فقال: يا أبت اشدد رباطي كي لا أضطرب واكفف عنّي ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه امّي فتحزن واشتحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإنّ الموت شديد وأقرئ على امّي سلامي وإن رأيت أن تردّ قميصي على امّي فافعل فإنّه قد يكون أسهل لها وأسلى فقال إبراهيم: نعم العون أنت بنيّ على أمر الله ثمّ أقبل عليه يقتله وقد ربط وهما يبكيان ثمّ وضع السكّين على حلقه فقال حينئذ: كبّني على وجهي أخاف أن تدركك رقّة تحول بينك وبين أمر الله ففعل إبراهيم ثمّ وضع السكّين على قفاه فانقلبت السكّين ونودي يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا أي: فعلت ما أمرت به في الرؤيا.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنّا كما جزينا إبراهيم بالعفو عن ذبح

١ـ هذا غير صحيح وان نقل عن ابن عباس ورضى به كثيرون لأنه قد يقال الجبين للجبهة أيضاً ولان القربان يصلح أن يكون وجهه وجبهته إلى الكعبة فيصير مصروعاً على جبينه الأيسر ولذلك قال: وتله للجبين.

ابنه نجزي من سلك طريقتهما في الإحسان والانقياد لأمر اللّه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إنّ هذا لهو الامتحان الظاهر والاختبار الشديد واختلف العلماء في الكبش الّذي جعله اللّه فداء عن إسماعيل فقيل: إنّه الكبش الّذي تقرّب به هابيل إلى اللّه فقبله وكان يرعى في الجنّة حتّى فدى اللّه به إسماعيل وقال آخرون: أرسل اللّه كبشا من الجنّة قد رعى أربعين خريفا وقال السدّيّ: نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو كبش أو وعل أملح انحطّ من الجبل فقام عند إبراهيم فأخذه فذبحه وخلّى ابنه ثمّ اعتنق ابنه وقال: يا بنيّ اليوم وهبت لي.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ بما يذبح بدله وهو الكبش العظيم الجثّة أو القدر لأنّه فدى اللّه به نبيّا ابن نبيّ وأيّ نبيّ الّذي من نسله سيّد المرسلين واحتجّ القائلون بجواز النسخ قبل العمل بالمأمور به بهذه الآية.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مضى تفسيره ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي: جعلنا لإبراهيم وإسحاق من الخير والبركة ويجوز أن يكون المراد كثرة ولدهما وبقائهم قرنا بعد قرن إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: من أولاد إبراهيم وإسحاق محسن بالإيمان والطاعة وبعضهم ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي بيّن الظلم وفي الآية دلالة على أن فضائل الآباء لا يستلزم فضيلة الأبناء ولا تصير هذه الشبهة سببا لمفاخرة اليهود.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم بذكر موسى وهارون فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أي: ولقد أنعمنا عليهما نعما جليلة. واعلم أنّ وجوه الإنعام كثيرة إلّا أنها محصورة في نوعين: إيصال المنافع إليه ودفع المضارّ عنه، وذكر سبحانه القسمين: فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى إيصال المنافع إليهما وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى دفع المضارّ عنهما. والمنافع على قسمين منافع الدنيا ومنافع الدين أمّا منافع الدنيا: فالوجود والعقل والصحّة والكمال في ذات كلّ واحد منهما وأمّا منافع الدين: فالعلم والطاعة وأعلى درجاتها النبوّة والمعجزات وقد أدّينا كلّ هذه الأمور وأمّا القسم الثاني: وهو دفع الضرر وهو المراد بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمراد من ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إيذاء فرعون ببني إسرائيل ونجاتهم منه بالغرق.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: نصرنا موسى وهارون وقومهما وهم بنو إسرائيل وغلبوا آل فرعون بظهور الحجّة وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة واستيرائهم ملك فرعون. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ والمراد منه التوراة وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم الّتي يحتاجون إليها في مصالح الدين والدنيا ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دلّلناهما على طريق الحقّ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهم امّة محمّدﷺ خلفنا لهما الثناء الحسن والذكر الجميل أي: أبقينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الثناء وهو قولهم: سلام على موسى وهارون ويذكرونهما بهذا الثناء الجميل ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو كلام الله وثناؤه سبحانه

عليهما بأن قلنا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ ومثل ذلك نفعل بالمطيعين ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين بجميع ما أوجبه الله عليهم العاملين بذلك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قرأ ابن عامر ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بغير همزة على وصف الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف. واختلف في إلياس فقيل: هو إدريس وقيل: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى بعث بعده وقيل: إدريس لأنّه قرئ مكانه إدريس وإدراس وقرئ إبليس.

وعن ابن عبّاس ومحمّد بن إسحاق وغيرهما قالوا: إنّه بعث بعد حزقيل لمّا عظمت الأحداث في بني إسرائيل وكان يوشع لمّا فتح الشام بوّأها بني إسرائيل وقسمها بينهم فأحلّ سبط منهم بعلبكّ وهم سبط إلياس بعث فيهم نبيّا فأجابه الملك ثمّ إنّ امرأته حملته على أن ارتدّ من دينه وخالف إلياس وطلبه الملك ليقتله فهرب إلى الجبال والبراري وكان الملك اسمه حبّ كان مؤمنا فأغوته امرأته فصار يعبد الأصنام وكان لامرأته سبعون ولدا منه ومن غيره وكان بجنب دارها بستان لعابد فطمعت فيه فقتلت العابد وتملّكت البستان فأخبرها إلياس بهلاكها وهلاك زوجها فأهلكهما الله. وقيل: إنّه استخلف اليسع على بني إسرائيل ورفعه الله من بين أظهرهم وقطع عنه لذّة الطعام والشراب وكساه الريش فصار إنسيّا ملكيّا أرضيّا سماويّا وسلّطه الله على الملك وقومه عدوّا لهم فقتل الملك وامرأته وبعث الله اليسع رسولا

فآمنت به بنو إسرائيل وعظّموه.

وقيل: إنّ إلياس صاحب البراري والخضر صاحب الجزائر ويجتمعان في كلّ يوم عرفة بعرفات.

وبالجملة ثمّ قال سبحانه حكاية عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون اللّه وتعبدون غيره وتعصونه ثمّ ذكر القبيح الّذي لأجله خوّفهم فقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وبعل اسم صنم كان لهم مثل «مناة وهبل» وكان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه وفتنوا به وعظّموه حتّى عيّنوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء.

وقيل: كان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلّم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلّمونها الناس وبه سمّيت مدينتهم لكن هذا القول وهو دخول الشيطان في جوف الصنم وتكلّمه بالضلال قول غير مقبول لأنّه إن صحّت هذه القدرة من الشيطان يرتفع الأمان عن المعجزات حينئذ.

﴿وَتَذَرُونَ﴾ وتتركون عبادة ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فرضا بزعمكم ولمّا عابهم على عبادة غير اللّه صرّح بنفي الشركاء فقال: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرئ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾ كلّها بالنصب على البدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذّبوا قوله قومه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ النار غدا ثمّ استثنى سبحانه منهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وذلك لأنّهم ما كذّبوه بكلّيّتهم بل كان فيهم من كان يعبد اللّه مخلصا فإنّهم لا يحضرون.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي: أبقينا له الذكر الحسن و﴿سَلَٰمٌ﴾ في هذه الآية كلّها مبتدء والجارّ والمجرور بعده خبره والجملة من المبتدء والخبر في موضع المفعول لقوله ﴿وَتَرَكْنَا﴾ ولو اعمل «تركنا» لفظا

لقال: «سلاما» بالنصب ويجوز أن يكون التقدير ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ الباقين بعده الثناء فحذف «الثناء» وهو المفعول ثمّ ابتدأ فقال: ﴿سَلَامٌ﴾.

وبالجملة في كلمة «آل ياسين» أقوال: قال ابن عبّاس: آل ياسين آل محمّد ﷺ وياسين من أسمائه ومن قرأ «إلْياسين» بالوصل أراد «إلياس» ومن تبعه من مؤمن قومه وقيل: ياسين اسم السورة فكأنّه قال: سلام على من آمن بكتاب الله والقرآن الّذي هو يس قال أبو علي: من قرأ «آل يس» فحجّته أنّها في المصحف مفصولة من «ياسين» وفي فصلها دلالة على أنّ آل هو الّذي تصغيره اهيل.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ
(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ
(١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ
(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)﴾

ثمّ عطف على ما تقدّم أي: إنّ لوطا رسول من جملة المرسلين الّذين أرسلهم الله إلى خلقه داعيا لهم على طاعة الله ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ والظرف متعلّق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمّد إذ نجّينا لوطا ونجّيناه من آمن معه من قومه من عذاب الاستئصال ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي: في الباقين الّذين اهلكوا استثنى من أهله وقومه الناجين امرأته فإنّها من الهالكين و«الغابر» في اللغة الباقي قليلا بعد ما مضى منه ومنه الغبار لأنّه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ أي: أهلكناهم. ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ﴾ هذا خطاب لمشركي العرب أي: تمرّون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام على منازلهم وقراهم بالنهار وبالليل وذلك لأنّ القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأسفار إنّما يمشي في الليل وفي أول النهار فلهذا السبب عيّن هذين الوقتين. ثمّ قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حتّى تتعقّلون وتعتبرون ممّا نزل بهم فتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلالة والوجه في تكرار قصص الأنبياء التشويق إلى ما كانوا عليه من مكارم الأخلاق وصرف الخلق عمّا كان عليه أهل المعصية ومقابيح الأفعال.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾واذكره ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾أي: فرّ من قومه إلى السفينة المملوّة من الناس والأحمال وكان فراره خوفا من أن ينزل العذاب بهم وهو مقيم فيهم وذلك لأنّه أحسّ إنزال الإهلاك والعذاب بقومه الّذين كذّبوه فظنّ أنّه نازل لا محالة فلأجل هذا الظنّ لم يصبر على دعائهم فكان الأولى عليه أن يبقى مع قومه ويستمرّ على دعائهم وأنّه أقدم على أمر ظهرت إمارته وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظنّ ثمّ انكشف ليونس من بعد أنّه أخطأ في ذلك الظنّ لأجل أنّه ظهر الإيمان من قومه.

وذكروا وجها آخر وهو أنّ يونس كان وعد قومه بالعذاب. فلمّا تأخّر عنهم العذاب بسبب توبتهم خرج كالمستور عنهم والخجلان منهم بقصد البحر وركب السفينة فذلك قوله: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ﴾

وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية مرّ في قوله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ الآية[1] في تفسير سورة يونس فليراجع هناك وأصل الهرب من

١ـ سورة الأنبياء: ٨٧.

السيّد لكن لمّا كان هرب يونس من قومه بغير إذن ربّه ظنّا منه أنّ الهرب أمر حسن، حسن إطلاقه عليه. قال ابن عبّاس في قصّة يونس: إنّه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم الملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف وكان اللّه أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوّكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم فلمّا نسوا ذلك وأسروا أوحى اللّه بعد إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن اذهب إلى ملك هؤلاء القوم وقل له: حتّى يطلب من اللّه أن يبعث إلى بني إسرائيل نبيّا فاختار الملك يونس لقوّته وأمانته قال يونس: اللّه أمرك بهذا قال: لا ولكن أمرت أن أبعث قويّا أمينا وأنت كذلك: فقال يونس: وفي بني إسرائيل من هو أقوى منّي فلم لا تبعثه، فألحّ الملك عليه، فغضب يونس منه وخرج حتّى أتى البحر ـ أي: بحر الروم ـ ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلمّا دخلت السفينة لجّة البحر أشرفت على الغرق، فقال الملّاحون: إنّ فيكم عاصيا وإلّا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر، وقال التجّار: قد جرّبنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكلّ فتقارعوا فخرجت القرعة باسم يونس، فقال التجّار نحن أولى من نبيّ اللّه ثمّ عادوا ثانيا وثالثا يقرعون فيخرج سهم يونس، فقال يونس: يا هؤلاء أنا الآبق وتلفّف في كسائه ورمى بنفسه في البحر فابتلعته السمكة فأوحى اللّه إلى الحوت إنّي ما جعلته رزقا لك لا تكسر منه عظما ولا تقطع له وصلا. فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلوبين بالقرعة وأصل «الدحض» المزلق عن مقام الظفر.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: فابتلعه من «اللقمة» وهو مليم أي: داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه وقرئ «مليم» بالفتح بناء من

ليم مثل مشيب في مشوب وهذا اللوم لوم العتاب لا لوم العقاب على خروجه من قومه وعندنا الإماميّة أنّ ذلك وقع من يونس تركا للمندوب وقد يلام الإنسان على ترك المندوب. واختلف في مدّة لبثه في بطن الحوت فقيل: ثلاثة أيّام وقيل: سبعة أيّام وقيل: عشرين يوما وقيل: أربعين يوما.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: كان تسبيحه أنّه كان يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: كان من المصلّين في حال الرجاء فنجّاه اللّه عند البلاء وقيل: كان ينزّه اللّه دائما عما لا يليق به ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: كان بطن الحوت قبره إلى يوم القيامة.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: فطرحناه بالمكان العاري عن النبات والشجر وقذفه الحوت بأمر اللّه من جوفه على وجه الساحل وهو مريض حين ألقاه الحوت وخرج من بطن الحوت كهيئة فرخ ليس عليه ريش. ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهو القرع واليقطين يقال لكلّ نبت ينبسط على وجه الأرض ولا ساق له فكان يونس يستظلّ بها ويأكل من ثمرها حتّى تشدّد قيل: إنّ السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثمّ إلى بحر فارس ثمّ إلى بحر البطائح ثمّ دخله ورمته بأرض نصيبين ثمّ إنّ الأرضة أكلت الشجرة فخرّت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال: يا ربّ كنت أستظلّ تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وآكل من ثمرها وقد سقطت فقيل له: يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم انطلق إليهم فانطلق إليهم وذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قيل: إنّ اللّه أرسله إلى نينوى من أرض الموصل وكانت رسالته هذه بعد ما نبذه الحوت فعلى هذا يجوز أن يكون أرسل إلى قوم بعد قوم أو أن يكون مرسلا إلى الأوّلين بشريعة فآمنوا بها.

وقيل: في معنى ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وجوها: أحدها: أن يكون على طريق الإبهام على المخاطبين كأنّه قال: أرسلناه إلى احدى العدّتين وثانيها: أنّ «أو» للتخيير كأنّ الرائي خيّر بين أن يقول: مائة ألف أو يزيدون أي: كانوا عددا لو نظر إليهم الناظر لقال: هم مائة ألف أو يزيدون وثالثها: أنّ «أو» بمعنى الواو كأنّه قال: ويزيدون، وقيل: معنى «أو» بل يزيدون واختلف في الزيادة على مائة ألف فقيل: عشرون ألفا عن ابن عبّاس وقيل: بضع وثلاثون ألفا وقيل: سبعون ألفا.

﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ حكى سبحانه عنهم أنّهم آمنوا بالله وراجعوا التوبة فكشف عنهم العذاب ومتّعوا بالمنافع واللّذات إلى انقضاء آجالهم.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قرئ «أصطفى» بكسر الهمزة وبفتح الهمزة.

ثمّ عاد الكلام إلى الردّ على مشركي العرب فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم واطلب الحكم منهم في هذه القصّة ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أي: كيف أضفتم البنات إلى الله واخترتم لأنفسكم البنين وذلك لأنهم كانوا يقولون: إنّ الملائكة بنات الله على وجه الاصطفاء لا على وجه الولادة.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ أي: بل خلقنا الملائكة إناثا ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون أي: كيف جعلوهم إناثا ولهم يشهدوا خلقهم والغرض من هذا البيان تبكيتهم على كفرهم حيث جعلوا البنات اللاتي هنّ أوضع الجنسين للّه ولهم البنون الّذين أرفع الجنسين. ونقل الواحديّ عن المفسّرين أنّهم قالوا: إنّ قريشا وأجناس العرب قالوا:

الملائكة بنات اللّه مع أنّهم كانوا يستنكفون من البنت والشيء الّذي يستنكف منه المخلوق كيف يثبتونه للخالق على أنّ إثبات الولد للّه كفر ثمّ كيف أضافوا الأنوثيّة للملائكة مع أنّ الملائكة من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطباع والأنوثة من أخسّ صفات الحيوان.

ثمّ أخبر سبحانه عن كذبهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ حين زعموا أنّ الملائكة بنات اللّه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل، ومثله قول ذي الرّمة:

استحدث الركب عن أشياعهم خبرا أم راجع القلب من أطرابه طرب

وحاصل المعنى كيف يختار اللّه سبحانه الأدون على الأعلى مع كونه حكيما مالكا.

ثمّ وبّخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحكم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتتّعظون فتنتهون عن مثل هذا القول السخيف. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجّة وبيّنة على ما تقولون وهذا كلّه إنكار وردّ بصورة الاستفهام ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فأتوا بحجّتكم على هذا الاعتقاد والمراد أنّه لا دليل لكم على ما تقولونه من جهة العقل ولا من جهة السمع.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ روينا في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ

ٱلْجِنَّ﴾[1] إنّ قوما من الزنادقة كانوا يقولون: إنّ اللّه وإبليس أخوان فاللّه الأخ الكريم الخيّر وإبليس هو الشرير الخسيس فقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المراد منه هذا المذهب وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهريمن هذا أحد الأقوال: في تفسير الآية وحاصل هذا المعنى أنّ اللّه خالق الخير والنور والحيوان النافع والشيطان خالق الشرّ والظلمة والحيوان الضارّ الموذي.

والقول الثاني: في معني الآية على قول المشركين من العرب حيث يقولون: إنّ الملائكة بنات اللّه وسمّي الملائكة جنّة لاستتارهم عن العيون.

والقول الثالث: إنّ اللّه صاهر الجنّ فحدثت الملائكة. تعالى اللّه عن هذه الأقوال السخيفة.

والقول الرابع: أنّهم أشركوا الشيطان في عبادة اللّه فذلك هو النسب الّذي جعلوه بينه وبين الجنّة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: علمت الملائكة أنّ هؤلاء الّذين قالوا هذا القول محضرون في العذاب يوم القيامة. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزّه سبحانه نفسه عمّا لا يليق به وأضافوه إليه ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثنى عباده المخلصين عن هذه الأقوال القبيحة السخيفة ومن حضور العذاب.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثمّ خاطب سبحانه الكفّار بأن قال لهم: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: إنّكم يا

١ـ سورة الانعام: ١٠٠.

معشر الكفّار والّذي تعبدونه ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ والضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّه يعود إلي ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ والتقدير أنكم وما تعبدونه ما أنتم على عبادته بفاتنين أحدا إلّا من يصلى الجحيم ويحترق بها بسوء اختياره وما أنتم بمضلّين أحدا ولا تقدرون على إضلال أحد إلّا من سبق في علم اللّه أنّه بسوء اختياره سيكفر ويصلي الجحيم.

والقول الآخر: في الضمير من ﴿عَلَيۡهِ﴾ أنّه يعود إلى اللّه والتقدير ما أنتم على اللّه وعلى دينه بمضلّين أحدا ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ باختياره.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ هذا قول جبرئيل للنبيّ: أو قول الملائكة وصفوا بأنفسهم بالمبالغة في العبادة والعبوديّة وذكروا أنّهم يصطفّون للصلاة والتسبيح والغرض من بيان الآية التنبيه على فساد قول من يقول: إنّهم أولاد اللّه فإنّهم يعترفون بالعبوديّة والعبوديّة تنافي الأولاديّة. وذكرا أنّ لكلّ منهم مرتبة لا يتجاوزها درجة لا يتعدّى عنها بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي: صافّون في أداء الطاعات ومنازل الخدمة وأمّا درجاتهم في المعارف فبقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۞ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ المعنى: أنّ مشركي العرب كانوا يقولون: لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا﴾ أي: كتابا من كتب الأولين الّذي نزل عليهم مثل التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة للّه ولمّا كذّبنا كما كذّب غيرنا ثمّ جاءهم الذكر الّذي هو سيّد الأذكار والكتاب المهيمن الّذي فاق كلّ الكتب وهو القرآن.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وفي الكلام حذف تقديره فلمّا أتاهم الكتاب كفروا به ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

المعنى: لمّا هدد الكفّار بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أردفه بما يقوّي قلب الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ أقسم وذكر لام القسم أي: تقدّم في علم الله وحكمه أنّ المرسلين ﴿لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فبيّن أنّه سبحانه وعد نبيّه بنصرته والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾[1] وأيضا إنّ الخير مقتض بالذات والشرّ مقتض بالعرض وما بالذات أقوى ممّا بالعرض. وأمّا النصرة والغلبة قد تكون بالحجّة وقد تكون بالاستيلاء والدولة وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوبا في بعض الأوقات بسبب أحوال الدنيا لكن مع ذلك فالحقّ بما هو حقّ غالب ولا يلزم أن يقال: فقد قتل بعض الأنبياء وقد ضعف وهزم كثير من المؤمنين فهم مع ذلك غالبون بالسعادة وهؤلاء مغلوبون بالشقاوة بسوء العاقبة.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء الكفّار ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ نأمرك فيه بقتالهم أو إلى يوم الموت وانقضاء مدّة الامهال. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: أنظرهم فسوف يبصرون العذاب ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ لأنهم كانوا يقولون: متى هذا التهديد والوعيد الّذي توعدنا به فأنزل الله أفبعذابنا يطلبون العجلة؟

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ وبأفنية دورهم كما يستعجلون ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس الصباح صباح من يحذّر ولم يحذر. و«الساحة»

١ـ سورة المجادلة: ٢١.

معناه الدار وفناؤها وكانت العرب تفاجئ أعداءها بالغارات صباحا فخرج الكلام على عادتهم ولأنّ الله أجرى العادة بتعذيب الأمم وقت الصباح كما قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ مرّ تفسيره وإنّما كرّر للتأكيد والاهتمام بشأن التهديد وقيل: إنّ المراد بأحدهما: عذاب الدنيا مثل بدر وأشباهه وبالآخر: عذاب الآخرة. ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن وصفهم وبهتانهم فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيها لربّك مالك العزّة يعزّ من يشاء لا يملك أحد إعزاز أحد سواه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلامة وأمان للأنبياء من العذاب والسوء ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: احمدوا الله الّذي هو مالك العالمين (وهو خبر معناه الأمر) وأخلصوا الثناء والحمد لله ولا تشركوا به أحدا فإنّ النعم كلّها منه تعالى.

روى الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام وروى أيضا مرفوعا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

تمّت السورة بعون الله.

١ـ من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٢٥، ومكارم الاخلاق، ص ٣٠٤، ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٣٩.

سورة ص

مكية. فضلها: ابيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة ص أعطي من الأجر بوزن كلّ جبل سخّر الله لداود حسنات وعصمه الله أن يصرّ على ذنب صغيرا أو كبيرا»[1].

وروى العيّاشيّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة اعطى من خير الدنيا والآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلّا نبيّ مرسل أو ملك مقرّب وأدخله الله الجنّة وكلّ من أحبّ من أهل بيته حتّى خادمه الّذي يخدمه وإن كان ليس في حدّ عياله ولا في حدّ من يشفع له وآمنه الله يوم الفزع الأكبر»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

سبب النزول: قال المفسّرون: إنّ أشراف قريش وهم خمسة وعشرون منهم الوليد بن مغيرة وهو أكبرهم وأبو جهل وابيّ واميّة ابنا خلف وعتبة

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٤٠، ونور الثقلين، ج٤، ص٤٤١.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٤٠، وثواب الاعمال، ص١١٢.

وشيبة ابنا ربيعة والنضر بن الحارث أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنّه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب رسول اللهﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فقال: «**ما ذا يسألونني**» قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك فقالﷺ: «**أتعطونني كلمة واحدة تملكون العرب والعجم**». فقال أبو جهل: للّه أبوك نعطيك ذلك وعشرة أمثالها. فقال: «**قولوا: لا إله إلّا الله**» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فنزلت هذه الآيات[١].

وروي أنّ النبيﷺ استعبر ثمّ قال: «**يا عمّ والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتّى أنفذه أو أقتل دونه**». فقال له أبو طالب: امض لأمرك فو اللّه لا أخذلك أبدا[٢].

﴿صٓ﴾ اختلفوا في معناه فقيل: هو اسم للسورة وقيل فيه ما قيل في فواتح السور وقد شرح بيانه في سورة البقرة مثل أن يكون ﴿صٓ﴾ اسماً من أسماء اللّه الّتي أولها صاد ومعناه صادق الوعد وصانع المصنوعات وصمد أو معناه صدّق محمّد فيما أخبر به عن اللّه أو المعنى صدّ الكفّار عن قبول هذا الدّين كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣] وقيل: معناه أنّ القرآن مركّب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن فدلّ ذلك على أنّ القرآن معجز، الخامس من المعاني أن يكون «صاد» بالكسر من الدال من المصادة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية الصلبة فحينئذ معناه: عارض القرآن وواجهه بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وإذا كان اسم للسورة

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٤٢، وبحارالانوار، ج٩، ص١٤٣.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ سورة النساء: ١٦٧.

فالتقدير: هذه السورة صاد وإذا كان المراد من «ص» صدق محمّد فالصاد هو المقسم عليه وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هو القسم فالمعنى والقرآن ذي الذكر أنّ محمّدا لصادق فيما يخبر عن ربّه.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي البيان الّذي يؤدّي إلى الحقّ ويهدي إلى الرشد لأنّ فيه ذكر ما يحتاج الإنسان إليه من امور معاشه ومعاده وذكر الأنبياء وأخبار الأمم والبعث والأحكام وقيل: المراد من ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ الشرف ويؤيّده قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] أو المراد منه ذكر اللّه وتوحيده وأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

واختلف في جواب القسم على وجوه: أحدها: أنّ جوابه محذوف فكأنّه قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ لقد جاء الحقّ وظهر الأمر وحذف الجواب في مثل هذا أبلغ فإنّ ذكر الجواب يقصر المعنى على وجه والحذف يصرف إلى كلّ وجه فيعمّ. والقول الثاني: ما ذكرناه وهو أنّ جوابه «ص» يعني: صدق محمّد ﷺ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراباً عن ذلك كأنّه قيل: لا ريب فيه قطعا وليس عدم إذعانهم للقرآن لشائبة ريب فيه بل هم في استكبار وحميّة شديدة وشقاق بعيد للّه ولرسوله ولذلك لا يذعنون له ومنعهم الحسد والتكبّر من الانقياد إلى الحقّ.

والمراد من العزّة هاهنا العظمة وما يعتقده الإنسان في نفسه من الأحوال الّتي تمنعه من متابعة الغير كما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[2] والمراد من الشقاق إظهار المخالفة على جهة المساوات للمخالف وهو مأخوذ من «الشقّ» كأنّه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل

١ـ سورة الزخرف: ٤٤.

٢ـ سورة البقرة: ٢٠٦.

يجعل نفسه في شقّ وخصمه في شقّ فيريد أن يكون في شقّ نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه.

ثمّ إنّه سبحانه لمّا وصفهم بالعزّة والشقاق خوّفهم فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ والمعنى أنّهم نادوا عند نزول العذاب بسبب تكذيبهم الأنبياء ونادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة وليس الوقت حين منجى ولا يفيد في ذلك الوقت الندامة والرجوع عند معاينة العذاب وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا﴾[١] وكقوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[٢] وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[٣].

وأمّا تحقيق الكلام في لفظ «لاتَ» قال سيبويه: إنّ «لاتَ» هي «لا» المشبّهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على ربّ وثمّ للتأكيد وبسبب هذه الزيادة حدث لها أحكام: منها أنّها لا تدخل إلّا على الأحيان ومنها أن لا يبرز إلّا أحد جزءيها إمّا الاسم وإمّا الخبر ويمتنع بروزهما جميعا وقال الأخفش: إنّها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصّت بنفي الأحيان و﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها كأنّك قلت: ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي: ولات حين مناص كائن لهم والمناص المنجى والغوث يقال: ناصه ينوصه إذا أغاثه واستناص طلب المناص.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وعجب الكافرون أن أتاهم من ينذرهم ويخوّفهم منهم قالوا: إنّ محمّدا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل فكيف يختصّ من بيننا

١ـ سورة المؤمن: ٨٤.

٢ـ سورة يونس: ٩١.

٣ـ سورة المؤمن: ٨٥.

بهذا الأمر وهو من رهطنا وعشيرتنا فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته والانقياد لتكاليفه وما كان سبب هذا التعجّب إلّا الحسد. ثمّ نسبوا إليه السحر والكذب ثمّ قالوا: ﴿أَجَعَلَ﴾ هذا الرجل ﴿ٱلْءَالِهَةَ﴾ الكثيرة ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ وقاسوا بسبب تقليد آبائهم الحمقاء وقالوا: لا بدّ في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفّل كلّ واحد منهم بحفظ نوع وكان قياسهم الباطل أنّ أولئك الأقوام من أسلافنا على كثرتهم وقوّة عقولهم كيف كانوا جاهلين ومبطلين وهذا الإنسان الواحد يكون محقّاً صادقا وهذه التشريفات كانت منشأ عجبهم. و«العجاب» هو العجيب إلّا أنّه أبلغ كقولهم: طويل وطوال وكبير وكبار وقد يسدّد للمبالغة مثل ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾

المعنى: هذا تمام الحكاية عن الكفّار أي: انطلق الأشراف منهم و«الانطلاق» الذهاب بسهولة ومنه طلاقة الوجه والخلق وكان يقول بعضهم لبعض: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ واثبتوا على عبادة آلهتكم واصبروا على دينكم وتحمّلوا المشاقّ وقيل: القائل منهم عقبة بن أبي معيط.

قال الزمخشريّ: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ «أن» هاهنا بمعنى «أي»: وهي المفسّرة عن القول أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ واعبدوها متحمّلين لما تسمعونه من القدح. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: إنّ هذا الّذي شاهدناه من محمّد ﷺ ومن أمر التوحيد ونفي الآلهة وإبطال أمرها لشيء يراد من جهته ﷺ ولا يمكن أن يلويه صارف ولا عاطف يثنيه فاقطعوا

أطماعكم عن استنزاله من هذا الرأي بواسطة أبي طالب أو غيره وقيل: المعنى إنّ هذا لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل:

إنّ هذا الّذي يدّعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفّع على العرب والعجم لشيء يتمنّى ويريده كلّ أحد قال القفّال: هذه كلمة تذكر للتهديد وكان معناه أنّه ليس غرض محمّد من هذا القول تقرير الدين وإنّما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأنفسنا بما يريد.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ والمراد من ﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ هي ملّة النصارى أي: هذا التوحيد الّذي أتى به محمّد ما سمعناه في دين النصارى لأنّها آخر الملل قال ابن عبّاس: لأنّ النصارى لا يوحّدون وأنّهم يقولون بقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقيل: المراد من ﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ ملّة قريش أي: ملّة زماننا.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ليس هذا الّذي يقوله محمّد صلى الله عليه وآله ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: تصنّع وكذب وافتعال أي: كذب اختلقه واخترعه.

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ هذه شبهة من المشركين أي: كيف أنزل على محمّد القرآن من بيننا وليس بأكبر سنّاً منّاً ولا بأعظم شرفاً وهو مساو لنا في البشريّة والخلقة الظاهرة فكيف اختصّ بهذه الفضيلة؟ وهذا القياس باطل لأنّهم زعموا أنّ الشرف بالمال والأعوان فعقدوا على هذا القياس الفاسد أمرهم وأفكارهم.

فأجاب سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: ليس يحملهم على هذا الاستبعاد إلّا الشكّ في هذا القرآن والوحي الّذي أنزلناه إليك وإعراضهم عن النظر والتدبّر إلى الأدلّة المؤدّية إلى العلم بحقيقته ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إذا أذاقوه تبيّن لهم حقيقة الحال وفي كلمة «لما» دلالة على أنّ ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى أنّهم لا يصدّقون بالقرآن حتّى يمسّهم العذاب ولأنّهم

لم يذوقوا العذاب الموعود ولذلك شكّوا.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ تتمّة الجواب عن شبهتهم بقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ فقال سبحانه: أ بأيديهم مفاتيح النبوّة والرسالة فيضعونها حيث يشاءوا من صناديدهم أي: أنّها ليست بأيديهم وليس لهم تعيين النبيّ والرسول حتّى يضعوا النبوّة فيمن أرادوه ولكنّها بيد العزيز الغالب في ملكه كثير الهبات والعطايا يختار للنبوّة من يشاء من عباده.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: ألهم سلطة واختيار في السماوات والأرض فيمنعون الله من مراده، إن ادّعوا ذلك فليصعدوا في المعارج والمناهج والمدارج الّتي يتوصّل بها إلى السماوات ويدبّروا أمرها وينزلوا الوحي إلى من يختارونه وهذا الكلام جواب عن شرط محذوف أي: إن كان لهم ما ذكر من الملك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

ولمّا ذكر سبحانه في الآية الأولى بقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ وذكر الخزائن على عمومها وهي غير متناهية أردفها بذكر ملك السموات والأرض يعني أنّ ملك السماوات والأرض أحد أنواع خزائن الله فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم وكيفيّة صعودها وتصرّفها فبأن تكونوا عاجزين عن كلّ خزائن الله كان أولى.

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

المعنى: أخبر سبحانه عن الكفّار القائلين بهذه الأقوال السخيفة نبيّه ﷺ وهو بمكّة أنّهم سيهزمون وأنت منصور عليهم وهم الّذين تحزّبوا وحاربوا

النبيّ و«ما» زائدة مؤكّدة للتحقير مثل أكلت شيئا مّا ويجوز أن يكون للتعظيم هزؤا فيؤول إلى التحقير وقيل: المراد بقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ يوم بدر أو المراد الموضع الّذي ذكروا هذه المقالات السخيفة ويمكن أن يكون حمله على يوم فتح مكّة.

ووجه النظم في الآية بما قبلها أنّ المعنى كيف يتقوّلون بهذه الأقاويل وكيف يرتقون إلى السماء وهم فرق من قبائل شتّى مهزومون؟

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: كذّبت قبل هؤلاء الكفّار ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي: أقوام الأنبياء قبلك كذلك كذّبوا أنبياءهم وهكذا كانوا يكذّبون رسلهم ثمّ بالآخرة نزل العذاب بهم فذكر ستّة أصناف منهم: أوّلهم: قوم نوح فأهلكهم اللّه بالغرق والطوفان. والثاني: عاد قوم هود لمّا كذّبوه أهلكهم اللّه بالريح العقيم. والثالث: فرعون لمّا كذّب موسى أهلكه اللّه مع قومه بالغرق. والرابع: ثمود قوم صالح لمّا كذّبوه فاهلكوا بالصيحة. والخامس: قوم لوط كذّبوه فاهلكوا بالخسف. والسادس: أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب فلمّا كذّبوه فاهلكوا بعذاب يوم الظلّة.

وإنّما وصف اللّه فرعون بكونه ذو الأوتاد لوجوه:

الاول: أنّ أصل هذه الكلمة من أصل ثبات البيت المطنّب بأوتاده ثمّ استعير لإثبات العزّ والملك: قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظلّ ملك ثابت الأوتاد

وهذا المعنى أحسن الوجوه.

والثاني: أنّه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمدّ يدي المعذّب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع ويضرب على كلّ واحد من هذه الأعضاء وتدا ويتركه معلّقاً في الهواء إلى أن يموت.

والثالث: أنّه يمدّ المعذّب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه

العقارب والحيّات.

والرابع: قال قتادة: كانت عنده أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده.

والخامس: أنّ عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرّف بها.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مبالغة لوصفهم بالقوّة والكثرة والمعنى أنّ حال أولئك الأحزاب مع كمال قوّتهم لمّا كان عاقبة أمرهم الهلاك والبوار فكيف هؤلاء الضعفاء؟

ولمّا ذكر حال المكذّبين بيّن أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب ومعناه هم الأحزاب حقّاً أي: أحزاب الشيطان كما يقال: هم هم وفلان هو الرجل. قال الشاعر:

وإنّ الّذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كلّ القوم يا امّ خالد

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: ما كلّ حزب منهم إلّا كذّب الرسل فوجب عليهم عقابي بتكذيبهم رسلي ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي: وما ينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّار مكّة ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي النفخة الاولى في الصور ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ أي: لا يكون لتلك الصيحة إفاقة بالرجوع إلى الدنيا أو لا يتمكّنون من الرجوع مقدار زمان رجوع اللبن إلى الضرع. قال الفرّاء: إذا ارتضعت البهيمة امّها ثمّ تركها حتّى تنزل فتلك الإفاقة والفواق ثمّ قيل لكلّ إنظار واستراحة وقيل: المعنى مالها من فتور كما يفتر المريض أو مالها مثنويّة وردّ وصرف.

قال الطبرسيّ: من الآيات الدالّة على عدم تعذيب هذه الامّة بعذاب الاستئصال هذه الآية والمراد أنّ عقوبة امّة محمّد ﷺ بعذاب الاستئصال مؤخّرة إلى يوم القيامة وعقوبة سائر الأمم معجّلة في الدنيا كما قال سبحانه:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[١][٢].

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء الكفّار: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربّنا ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قدّم لنا نصيبنا من العذاب ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ وإنّما قالوه على سبيل الاستهزاء بخبر النبيّ وخبر الله عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وجماعة.

وقيل: لمّا نزل ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ... وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[٣] قال قريش: يا محمّد زعمت أنّا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجّل لنا كتبنا الّتي نقرؤها في الآخرة وذلك استهزاء منهم بهذا الوعيد وتكذيباً به و«القطّ» كتب الجوائز والحكم واشتقاقها من القطّ وهو القطع لأنّها تقطع النصيب والعمل والقطّ الحساب أيضا قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بنعمته يعطي القطوط ويافق

وبالجملة إنّ القوم قد كمل كفرهم في الشبهات الثلاثة الّتي أوردوها: أولاها تتعلّق بالإلهيّات وهو قوله تعالى حكاية عنهم ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ والثانية تتعلّق بالنبوّة وهو قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ والثالثة تتعلّق بالمعاد وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ سلّى نبيّه ﷺ بالصبر إن كنت قد

١ـ سورة القمر: ٤٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٤٧.

٣ـ سورة الحاقة: ١٩ و٢٥.

شاهدت من هؤلاء الجهلة جرأتهم في مثل هذه الأمور اصبر وتحمّل أذاهم كأنّه قال: واذكر لهم الأكابر من الأنبياء كيف كانوا يخافون اللّه مع أنّهم معصومون من المعاصي ومنهم داود فإنّه بسبب ترك مندوب كيف خاف من ربّه كما حكى عنه بكاءه الدائب وغمّه الواصب وندمه الدائم فما الظنّ بهؤلاء الكفرة الأذلّين من كلّ ذليل المصرّين لأكبر الكبائر والغرض من الآية وذكر القصّة تهويل لأمر المعصية في أعين الناس وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه وأيضا تثبيت للرسول على مقاساة أمر النبوّة وصيانة نفسه الشريفة على التحمّل والتصبّر على أذيّاتهم.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ في «التوحيد» عن الباقر‌عليه‌السلام: «اليد في كلام العرب القوّة والنعمة»[1] وقيل: ذو القوّة على العبادة ذكر أنّه كان يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر وكان يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشدّ الصوم وقيل: المراد بالقوّة في البدن روي أنّه رمى بحجر من مقلاعه صدر الرجل فأنفذه من ظهره فأصاب آخر فقتله وقيل: معناه ذا التمكين العظيم والنعمة العظيمة وذلك أنّه كان يبيت كلّ ليلة حول محرابه ألوف كثيرة من الرجال.

وإنّ هذا الوصف الّذي وصف داود وهو قوله: ﴿عَبۡدَنَا﴾ نهاية في التعظيم مقام أعلى وأسنى منهم الا ترى أنّه سبحانه قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[2] وهذا بيان تشريف محمّد‌صلى‌الله‌عليه‌وآله في ليلة المعراج وإنّما وصف سبحانه عباده المخلص بالعبوديّة مشعراً بأنّهم قد حقّقوا معنى العبوديّة بسبب الاجتهاد في الطاعة.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع كثير الرجوع إلى مرضاة اللّه ويراجع أموره

١ـ التوحيد، ص١٥٣، بحارالانوار، ج٤، ص٤.

٢ـ سورة الإسراء: ١.

كلّها إلى طاعتي ورضاي ويرجع عن كلّ ما يكره اللّه إلى ما كلّ يحبّ اللّه من آب يؤوب إذا رجع وقيل: معناه أي: مسبّح وقيل: مطيع قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وذكر في تسبيح الجبال وجوه:

الاول: أنّ اللّه خلق في جسم الجبل حياة وقدرة وعقلاً ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبّحا للّه تعالى ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾[1] فإنّ معناه أنّه تعالى خلق في الجبل عقلا وفهما ثمّ خلق فيه رؤية عظمة اللّه فكذا هاهنا.

الثاني: ما رواه القفّال المروزيّ في تأويل التسبيح أنّه يجوز أن يقال: إنّ داود قد اوتي من شدّة حسن الصوت ما كان له دويّ حسن في الجبال وما يصغي إليه الطير لحسنه فيكون دويّ الجبال وتصويت الطير وتغريده معه تسبيحا لهم وذكر محمّد بن إسحاق أنّ اللّه لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود حتّى إنّه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتّى يأخذ عليه السلام بأعناقهم.

والوجه الثالث: من الوجوه أنّ اللّه سيّر الجبال معه حتّى أنّها كانت تسير إلى حيث يريده ويتبعه وكان ذلك السير تسبيحاً لها لأنّه كان يدلّ على كمال قدرة اللّه وحكمته.

قال صاحب «الكشّاف»: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى مسبّحات فإنّ صيغة الفعل تدلّ على الحدوث والتجدّد وصيغة الاسم على الدوام فقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يدلّ على التجدّد والحدوث في التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: بالرواح والصباح يقول: الشمس إذا طلعت أشرقت وصفا شعاعها.

١ـ سورة الأعراف: ١٤٣.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي: وسخّرنا الطير ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة إليه تسبّح الله تعالى معه ﴿كُلٌّ﴾ يعني كلّ الطير والجبال ﴿لَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إليه مطيع له بالتسبيح قال الجبّائي: لا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم بها أمر داود ونهيه فتطيعه في ما يريد منها وإن لم تكن كاملة العقل مكلّفة.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قوّينا ملكه بالحرس والجنود والهيبة وكثرة العدّة والعدد عن ابن عبّاس أنّه كان يحرسه كلّ ليلة ستّة وثلاثون ألف رجل وقيل: أربعون ألفا وكان أشدّ ملوك الأرض سلطانا.

وعن عكرمة عن ابن عبّاس أنّ رجلا ادّعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدّعى عليه فقال داود للمدّعي: أقم البيّنة فلم يقمها فرأى داود في منامه أنّ الله يأمره أن يقتل المدّعى عليه فتثبّت داود وقال: هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن يقتله فأحضره وأعلمه أنّ الله يأمره بقتله فقال المدّعى عليه: صدق الله إنّي كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شدّت ملكه وأمّا الأسباب الدينيّة الموجبة لهذا الشدّ فهي الصبر والتأمّل التامّ والاحتياط الكامل فحصل له مقام العبوديّة والتقوى.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ والمراد بالحكمة النبوّة أو العلم بالله وشرائعه والمراد «بفصل الخطاب» هو العلم بالقضاء والفهم والعالم بالحكمة أن يكون الإنسان يعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشريّة والعامل بالحكمة أن يكون آتيا بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة. وإنّما سمّي هذا الأمر بالحكمة لأنّ اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف فلهذا السبب سمّيت تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة والمراد من «فَصْلَ الْخِطَابِ» على ما ذكرنا معرفة امور الّتي بها يفصل بين الخصوم حسبما قرّره الشارع

وبحيث لا يختلط شيء بشيء آخر وينفصل كلّ مقام من مقام.

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

المعنى: فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ فهو نظير قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصّة المستفهم عنها ليكون داعياً إلى الاعتبار بها. قال الرازي: وأقول: للناس في هذه القصّة ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: ذكر هذه القصّة على وجه يدلّ على صدور الكبيرة عن داودعليه السلام. وثانيها: دلالتها على صدور الصغيرة عنه.

وثالثها: بحيث لا تدلّ على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأمّا القول الأوّل فحاصل كلامهم فيها أنّ داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتّى قتل زوجها ثمّ تزوّج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً فتنبّه لذلك واشتغل بالتوبة.

وهذا القول باطل وفي نهاية الفساد من وجوه:

١ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص١٨٩.

الاول: أنّ هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق النّاس وأشدّهم فجورا لاستنكف منها والرجل الحشويّ الخبيث الّذي يقرّر تلك القصّة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربّما لعن من ينسبه إليها وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبتها إلى المعصوم؟

الثاني: أنّ حاصل القصّة يرجع إلى: أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حقّ وإلى الطمع في زوجته أمّا الأول فأمر منكر، قال ﷺ: «من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه «آيس من رحمة الله»[1]». وأمّا الثاني: فإنّ أوريا على قولكم لم يسلم من داود لا في زوجه ولا في منكوحه وقد قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»[2].

والثالث: أنّ الله سبحانه وصف داود في الآية السابقة بصفات فائقة جليلة ووصفه أيضا كثيرة حسنة بعد هذه القصّة وكلّ هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر ولو قلنا: إنّ داود صدرت منه هذه الكبائر لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمّدا ﷺ أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر والطاعة وكيف يكون من هو قلبه مشغول بالفجور والقتل وحظّ النفس كثير الرجوع إلى الله في الطاعة وأن يكون «أوّابا» بصيغة المبالغة وكيف يليق بمثل هذا الإنسان أن تكون الجبال والطيور مسخّرة وتابعة له ليتّخذه وسيلة إلى القتل والفجور؟ وقد قيل: إنّه كان محرّما عليه صيد شيء من الطير فحينئذ بزعمكم أنّ الطير آمن منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على نفسه وزوجته؟ وقد قال الله تعالى: في حقّه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقد فسّروا تشديد ملكه بما يقوّي الدين وبأسباب السعادة كما بيّنّا

١ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج١٨، ص٢١١، تفسير، الرازي، ج٢٦، ص١٨٩.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٠٩، وانظر: الكافي، ج٢، ص٢٣٤.

في موضعه قبل هذا ومن لا يملك نفسه عن امرأة كيف يليق بذلك؟

ثمّ وصفه تعالى بأنّه مأتيّ الحكمة والحكم كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ وكلّ من كان موصوفا بهذه الصفات وقابلاً لهذه المواهب الجليلة كيف يرضى أن يصدر منه امور يستنكف منه الشيطان وكلّ هذه المدائح الّتي مدحه اللّه تعالى ومنحه بها دالّة أنّ براءة ساحته عن تلك الأكاذيب قبل شرح القصّة.

وأمّا الصفات المذكورة بعد القصّة فهي أيضا ناطقة بعلوّ ساحته عن مثل هذه المقامات مثل قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وذكر مثل هذا الكلام إنّما يناسب في حقّ من هو قويّ في طاعة اللّه أمّا لو كانت القصّة المتقدّمة دالّة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لائقا به وأمّا قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدلّ على كذب هذه المقالات لأنّ الملك العظيم الشأن إذا حكى عن بعض عبيده أنّه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصّة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقبيه: أيّها العبد إنّي فوّضت إليك خلافتي ونيابتي فإنّ ذكر تلك القبائح يناسب الزجر والحجر لا أن يجعله خليفة نفسه ومن المعلومة في اصول الفقه أنّ ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب للحكم يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلا بذلك الوصف فلمّا حكى اللّه عنه تلك الواقعة القبيحة ثمّ قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أشعر هذا بأنّ الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ومعلوم أنّ هذا فاسد كيف لا؟ وذكر العشق والسعي في القتل من أعظم منافيات الخلافة وباب العيوب. والعجب أنّ القائلين بهذه الروايات الفاسدة المجعولة ذكروا أنّ داود تمنّى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء الكبار من المنازل

العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب والأجر فأوحى اللّه إليه أنّهم إنّما وجدوا تلك الدرجات لأنّهم لمّا ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود الابتلاء فأوحى اللّه إليه: إنّك ستبتلى يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثمّ وقعت الواقعة وهي أنّ داود كان يصلّي في محرابه إذ تصوّر له إبليس بصورة طير أحسن ما يكون في الطيور فقطع داود صلاته وقام ليأخذ الطير فخرج الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد داود في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيّان فاطّلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل فلمّا نظر إليها هواها وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريا أمام التابوت فقدّم فظفر بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب داود إلى صاحبه ثانيا أن قدّم أوريا أمام التابوت فقدّمه فقتل أوريا وتزوّج داود بامرأته وكلّ هذا باطل.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام في حديث عصمة الأنبياء قال: لمّا حكي هذه الرواية الفاسدة للرضا عليه السلام ضرب الرضا يده على جبهته وقال عليه السلام: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون لقد نسبتم نبيّا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في أثر الطير ثمّ الفاحشة ثمّ بالقتل» فقيل: يا ابن رسول اللّه فما كان خطيئة داود فقال: «ويحك إنّ داود إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله عزّ وجلّ خلقا هو أعلم منه فبعث الله إليه الملكين تسوّرا المحراب فقالا له: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ فعجل داود على المدّعى عليه فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ ولم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك ولم يقبل على المدّعى عليه فيقول له. فكانت هذه خطيئته وليس كما ذهبتم إليه ألا تسمع قول الله تعالى يقول:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ فقيل: له يا ابن رسول اللهﷺ فما قصّته مع أوريا؟ قال الرضا: «إنّ المرأة في أيّام داود إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدا فأوّل من أباح الله أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود فتزوّج بامرأة أوريا لمّا انقضت عدّتها فذلك الّذي شقّ على الناس»[1].

ويؤيّد هذا الحديث الصحيح ما روي في «المجمع» عن عليّ‌عليه السلام[2] وقد نقل هذا الحديث الرازيّ في «المفاتيح» عن عليّ‌عليه السلام قال: «لا أوتي برجل يزعم أنّ داود تزوّج بامرأة اريا بهذه النسبة الفاسدة إلّا جلدته حدّين حدّا للنبوّة وحدّا للإسلام».

وروي عنه‌عليه السلام أيضا قال: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصّاصون جلدته مائة وستّين جلدة»[3].

وبالجملة فذكر هذه القصّة على ما فسّروه الحشويّة ومثل قصّة يوسف يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون مثل هذا الذكر محترما كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[4] ولا شكّ أنّ داود من كبار المؤمنين فيجب ردّ هذه الكلمات الواهية وثبت بهذه الوجوه المذكورة أنّ القصّة الّتي ذكروها فاسدة باطلة.

فإن قيل: إنّ كثيرا من المحدّثين والمفسّرين ذكروا هذه القصّة فكيف الحال فيها؟

فالجواب أنّه لمّا وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة سيّما إذا تعارض هذا الخبر مع ما روي من الحديثين الصحيحين عن عليّ‌عليه السلام وعن الرضا حسبما شرحناه

١ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام، ج٢، ص١٧٣، وانظر: بحارالانوار، ج١١، ص٧٤.

٢ـ تفسير الصافي، ج٦، ص٢٢٦، ومجمع البيان، ج٨، ص٣٥٤.

٣ـ الكشاف، ج٣، ص٣٦٦، وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٩٦.

٤ـ سورة النور: ١٩.

فحينئذ تلك الأقوال أوهن من نسج العنكبوت وأيضا فالأصل براءة الذمّة ثمّ إنّه لم يتّفق أهل التفسير على هذا القول، بل المحقّقون رووا هذا القول وحكموا عليه بالكذب والفساد فهذا تمام الكلام في هذه القصّة.

أمّا الاحتمال الثاني: وهو صدور الصغيرة عنه كما شرحناه في الوجوه الثلاثة والّذين نسبوا إليه الصغيرة قالوا: إنّ هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثمّ خطبها داود فآثره أهلها وإنّما نسبوا هذا الأمر إلى داود صغيرة أنّ خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وقيل: مال قلب داود إليها وسأل أوريا أن يطلقها ففعل أوريا فتزوّجها داود. وهذا القول مدفوع مردود لأنّه على فرض وقوعه وصحّته لم يكن صغيرة لأنّ ذلك كان جائزا في شريعته معتادا في امّته غير مخلّ بالمروّة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن يستنزل عن امرأته فيتزوّجها إذا أعجبته وقد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنّه عليه السلام لعظم منزلته وعلوّ شأنه نبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد امّته وأمّا ما قالوا: إنّ داود وقع بصره عليها فمال قلبه إليها فليس له في هذا ذنب البتّة أمّا وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأمّا حصول الميل عقيب النظر فليس أيضا ذنب لأنّ هذا الميل ليس في وسعه فلا يكون مكلّفاً به فمن أين حصلت الصغيرة؟

وأمّا الاحتمال الثالث: وهو ذكر هذه القصّة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء وهو أن تقول: روي أنّ جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبيّ اللّه داود وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بعبادة ربّه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم و﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ والتسوّر الإتيان من جهة السور أي: أتوا من طرف

المحراب إليه فلمّا دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما وحرساً يمنعونه منعم فخافوا فوضعوا كذبا فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وباقي القصّة سيأتي بعيد هذا في تفسير الآية.

وبالجملة ليس في القرآن ما يمكن أن يحتجّ به في إلحاق الذنب بداود إلّا ألفاظ أربعة في الجملة ظاهرا أحدها: قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وثانيها: قوله: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ ورابعها: قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

فنقول: إنّ هذه الألفاظ لا تدلّ على شيء منها على ما ذكروه من إثبات الذنب له عليه السلام وتقريره من وجوه:

الوجه الاول: أنّهم لمّا دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق وعلم داود ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلّا أنّه مال وعدل إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة اللّه وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنّها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ثمّ إنّه استغفر ربّه ممّا همّ به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك القصد والهمّ فغفر له ذلك القدر من الهمّ والعزم.

والوجه الثاني: أنّه وإن غلب على ظنّه أنّهم دخلوا عليه ليقتلوه إلّا أنّه ندم على ذلك الظنّ وقال: لمّا لم تقم أمارة ولا دلالة على أنّ الأمر كذلك فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظنّ الرديء فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ منه وقد يعبّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرّ على وجهه راكعا وتاب إلى اللّه من كلّ ذنب

فغفر اللّه له ذلك الظنّ.

الوجه الثالث: أنّ دخولهم عليه كان فتنة لداود إلّا أنّه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال سبحانه في حقّ محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ

لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ فداود استغفر لهم وأناب أي: رجع إلى الله في طلب مغفرة ذلك القاصد للقتل وقوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: غفرنا له ذلك الذنب من الداخل القاصد لأجل احترام داود ولتعظيمه كما قال بعض المفسّرين في قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: إنّ معناه أنّ الله يغفر لك ولأجلك ما تقدّم من ذنب امّتك.

الوجه الرابع: أنّه هب أنّ داود تاب عن ترك أولى صدر منه لكنّه ذلك ليست بسبب المرأة بل لو صحّ وقوعه كان سبب أنّه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني فإنّه لمّا قال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ حكم عليه بكونه ظالما بمجرّد دعوى الخصم بغير بيّنة فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة إلّا أنّ هذا من باب ترك الأفضل والأولى ولا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه وحمل الآية على الوجوه الّتي ذكرناها أولى ممّا ذكر هؤلاء الكذبة على أنّ روايات الأئمّة صلوات الله عليهم ناطقة لها مثل رواية عليّ والرضا عليهما السلام وسوق صدر الآية حيث يخاطب سبحانه نبيّه ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وهذا الذكر إنّما يحسن إذا كان داود قد صبر على أذاهم وتحمّل سفاهتهم وكان حسن الأعمال والسيرة وأمّا إذا حملناها على ما فسّروه وذكروه صار الكلام متناقضا فاسداً. رجعنا في تفسير الآية، قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ والمراد بالاستفهام الترغيب في الاستماع كما ذكرنا أي: هل أتاك خبرهم؟ ويعبّر بالخصم عن الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد لأنّ أصل المصدر يقال: رجل خصم ورجلان خصم ورجال خصم ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أي: حين صعدوا إليه المحراب وأتوه من أعلى سوره وهو مصلّاه وأتى بلفظ الجمع أراد الفريقين.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لدخولهم عليه في غير الوقت الّذي يحضرونه لأنهم دخلوا عليه بغير إذنه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي: قالوا لداود: نحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لتقضي بيننا وذلك قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تجر علينا في حكمك ولا تجاوز الحقّ فيه بالميل لأحدنا على صاحبه ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: دلّنا إلى وسط الطريق الّذي هو طريق الحقّ.

﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال الخليل: النعجة الأنثى من الضأن والعرب تكنّي عن النساء بالنعاج والشاة فحكى الله سبحانه ما قاله أحد الخصمين بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ صاحب كذا عدد من النعاج ولي واحدة وقال لي ضمّها إليّ وأعطنيها واعزل لي عنها وهذا معنى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في مخاطبة الكلام إن بطشني كان أشدّ منّي وإن دعا كان أكثر منّي.

﴿قَالَ﴾ داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي: إن كان الأمر على ما تدّعيه لقد ظلمك بسؤاله إيّاك بضمّ نعجتك ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾.

فإن قيل: كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرّد قول خصمة؟

قال محمّد بن إسحاق: لمّا فرغ الخصم الأوّل من كلامه نظر داود إلى الخصم الّذي لم يتكلّم وقال: لئن صدق لقد ظلمته والحاصل: أنّ هذا الكلام كان مشروطاً بشرط كونه صادقا في دعواه. وقال ابن الأنباريّ: لمّا ادّعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود ولم يذكر الله الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول: أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتّجرت فكسبت كما قال سبحانه: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾[1] أي: فضرب فانفلق. والقول

١ـ سورة الشعراء: ٦٣.

الثالث أنّ تقدير الكلام: إنّ الخصم الّذي هذا شأنه يكون قد ظلمك. ثمّ قال داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ والشركاء الّذين خلطوا أموالهم ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ويتجاوزون عن حدودهم ويتعدّون بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأنّ مخالطة هؤلاء لا تكون إلّا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانيّة فلا جرم لا توجب المنازعة وأمّا الّذين يكون مخالطتهم لأجل الدنيا لا بدّ وأن يكون مخالطتهم سببا لمزيد البغي والعدوان ويتبيّن من هذا الكلام والاستثناء أنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض فلو كان داود قد بغى وتعدّى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الّذين آمنوا ومعلوم أنّ ذلك باطل فثبت أنّ قول من يقول: المراد من واقعة النعجة قصّة داود قول باطل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ و«ما» زائدة مؤكّدة لمعنى القلّة وللإبهام وفيه معنى التعجّب من قلّتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قالوا: معناه: وعلم داود أنّما فتنّاه أي: امتحنّاه والسبب الّذي أوجب حمل لفظ الظنّ على العلم هاهنا أنّ داود لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثمّ صعدا إلى السماء قبل وجهه فعلم داود أنّ اللّه ابتلاه بذلك وإنّما جاز لفظ الظنّ على العلم لأنّ العلم الاستدلاليّ يشبه الظنّ مشابهة عظيمة والمشابهة علّة لجواز المجاز وهذا الكلام يتمّ إذا كان الخصمان ملكين وأمّا إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظنّ على العلم بل لمّا غلب على ظنّه حصول الابتلاء من اللّه.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدا ﴿وَأَنَابَ﴾ واستغفر ربّه وسأل الغفران ولا يلزم من الاستغفار كونه عليه السلام مرتكباً لذنب بل حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

روي أنّه عليه السلام بقي ساجداً أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلّا لصلاة

مكتوبة أو لما لا بدّ منه ولا يرقأ له دمعه حتّى نبت العشب إلى رأسه ولم يشرب ماء إلّا ثلثاه دمع، وجهد بنفسه راغبا إلى الله في العفو عنه حتّى كاد أن يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتّى وثب ابن له يقال له «ايشا» على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ والباطل من بني إسرائيل فلمّا غفر له حاربه فهزمه[1].

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: قربة وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: حسن مرجع في الجنّة.

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

ثمّ ذكر إتمام نعمه على داود بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صيّرناك تدبّر امور العباد من قبلنا أو جعلناك خلف من مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله وبيان شريعته ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصل أمورهم وضع كلّ شيء موضعه. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: لا تتبع ما يميل طبعك إليه إذا كان مخالفا للحقّ ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا اتّبعت الهوى عدل بك الهوى عن سبيل الحقّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويعدلون عن العمل بما أمرهم الله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

١ـ انظر: بحارالانوار، ج ١٤، ص٢٧، وتفسير أبي السعود، ج ٧، ص٢٢٣.

أي: يعذّبون عذابا شديدا بتركهم طاعة اللّه في الدنيا وبسبب إعراضهم عن ذكر يوم القيامة فيكون ﴿يَوْمَ﴾ متعلّقا ﴿بِمَا نَسُوا﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لا غرض فيه بل لغرض فيه الحكمة وهو أنواع المنافع الجليلة من هذه الخلقة العظيمة وخلقناها لأن يستفيد العقلاء الثواب العظيم واحتجّ الجبّائيّ بهذه الآية على أنّه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لأعمال العباد قال: لأنّها مشتملة على الكفر والفسق وكلّها أباطيل فلمّا بيّن اللّه أنّه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا دلّ هذا على أنّه لم يخلق أعمال العباد خلافا للمجبّرة فإنّ عندهم أنّه سبحانه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل.

ثمّ أكّد اللّه تعالى ذلك بأن قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كلّ من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بأنّ مذهب المجبّرة عين الكفر ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فالويل من النار حاصل للكفّار.

واعلم أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ دالّ على صحّة القول بالحشر والنشر والقيامة والثواب والعقاب لأنّه تعالى خلق الخلق في هذا العالم فإمّا أن يقال: إنّه خلقهم للإضرار أو للإنفاع أو لا للإنفاع ولا للإضرار والأوّل باطل لأنّ ذلك لا يليق بالرحيم الكريم. والثالث أيضا باطل لأنّ هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق إلّا أن يقال: إنّه خلقهم للإنفاع فنقول: وذلك الإنفاع إمّا أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة والأوّل باطل لأنّ منافع الدنيا قليلة ومضارّها كثيرة وتحمّل المضارّ الكثيرة للمنفعة القليلة المستهلكة لا يليق بالحكمة ولمّا بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة اخرى بعد هذه الحياة الدنيا وذلك هو القول بالحشر والقيامة والثواب والعقاب فهذا هو المراد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ

﴿ٱلنَّارِ﴾ لأنّ من شكّ أو أنكر الحشر كان شاكًا في حكمة اللّه.

ولمّا بيّن هذا البيان فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وتقرير الآية أنّا نرى في الدنيا من أطاع اللّه واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء ونرى الكفرة والفسّاق في الراحة والغبطة فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي وذلك لا يليق بحكمة الحكيم العدل الرحيم وإذا كان ذلك قادحا في الحكمة ثبت أنّ إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار الحكمة من اللّه أي: كيف يمكن أن نجعل الّذين صدّقوا اللّه ورسله وعملوا الصالحات والطاعات كالعاملين بالمعاصي في الأرض أو نجعل الّذين اتّقوا المعاصي للّه خوفا من عقابه كالفجّار الّذين تركوا الطاعات؟ إنّ هذا لا يكون أبدا.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي: هذا القرآن كتاب منزل إليك مبارك كثير نفعه وخيره ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ليتفكّر الناس فيه ويتّعظوا بمواعظه ومن هو من اولي العقول.

وقالت المعتزلة ـ ونعم ما قالت ـ: دلّت الآية على أنّه إنّما انزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية فيلزم أنّ أفعال اللّه معلّلة برعاية المصالح وأنّه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة عن الكلّ بخلاف قول من يقول: إنّه أراد الكفر من الكافر.

وهاهنا بيان آخر وهو: أنّ صدر السورة حكاية عن المستهزئين من الكفّار بأنّهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة بحيث قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فقال اللّه سبحانه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ ولا تعلّق بإثبات القيامة وقصّة داود حتّى ذكر سبحانه أنّ القرآن شريف كثير الخير وهذه فصول متباينة لا تعلّق للبعض منها بالبعض فكيف النظم؟ هذا

تمام البيان والسؤال.

والجواب أنّه من ابتلي بخصم جاهل جدليّ متعصّب ورآه المخاطب أنّه قد خاض في التعصّب والإصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنّه كلّما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشدّ فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة وأن يخوض في كلام آخر أجنبيّ عن المسألة الاولى بالكلّيّة ويطنب في الكلام الثاني بحيث ينسى ذلك المتعصّب تلك المسألة الاولى فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبيّ ونسي الكلام الأوّل فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبيّ مقدّمة مناسبة لذلك المطلوب الأوّل فإنّ ذلك المتعصّب يسلّم هذه المقدّمة فإذا سلّمها فحينئذ يتمسّك بها في إثبات المطلوب الأوّل فحينئذ يصير ذلك الخصم منقطعا مفحما.

إذا عرفت هذا فنقول: إنّ الكفّار لمّا بالغوا في إنكار الحشر إلى حيث بلغوا إلى درجة الاستهزاء بقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فقال اللّه سبحانه: يا محمّد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ واشرع في كلام أجنبيّ وهو قصّة داود، وذكر في آخر القصّة خلافة داود وجعله خليفة إلى أن قال له: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾

وكلّ من سمع هذا قال: نعم الحكم هذا حيث أمره بحكم الحقّ فاللّه الّذي يأمر خليفته بالحقّ فهو أولى بإتيان الحقّ لأنّه ربّ العالمين ولا يقضي بالباطل قطعا فحينئذ لا بدّ أن يستسلم الخصم أنّ اللّه هو الحقّ فيلزمه القبول بصحّة الحشر والقيامة لأنّ الظالم الغشوم الّذي يظلم في مدّة خمسين سنة أو أقلّ أو أكثر فقيرا صعلوكا وهو بمعزل عن ذلك الظالم والظالم يتعاقبه ويؤذيه وهو لا يقدر دفعه فلو لم يكن دار اخرى فيجازي ذلك الظالم ويثيب ذلك

المظلوم فيكون هذا الربّ الّذي يأمر خليفته بالعدل والتحرّز عن الباطل هو غير حاكم بالعدل وعامل بالباطل فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والقيامة ولا يمكنهم الخلاص عن قبوله.

ولمّا ذكر سبحانه هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن لا جرم وصف الله القرآن بالكمال والبركة فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ومن لم يتدبّر ولم يساعده التوفيق الإلهيّ لم يقف على مثل هذه الأسرار العجيبة في القرآن ويزعم عدم الترتيب في النظم.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ
ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ
تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى
وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ
ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

ثمّ عطف سبحانه على قصّة داود حديث سليمان فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: أعطيناه ولدا ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان إنّه رجّاع إلى الله في امور دينه ابتغاء مرضاته.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يجوز أن يتعلّق «إذ» بنعم العبد أي: نعم العبد هو إذ عرض عليه، ويجوز أن يتعلّق بالذكر والمخصوص بالمدح في قوله ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ محذوف فقيل: هو سليمان وقيل: هو داود والأوّل أولى لأنّه أقرب

المذكورين ولأنّه قال: بعده: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لأنّه وصفه بهذا المعنى قد تقدّم في الآية المتقدّمة حيث قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وفي الآية دلالة على أنّ من كان كثير الرجوع إلى اللّه في أكثر الأوقات يكون موصوفاً بمثل هذه الصفة ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ والعشيّ هو من حين العصر إلى آخر النهار.

عرض عليه الخيل لينظر إليها ويقف على كيفيّة أحوالها ووصف الخيل بوصفين أولهما ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ والصفون صفة دالّة على حسن الفرس وهي الّتي تقوم على ثلاثة قوائم وترفع إحدى يديها حتّى تكون على طرف الحاف والصفة الثانية ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ والجياد جمع «جواد» وهو الفرس الشديد الجري كما أنّ الجواد من الإنسان السريع البذل والمقصود في الآية وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها. قال مقاتل: إنّ سليمان ورث من أبيه ألف فرس وكان أبوه قد أصاب ذلك من العمالقة وقيل: إنّ سليمان غزا دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وقيل: كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة وكان سليمان قد صلّى الصلاة الاولى وقعد على كرسيّه والخيل تعرض عليه حتّى غابت الشمس.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ والمراد بالخير هنا الخيل فإنّ العرب يسمّي الخيل خيرا وفي الحديث: «**الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة**». وقيل: معناه حبّ المال والخير بمعنى المال الكثير وقيل: إنّ هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتّى فات وقتها وفي روايات أصحابنا، أنّه فاته أول الوقت وقال الجبّائي: لم يفته الفرض وإنّما فاته النفل الّذي كان يفعله في آخر النهار لاشتغاله بالخيل. وقيل: المعنى: إنّي أحببت حبّ الخيل على كتاب ربّي، كناية عن كتاب اللّه التوراة وكما أنّ ارتباط الخيل ممدوح

في القرآن كذلك في التوراة ممدوح فحينئذ معنى ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: عن كتاب ربّي وهو التوراة. و﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ فعل يتعدى بعن، أي: اثبت حبّ الخير عن كتاب ربّي. وحاصل المعنى أنّي أحببت حبّي لهذه الخيل عن ذكر ربّي يعني: إنّ هذه المحبّة الشديدة إنّما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ الضمير راجع إلى الشمس لأنه جرى ذكر ماله تعلّق بها وهو «العشي» كما أنّ ضمير ﴿رُدُّوهَا﴾ أيضا قالوا: راجع إلى الشمس ويحتمل أن يعود الضميران إلى «الصافنات» ويحتمل أن يكون الأوّل راجعا إلى «الشمس» والثاني «بالصافنات» ويحتمل أن يكون بالعكس فهذه وجوه أربعة فالأوّل أن يكون الضميران عائدين إلى الشمس كأنّه قال: حتّى توارت الشمس ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ وغابت.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: سأل الله أن يردّ الشمس عليه، فردّها عليه حتّى صلّى صلاة الفائتة فرضا كانت أو نفلا وعلى كون الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ على أن يكون المراد بالخيل أي: قال لأصحابه: ردّوا الخيل عليّ وعلى قول من يقول: إنّ الضمير في ﴿تَوَارَتۡ﴾ راجع إلى الخيل يعني توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنّها شغلت فكره إلى تلك الحال وهي غيبوبتها عن بصره وذلك أنّه أمر بإجراء الخيل فأجريت حتّى غابت الخيل عن بصره فقال لأصحابه: ردّوا الخيل عليّ.

قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قيل فيه وجوه: أحدها: أنّ المسح هنا القطع والمعنى أنّه أقبل لضرب سوقها وأعناقها لأنّها كانت سبب فوت صلاته وهذا القول بعيد عن الصواب جدّا وقيل: إنّه إنّما فعل ذلك لأنّها كانت أعزّ ماله فيتقرّب إلى الله بأن يذبحها ليصّدّق بلحومها وقيل: المعنى فجعل يمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده حبّا لها، عن ابن عبّاس.

قال ابن عبّاس: سألت عليّا عن هذه الآية فقال عليه السلام: «ما بلغك فيها يا ابن عبّاس» قلت: سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتّى فاتته الصلاة فقال ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني: الأفراس وهي كانت أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف فقتلها، فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها. فقال علي عليه السلام: «كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنّه أراد جهاد العدوّ حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس: ردّوها عليّ فردّت فصلّى العصر في وقتها وإنّ أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لأنّهم معصومون مطهّرون»، انتهى كلامه عليه السلام[1].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: اختبرناه وشدّدنا المحنة عليه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أي: وطرحنا على كرسيّه جسداً، والجسد الّذي لا روح فيه واختلف العلماء في فتنته وامتحانه والجسد الّذي القي على كرسيّه على أقوال:

منها: أنّ سليمان قال يوما في مجلسه: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائي تلد كلّ امرأة منهنّ غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل: إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ إلّا امرأة واحدة جاءت بشقّ ولد، رواه أبو هريرة عن النبيّ قال: ثمّ[2] قال صلى الله عليه وآله: «والّذي نفس محمّد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا فالجسد الّذي ألقي على كرسيّه كان هذا ثمّ أناب الله وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع إلى الله». وهذا لا يقتضي أنّه وقع منه معصية صغيرة ولا كبيرة لأنّه وإن لم يستثن ذكره لفظا فلا بدّ من أن يكون قد استثناه ضميراً أو اعتقاداً إذ لو كان قاطعا للقول بذلك لكان مطلقاً لما لا يؤمّن من أن يكون كذبا إلّا أنّه لمّا لم يذكر لفظة الاستثناء عوتب على

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٩، وبحارالانوار، ج١٤، ص١٠٣.

٢ـ بحارالانوار، ج١٤، ص١٠٧.

ذلك من حيث أنّه ترك ما هو مندوب إليه.

ومنها: ما روي أنّ الجنّ والشياطين لمّا ولد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من الجهد والبلاء فأشفق سليمان منهم عليه فاسترضعه في المزن وهو السحاب فلم يشعر إلّا وقد وضع على كرسيّه ميّتا تنبيها على أنّ الحذر لا ينفع عن القدر فإنّما عوتب على خوفه من الشياطين، عن الشعبيّ وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام[1].

ومنها: أنّه ولد له ولد ميّت جسد بلا روح فالقي على سريره.

ومنها: أنّ الجسد المذكور هو جسد سليمان لمرض امتحنه الله به فحينئذ تقدير الكلام: وألقينا منه على كرسيّه جسدا لشدّة المرض فيكون جسدا منصوباً على الحال والعرب تقول في الإنسان إذا كان ضعيفا: هو جسد بلا روح ولحم على ضم ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى حال الصحّة.

وهذه الوجوه المذكورة ذكرها أهل التحقيق من المفسّرين في كيفيّة افتتان سليمان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ولأهل الحشو في هذا الباب أقوال سخيفة على وجوه:

الأوّل: قالوا: إنّ سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده يحمله الريح ففتحها وقتل ملكها وأخذ بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبّها وكانت تبكي أبدا على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثّل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته الّتي كان يكسى بها حال حياته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشيّا مع جواريها يسجدون لها فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر سليمان الصورة وعاقب المرأة ثمّ خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبا إلى الله،

١ـ المصدر السابق نفسه، مجمع البيان، ج٨، ص٣٦٠.

وكانت لسلمان امّ ولد يقال لها أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وقال: يا أمينة هات خاتمي فتختّم به وجلس على كرسيّ سليمان فأتى عليه الطير والجنّ والإنس وتغيّرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته فكان يدور في البيوت يتكفّف وإذا قال: أنا سليمان أحثوا عليه التراب وسبّوه ثمّ أخذ يخدم السمّاكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين صباحاً، عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منّا في دمها ولا يغتسل من جنابة.

وقيل: بل نفذ حكمه في كلّ شيء إلّا فيهنّ ثمّ طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختّم به ووقع ساجدا للّه ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر.

والقول الثاني: للحشويّة أنّ تلك المرأة لمّا أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان فكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيه فقال له آصف: إنّك لمفتون بذنبك فتب إلى اللّه.

والقول الثالث: لهم قالوا إنّ سليمان قال لبعض الشياطين! كيف تفتنون الناس فقال الشيطان: أرني خاتمك أخبرك فلمّا أعطاه إيّاه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيّه ثمّ ذكرا الحكاية إلى آخرها.

والقول الرابع: لهم أنّه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيّام فسلب ملكه والقي على سريره شيطان عقوبة له.

وبالجملة إنّ أقوال الحشويّة بمعزل عن القبول وإنّ أهل التحقيق أنكروا هذه المقالات من وجوه:

الاول: أنّ الشيطان لو قدر على أن يتشبّه في الصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع فلعلّ هؤلاء الّذين رأوهم الناس في صورة موسى وعيسى عليهما السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبّهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال ومعلوم أنّ ذلك يبطل الدين بالكلّيّة.

الثاني: أنّ الشيطان لو قدر على أن يعامل نبيّ اللّه سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والصلحاء وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزّق تصانيفهم وأحاديثهم وفتاويهم ولمّا بطل ذلك في حقّ آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حقّ أكابر الأنبياء أولى.

الثالث: لو قلنا: إنّ سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه وإن لم يأذن فيه، البتّة، فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ اللّه سليمان بفعل لم يصدر عنه فرجعت المسألة إلى وجوه ذكرناها أولا في الآية حيث قال: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ولم يقل: إن شاء اللّه.

فلو قيل: إنّ ترك الاستثناء لا يوجب الذنب ولو لا تقدّم الذنب لما طلب المغفرة.

فالجواب بأنّ هذا الأمر لا ينفكّ عن ترك الأفضل إليه وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ولأنّ الأنبياء والأولياء دائما في مقام هضم النفس وإظهار الذلّة والخضوع كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«وإنّي لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرّة»**[1] فالمراد من هذا الاستغفار هذا المعنى.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ثمّ حكى

١ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٢٠٩، وبحارالانوار، ج١٧، ص٤٤.

سبحانه دعاء سليمان حين أناب إلى الله بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾
فلو قيل: إنّ هذا الدعاء من سليمان يقتضي الضنّة والمنافسة لأنّه عليه السلام لم يرض بأن يسأل الملك حتّى أضاف إلى ذلك أن يمنع غيره منه.

فالجواب أنّ الأنبياء لا يسألون إلّا ما يؤذن لهم في مسألته ولعلّ أن أعلمه أنّه إن سأل ملكا لا يكون لغيره كان أصلح له من غيره وأعلمه أنّه لا صلاح لغيره في ذلك، كما أنّ أحدنا لو صرّح في دعائه بهذا الشرط فيقول: اللّهم اجعلني أكثر أهل زماني مالا إذا علمت أنّ ذلك أصلح لي، لكان ذلك منه حسنا جائزا ولا ينسب في ذلك إلى شحّ وبخل أو المعنى لا يقدر أحد على معارضته. أو أنّه لمّا مرض ثمّ عاد إلى الصحّة عرف أنّ الدنيا صائرة إلى غيره فسأل ربّه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره وهو ملك الآخرة.

وثانيها: أنّه يجوز أن يكون التمس من الله آية لنبوّته يتبيّن بها من غيره وأراد بقوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ﴾ غيري ممّن أنا مبعوث إليه ولم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيّين كما يقال: أنا لا اطيع أحدا بعدك أي: لا أطيع أحدا سواك.

وثالثها: ما قال المرتضى: إنّه يجوز أن يكون سأل ملك الآخرة وثواب الجنّة ويكون معنى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لا يستحقّه بعد وصولي إليه أحد[1].

ورابعها: أنّه التمس معجزة يختصّ بها، كما أنّ موسى اختصّ بالعصا واليد واختصّ صالح بالناقة ومحمّد صلى الله عليه وآله بالمعراج والقرآن ويدلّ على هذا المعنى ما روي مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه صلّى صلاة فقال: «إنّ الشيطان عرض لي ليفسد عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فدفعته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتّى تصبحوا وتنظروا إليه أجمعين فذكرت قول سليمان: ربّ ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾

١ـ تنزيه الأنبياء، ص ١٤٠، وبحار الانوار، ج ١٤، ص ٨٨.

فردّه الله خائباً خاسئاً» أورده البخاريّ ومسلم في الصحيحين[١].

ثمّ بيّن سبحانه أنّه أجاب دعاءه بقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: ريحا ليّنة طيّبة مطيعة تجري إلى حيث يشاء سليمان ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد سليمان من النواحي ومنقادة له كيف أراد قيل: كان يغدو سليمان بإيليا ويقيل بقزوين ويبيت بكابل فإن قيل: كيف وصف سبحانه الريح بالعاصف في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وهنا وصفها ﴿رُخَآءً﴾؟ يجوز أنّ الله جعلها عاصفة تارة ورخاء اخرى بحسب ما أراد سليمان.

﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ أي: وسخّرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ في البرّ يبني له ما أراد من الأبنية الرفيعة، بنوا له عشر بلدان عظيمة مثل تدمر وصرواح ومرواج وبينون وسلخين وهبذه وهينده وفلثوم وغمدان وبيت المقدس ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ في البحر على اللآلي والجواهر فيستخرج له ما يشاء منها.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: وسخّرنا له آخرين من الشياطين مشدّدين في الأغلال والسلاسل من الحديد وكان عليه السلام يجمع بين اثنين وثلاثة منهم في سلسلة، لا يمتنعون عليه إذا أراد ذلك بهم عند التمرّد من حكمه. وقيل: إنّه كان يفعل ذلك بكفّارهم فإذا آمنوا وأطاعوا أطلقهم.

قوله: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا الّذي أعطيناك أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب أي: ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت، هذا قول ابن عبّاس. وقيل: المراد في أمر الشياطين خاصّة والمعنى أنّ هؤلاء الشياطين المسخّرين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم فخلّ عنه واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب.

ولمّا ذكر الله سبحانه ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بإنعامه

١ـ صحيح البخاري، ج٢، ص٦١، وصحيح المسلم، ج٢، ص٧٢.

عليه في الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وقد سبق تفسيره.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

ثمّ ذكر سبحانه قصّة أيّوب فقال:

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ شرّفه الله بأن أضافه إلى نفسه أي: اقتد يا محمّد به في الصبر على الشدائد وكان في زمن يعقوب بن إسحاق وتزوّج «ليا» بنت يعقوب وهذا هو القصّة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة وإنّ داود وسليمان كانا ممّن أفاض الله عليه أصناف النعماء وأيّوب كان ممّن خصّه الله تعالى بأنواع البلاء والمقصود من هذه الآيات الاعتبار: كأنّ الله يقول لمحمّدﷺ: اصبر على سفاهة قومك فإنّه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيّوب فتأمّل في أحوال هؤلاء لتعرف أنّ أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد والعاقل لا بدّ له من الصبر على المكاره والمعنى أنّ نداء أيّوب حكاية عن هذا القول بـ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ﴾ بضمّ النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمّها وهو التعب والمشقّة والعذاب والألم وكان قد حصل عنده نوعان من المكروه الغمّ الشديد بسبب زوال الخيرات وأيضا الألم الشديد في الجسم ولمّا حصل هذان النوعان لا جرم ذكر الله تعالى لفظين.

وللناس في هذا الموضع قولان: الأوّل: أنّ الآلام والأسقام الحاصلة في جسمه إنّما حصلت بفعل الشيطان، الثاني أنّها إنّما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف في الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة.

فأمّا القول الأول فتقريره ما روي أنّ الشيطان اللعين سأل ربّه فقال: هل في عبيدك من لو سلّطتني عليه يمتنع منّي فقال الله: نعم عبدي أيّوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانا ولا يلتفت إليه فقال إبليس: يا ربّ قد امتنع فسلّطني على ماله وكان يجيئه ويقول: له هلك من مالك كذا وكذا فيقول: الله أعطى والله أخذ ثمّ يحمد الله فقال إبليس: يا ربّ إنّ أيّوب لا يبالي بماله فسلّطني على ولده فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلّيّة فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه فقال: يا ربّ لا يبالي بما له وولده فسلّطني على جسده فأذن فيه فنفخ في جلد أيّوب وحدثت أسقام عظيمة وآلاء شديدة فيه من نفسه من نار السموم فمكث في ذلك البلاء سنين ثمّ وسوس الشيطان إلى أهل البلدة أن أخرجوه من بلدتكم فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد.

ثمّ جاء الشيطان إلى امرأته وقال: لو أنّ زوجك استعان بي لخلّصته من هذا البلاء قال ابن عبّاس: إنّ إبليس تصوّر لها بصورة طبيب وقال لها: أنا اداوي أيّوب على أنّه إذا برىء قال: أنت شفيتني لا أريد جزاء سواه قالت: نعم فذكرت المرأة ذلك لأيّوب فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنّها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فأجاب الله دعاءه وأوحى إليه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: ادفع برجلك الأرض ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وفي الكلام حذف وتقديره فركض رجله فنبعت بركضته عين ماء وقيل: نبعت عينان فاغتسل من أحدهما فبرأ وشرب من الاخرى فروي.

والمغتسل الموضع الّذي يغتسل منه فلمّا اغتسل منها أذهب الله عنه كلّ داء في ظاهره وباطنه وردّ عليه أهله وماله.

والقول الثاني: وهو أنّ الشيطان لا قدرة له البتّة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام لأنّا لو جوّزنا حصول الموت والحياة والصحّة والمرض من

الشيطان فلعلّ الواحد منّا إنّما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعلّ ما حصل عندنا من الخيرات فقد حصل بفعل الشيطان وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أنّ معطي الحياة والموت والصحّة والسقم هو اللّه الثاني أنّ الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ولم لا يخرب دورهم؟ الثالث أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1] فصرّح سبحانه بأنّه لا قدرة له في حقّ البشر إلّا على إلقاء الوسوسة والخواطر الفاسدة وذلك يدلّ على فساد قول من قال: إنّ الشيطان هو الّذي ألقاه في تلك الأمراض بنفخته.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال إنّ الفاعل لهذه الأفعال هو اللّه لكن على وفق التماس الشيطان؟

قلنا: فإذا كان لا بدّ من الاعتراف بأنّ خالق تلك الآلام والأسقام هو اللّه فأيّ فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحقّ أنّ المراد من قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة ويمكن أنّه لمّا طالت مدّة المرض وعلّته كانت شديدة الألم ثمّ تنفّر الناس عنه وعن مجاورته وأخرجوه من البلدة ومنعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم لأجل تحصيل القوت فلمّا قويت تلك الوساوس في قلبه تضرّع إلى اللّه وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ وشقّ على ذلك فتضرّع إلى اللّه.

روي عن النبي ﷺ: «أنّه بقي أيوب في البلاء ثمان عشرة سنة حتّى رفضه القريب والبعيد إلّا رجلين ثمّ قال أحدهما لصاحبه: لقد أذنب أيوب ذنبا ما أتى به أحد من العالمين ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لأيوب فقال: لا أدري ما تقولان غير أنّ الله يعلم أنّي كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى

١ـ سورة ابراهيم: ٢٢.

بيتي فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلّا في الحق»[1].

وقيل: إنّ امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيّوب فاتّفق أنّهم ما استخدموها وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ثمّ في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيّوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرّك على فراشه تعلّق بتلك الذؤابة فلمّا لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتدّ غمّه فعند ذلك قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾.

وقيل: إنّ أيّوب قال: في بعض الأيّام يا ربّ لقد علمت ما اجتمع عليّ أمران إلّا آثرت طاعتك ولمّا أعطيتني المال كنت للأرامل قيّما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودي من غمامة: يا أيّوب ممّن كان ذلك التوفيق فأخذ أيّوب كفّا من التراب ووضعه على رأسه وفيه وقال: يا ربّ منك ثمّ خاف من الخواطر فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ وقد ذكروا أقوالا اخرى واللّه العالم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ والمراد بقوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل فبعد أن أبرأه اللّه من الأسقام والمكاره بالاغتسال من العين أحيا اللّه له أهله الّذين كانوا ماتوا وهو في البليّة وأحيا له الّذين ماتوا وهو في البليّة ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: فعلنا ذلك به لرحمتنا إيّاه وليتذكّر ويعتبر به أولو الألباب ويعرفوا عاقبة الصبر قالوا: إنّه أطعم جميع أهل بلدته سبعة أيّام وأمرهم أن يحمدوا اللّه.

ولمّا كان أيّوب حلف قبل ذلك على امرأته لأمر أنكره من قولها حين وسوس لها الشيطان وكان قد حلف لئن عوفي ليضربنّها مائة جلدة فقيل له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملء الكفّ من الشماريخ وما أشبه ذلك وقلنا له:

١ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٢١٣، وتفسير ابن كثير، ج٣، ص١٩٨.

خذ بعدد ما حلفت به من الشماريخ ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ دفعة واحدة فإنّك إذا فعلت ذلك برّت يمينك و«الضغث» الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه قوله: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك نهاه عن الحنث أي: لا تورد الحنث في يمينك وإنّ البرّ يتحقّق في يمينك بهذا العمل ولقد شرّع الله هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها له ورضاه عنها قيل: وهذا الحكم باق.

وروى العيّاشيّ بإسناده أنّ عباد المكّي قال: قال لي سفيان الثوريّ إنّي أرى لك من أبي عبد الله عليه السلام منزلة فاسأله عن رجل زنى وهو مريض فإن أقيم عليه الحدّ خافوا أن يموت ما تقول فيه؟ قال: فسألته فقال لي: «هذه المسألة من تلقاء نفسك أو أمرك بها إنسان؟» فقلت: إنّ سفيان أمرني أن أسألك عنها فقال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتى برجل قد استسقى بطنه وبدت عروق فخذيه وقد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله فأتي بعرجون فيه مائة شمراخ فضربه به ضربة وضربها به ضربة وخلّى سبيلهما وذلك قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾».

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: صابرا على البلاء الّذي ابتليناه به ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاع منقطع إلى الله.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ
أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ
﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ
فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ
﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من حديث الأنبياء فقال: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا

محمّد لأمّتك وقومك ﴿عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ليقتدوا بهم في حميد أفعالهم وكريم خلالهم فيستحقّوا بذلك حسن الثناء في الدنيا وجزيل الثواب في العقبى كما استحقّ أولئك وإذا قرئ «عبدنا» فيكون التقدير عبدنا إبراهيم وخصّه بشرف إلى نفسه واذكر إسحاق ويعقوب وصفهم جميعا فقال: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أي: ذوي القوّة على العبادة ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الفقه والبصيرة في الدين وحاصل المعنى اولي العلم والعمل «فالأيدي» العمل و«الأبصار» العلم أو المراد من الأيدي النعم على عباد اللّه بالدعوة إلى الدين والمراد بالأبصار جمع البصر وهو العقل.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار وهو أنّهم يتذكّرونها بالتأهّب للآخرة ويزهدون في الدنيا كما هو عادة الأنبياء وقيل: المراد «بالدار» الدنيا فحينئذ المراد: أبقيت لهم الذكر الجميل في الدنيا. وقرئ «بِخالِصَةِ» منوّنة ومضافة فمن نوّن كان التقدير: جعلناهم خالصين بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ ومن قرأ مضافة فالمعنى: بما خلص من ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ يعني: أنّ ذكر الدار قد تكون للّه وقد تكون لغيره وهم ذكرهم خالصة للّه علما وعملا كصبر إبراهيم حين القي في النار في طاعة اللّه عملا ويقينه حيث ما راجع أمره إلى غير اللّه حتّى جبرئيل، علما وصبر إسماعيل للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره.

واعلم أنّ النفس الناطقة الإنسانيّة لها قوّتان عاملة وعالمة فالقوّة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة اللّه وقد صدر منهم وأمّا القوّة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة اللّه واليقين به فقوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ إشارة إلى هاتين الحالتين.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: هم المختارين من أبناء جنسهم واصطفوا للنبوّة وتحمّل أعباء الرسالة و﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيّر أو خير مخفّفة كأموات وميّت وميت وهو الّذي يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة واحتجّ العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء لأنّه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الإطلاق وهو يعمّ حصول الخيريّة في جميع الأفعال والصفات.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي: واذكر لأمّتك هؤلاء المذكورين أيضا ليقتدوا بهم ويسلكوا طريقتهم وهم قوم آخرون من الأنبياء تحمّلوا الشدائد في دين الله وفصّل ذكر إسماعيل عن ذكر أبيه وأخيه للإشعار بعراقته في الصبر واليسع هو ابن أخطوب بن العجور استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثمّ صار نبيّا واللام دخل على يسع كما دخل في قوله: «رأيت الوليد بن اليزيد مباركا»

وقرئ والليسع كأنّ أصله ليسع واللام أصليّة فيعل ثمّ دخل عليه حرف التعريف وعلى القراءتين علم أعجميّ وقيل: هو يوشع. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهو ابن عمّ يسع وقد فرّ إليه مائة من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفّلهم.

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخيريّة قد اختارهم الله للنبوّة.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: شرف وثناء حسن يذكرون به في الدنيا وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ بيان عنوان في العاجل لهم من الشأن وقسم آخر من الشأن وهو أعظم.

فشرع في تقرير الباب الثاني فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حسن مرجع يرجعون في الآخرة إلى ثواب الله وفسّر حسن المآب بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فهي في موضع جرّ على البدل أي: حسن المآب جنّات إقامة وخلود ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي: يجدون أبوابها مفتوحة ولا يحتاجون إلى الوقوف عند أبوابها حتّى تفتح.

وقيل: مفتاح تلك الجنان كلمة يقال لها: انفتحي انفلقي أو الملائكة يفتح لهم وتغلق لهم متى شاءوا.

واحتجّ القائلون بقدم الأرواح بقوله: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وبكلّ آية على لفظ الرجوع ويقولون: إنّ لفظ الرجوع إنّما يصدق لو كانت الأرواح موجودة قبل الأجساد وكانت في حضرة جلال الله ثمّ تعلّقت بالأبدان فعند انفصالها عن الأبدان يسمّى ذلك رجوعاً.

والجواب أنّ هذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان وكون الأرواح قبل الأجساد لا يدلّ على قدم الأرواح بل يدلّ على سبقة خلقة زمان الروح عن البدن.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: مستندين فيها إلى المساند جالسين جلسة الملوك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: يتحكّمون في ثمارها وشرابها فإذا قالوا لشيء منها: أقبل حصل عندهم و﴿ مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال قدّمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ فالمعنى يدعون في الجنّات متّكئين فيها بفاكهة كثيرة أي: بألوان الفاكهة وأقسامها وألوان الشراب وأقسامها.

ولمّا بيّن أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب عقّبه أمر المنكوح فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي: ولهم في هذه الجنان أزواج قصّرن طرفهنّ على أزواجهنّ راضيات بهم ومالهنّ في غيرهم رغبة ومعنى «قاصر» نقيض الماد، يقال: فلان قاصر طرفه عن فلان ومادتها عينه إلى فلان: قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطرف لو دبّ محول   من الذرّ فوق الإتب منها لأثّرا

﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: أقران على سنّ واحد ليس فيهنّ عجوز ولا هرمة وأمثال وأشباه أو متساويات في الحسن ومقدار الشباب لا يكون لواحدة على

صاحبتها فضل في ذلك وقيل: معنى أتراب على مقدار سنّ الأزواج كلّ واحدة منهنّ ترب زوجها لا تكون أكبر منه و«الترب» اللدة مأخوذ من اللعب بالتراب ولا يقال إلّا في الإناث.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي: ما ذكر من هذه النعم هو الّذي وعدتم به ويخاطب المتّقون فيقال لهم هذا القول ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ والجزاء.

ثمّ أخبر سبحانه عن دوام هذه النعم فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ وليس له انقطاع بل هو دائم باق ببقاء الله.

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

المعنى: لمّا بيّن أحوال أهل الجنّة وما أعدّ لهم من النعم عقّبه ببيان أحوال أهل النار وما لهم من أليم العذاب فقال:

﴿ هَٰذَا ﴾ أي: ما ذكرناه ثواب للمتّقين ثمّ ابتدأ فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الّذين طغوا على الله وكذّبوا رسله ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهو ضدّ مآب المتّقين وفسّر ذلك الشرّ فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها حال كونهم ملازمين النار ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمسكن والممهّد. ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أي: هذا الجزاء للطاغين فليذوقوه حميم وغسّاق أي: هذا الجزاء حميم وهو الحارّ الشديد الحرارة والغسّاق قيح شديد النتن والعفونة خلاف الصفاء وقيل: الغسّاق ضدّ الحميم البارد الزمهرير فالمعنى أنّهم يعذّبون تارة بحال شراب الّذي انتهت حرارته وببارد الّذي انتهت برودته فبرده يحرق كما تحرق النار

وقيل: الغسّاق عين في جهنّم يسيل إليها سمّ كلّ ذات حمة من الحيّات والعقارب وغيرها وقيل: الغسّاق هو ما يسيل من دموعهم يسقونه مع الحميم وقيل: الغسّاق هو عذاب لا يعلمه إلّا اللّه من شدّته وهو مأخوذ من الظلمة.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: وضروب آخر من شكل هذا العذاب وجنسه أزواج أي: أنواع وألوان متشابهة في الشدّة لا نوع واحد والضمير في قوله. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ يعود إلى الحميم ويرجع إلى العذاب الّذي يعذّبون به أهل جهنّم.

واختلفوا في المراد بالطاغين فأكثر المفسّرين حملوه على الكفّار. وقال الجبّائيّ: إنّه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفّارا أو لم يكونوا.

واحتجّ الأوّلون بوجوه: الأوّل: أنّ قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ يقتضي أن يكون مآبهم شرّا من مآب غيرهم وذلك لا يليق إلّا بالكفّار. الثاني: أنّه تعالى حكى عنهم أنّهم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وذلك لا يليق إلّا بالكافر لأنّ الفاسق لا يتّخذ المؤمن سخريّاً. الثالث: أنّه اسم ذمّ والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل في الطغيان هو الكافر.

وأمّا حجّة الجبّائيّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1] وهذا يدلّ على أنّ الوصف بالطغيان قد يحصل في حقّ صاحب الكبيرة ولأنّ كلّ من جاوز عن تكاليف اللّه وتعدّاها فقد طغى.

وبالجملة لمّا وصف اللّه مسكن الطاغين ومأكولهم حكى سبحانه أحوالهم مع الّذين كانوا أحبّاء لهم في الدنيا أوّلا ثمّ مع الّذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانيا أمّا الأوّل فهو قوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ وهاهنا حذف أي: يقال لهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ وهم مادّة الضلالة إذا دخلوا النار ثمّ يدخل

١ـ سورة العلق: ٦ـ٧.

الأتباع فيقول الخزنة للقادة: هذا فوج، أي: قطع من الناس وهم الأتباع ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ في النار دخلوها والاقتحام الدخول في الشيء بشدّة وصعوبة وقيل: يعنى بالأوّل إبليس وأولاده وبالفوج الثاني يعني بني آدم والمراد أنّ بني إبليس مقتحم مع بني آدم يدخلون النار وأنتم معهم. ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ فيكون على المعنى الأوّل أنّ القادة والرؤساء يقولون للأتباع: لا مرحباً بهؤلاء إنّهم يدخلون النار مثلنا ولازموها فيقول الأتباع لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ ولا نلتم رحبا وسعة ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وحملتمونا على الكفر الّذي أوجب لنا هذا العذاب ودعوتمونا إليه.

وأمّا على القول الثاني: إنّ أولاد إبليس يقولون لبني آدم: لا مرحبا بهؤلاء قد ضاقت أماكننا بهم ونحن بسببهم في الضيق والشدّة وقد ورد عن النبي ﷺ: «أنّ النار تضيق عليهم كضيق الزجّ بالرمح»[1] قالوا: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: يقول بنو آدم لبني إبليس: بل لا كرامة لكم أنتم شرعتموه لنا وزيّنتموه في نفوسنا حتّى استوجبنا هذا العذاب ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ الّذي استقررنا عليه وهو جهنّم.

﴿قَالُوا﴾ ثمّ قالت الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ معناه نظير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾[2] والمراد من ﴿الضِّعْفِ﴾ عذاب الضلال وعذاب الإضلال لقوله ﷺ: «من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

هذا شرح أحوال الكفّار مع الّذين كانوا أحباباً لهم في الدنيا وأمّا شرح أحوالهم مع الّذين كانوا أعداء لهم في الدنيا.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٧٤، وبحارالانوار، ج٨، ص٢٥٩.

٢ـ سورة الأعراف: ٣٨.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

فحكى سبحانه مقالات أهل النار بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ فيقولون هذا الكلام حين ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم مسلكا في الدنيا وهم يعنون فقراء المسلمين أو المؤمنين وسمّوهم من الأشرار بمعنى الأراذل الّذين لا خير ولا جدوى فيهم أو لأنّهم بزعمهم على خلاف الدين.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: لمّا لم يروهم في النار قالوا: اتّخذناهم هزؤا في الدنيا فأخطأنا أم عدلت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار قرئ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بهمزة الوصل وبهمزة القطع ووجه فتح الهمزة يكون على التقرير وعودلت «بأم» كما عودلت بأم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

فإن قيل: فما الجملة المعادلة بقوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ على قول من كسر الهمزة في قوله: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾؟ فحينئذ الجملة المعادلة لأم محذوفة والمعنى والتقدير: أ تراهم أم زاغت الأبصار مثل قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[1] لأنّ المعنى أخبروني عن الهدهد أ حاضر هو أم كان من الغائبين و﴿سِخْرِيًّا﴾ إذا كان بضمّ السين فمعناه التذليل والتسخير والعبوديّة

١ـ سورة النمل: ٢٠.

وأمّا إذا كان بكسر السين فمعناه الهزء.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ولمّا حكى سبحانه عنهم هذه المقالات في النار من التابعين والمتبوعين فقال سبحانه: إنّ ذلك الّذي حكيناه عنهم لحقّ ولا بدّ أن يتكلّموا به ثمّ بيّن أنّ هذه المقالات تخاصم أهل النار وسمّي تخاصما هذا الكلام لأنّ قول الرؤساء: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة ومجادلة بعضهم بعضاً.

ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أي: مخوّف ومحذّر من معاصي الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ تحقّ له العبادة ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لجميع خلقه المتعالي بسعة مقدوراته فلا يقدر أحد على الخلاص من عقوبته إذا أراد عقابه.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الإنس والجنّ وكلّ خلق ﴿الْعَزِيزُ﴾ الّذي لا يغلبه شيء ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب عباده مع قدرته على عقابهم وحاصل المعنى أنه أبلغ يا محمّد أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوّة والمعاد وأحوال ثواب من أقرّ بها كما بدأ في أوّل السورة بأدلّة التوحيد والنبوّة.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ قل يا محمّد: هو نبأ واختلف في مرجع الضمير. قيل: هو القرآن أي: حديث عظيم لأنّه كلام الله المعجز وقيل: هو أي: خبر القيامة خبر عظيم أنتم عن الاستعداد لها معرضون وغافلون وبها مكذّبون وقيل: معناه النبأ الّذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم وذلك لأنّ هذه المطالب الثلاثة مذكورة في أوّل السورة مثل قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ والقمي: يعني به أمير المؤمنين[1] وفي «البصائر» عن

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٤٣، وتفسير الاصفي، ج٢، ص١٠٧٥.

الباقر عليه السلام «هو والله أمير المؤمنين»[1]، وعن الصادق «النبأ الإمامة»[2]. وقيل: المعنى ما أنبأتكم من نبأ آدم والملائكة وقصص الأولين نبأ عظيم وأنتم لا تتفكّرون فيه فتعلموا صدقي في نبوّتي.

ويدلّ على هذا المعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وهذا الكلام مسوق لتحقيق أنّ النبأ عظيم لأنّه وارد من جهته تعالى بطريق الوحي من عند الله «والملأ الأعلى» هم الملائكة وقصّة آدم وإبليس وسجود الملائكة واستكبار إبليس والتقدير ما كان لي فيما سبق علم بحال الملأ الأعلى وإنّما علمته بالوحي الّذي انزل إليّ وإنّما عبّر بالمخاصمة بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

ولمّا جرى هذه المناظرة والسؤال والجواب فشابه المخاصمة والمشابهة علّة لجواز المجاز توسّعا فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما كان لي علم باختصام الملائكة لو لا أنّ الله أخبرني به لم يمكنني إخباركم ولكن ما يوحى إليّ أخبركم به وليس يوحى إليّ إلّا الإنذار البيّن الواضح فأنا مخوّف ومظهر للحقّ. ثمّ بيّن اختصام الملائكة من بيان أمر آدم بقوله:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن

١ـ بصائر الدرجات، ص٩٧، وتفسير الاصفي، ج٢، ص١٠٧٥.

٢ـ بصائر الدرجات، ص٩٧، ص٢٢٧، وتفسير صافي، ج ٤، ص٣٠٨.

نَارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

ثمّ ذكر الاختصام بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ و﴿إِذْ﴾ يتعلّق بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ وإن اعترض بينهما كلام ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم.

﴿فَإِذَا﴾ سوّيت خلق هذا البشر وتمّمت أعضاءه وصوّرته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: جعلت فيه الروح إلى نفسه تشريفاً له ومعنى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ أي: تولّيت فعله من غير سبب وواسطة كالولادة المؤدّية إلى ذلك فتبيّن أنّ الإنسان مركّب من جسد وهو الطين ومن نفس وهو الروح بدليل الآية وذهبت الحلوليّة الملاعنة إلى أنّ كلمة «من» تدلّ على التبعيض وهذا يوهم أنّ الروح جزء من أجزاء اللّه تعالى وهذا في غاية الفساد لأنّ كلّ ماله جزء فهو مركّب من أجزائه وممكن الوجود لذاته ومحدث ومخلوق وهو غير اللّه.

وأمّا كيفيّة نفخ الروح وحقيقته فهي أمر لا يعلمه إلّا اللّه وليس إلّا من عالم الأمر والقدرة وليس لنا طريق إلى معرفته لكنّه معلوم في الجملة أنها عبارة عن أجسام شفّافة نورانيّة علويّة العنصر قدسيّة الجوهر وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء وسريان النار في الفحم. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ أمر سبحانه الملائكة بعد التسوية ونفخ الروح بالتعظيم والسجود له وتوجّه أمر اللّه عليهم بالسجود له وأمّا أنّ المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض أو دخل فيه ملائكة السماوات جميعا كما هو المستفاد مثل جبرئيل وميكائيل والروح الأعظم المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[1] ففيه مباحث عميقة.

١ـ سورة النبأ: ٣٨.

واحتجّ بعض الجهلة بإثبات الأعضاء والجوارح للّه تعالى بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بأنّ ظاهر الآية يدلّ عليه فوجب المصير إليه وآيات كثيرة واردة على وفق هذه الآيات فوجب القطع به.

والجواب أنّ الدلائل القطعيّة على نفي كونه جسماً مركّباً كثيرة وقد سبق ذكرها في مواضع ولكن لا بأس بذكر نكتة منها حتّى تجري مجرى الإلزام لأنّ من قال: إنّ اللّه تعالى شأنه مركّب من الأعضاء والأجزاء لزمه تعالى من هذا القول إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح فضلا عن بطلان التركيب الّذي هو أصل أصيل لأنّه يلزمه إثبات وجه لا يوجد منه إلّا رقعة الوجه لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] ويلزمه تعالى أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[2] وأن يثبت له جنبا واحدا لقوله: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[3] وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[4] وبتقدير أن يكون له يدان فإنّه يجب أن يكون يده تعالى من الحجر الصلب لقوله ﷺ: **«الحجر الأسود يمين الله في الأرض»**[5] وأن يثبت له ساقاً واحدا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[6] فحينئذ الحاصل من مثل هذه الصورة أقبح الصور بحيث لو كان صاحب هذه الصورة عبدا لم يرغب أحد في شرائه فكيف يقول العاقل: إنّ أحسن الخالقين صورته كذلك فتبيّن أنّ المراد من قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ وأمثاله

١ـ سورة القصص: ٨٨.
٢ـ سورة الجاثية: ١٤.
٣ـ سورة الزمر: ٥٦.
٤ـ سورة يس: ٧١.
٥ـ بحار الانوار، ج٦٥، ص١٥، وتفسير الرازي، ج٢٢، ص٦.
٦ـ سورة القلم: ٤٢.

ليس معنى الظاهر بل القدرة بحكم العقل والنقل، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ مفسّر في سورة البقرة والغرض والنظم في الآية المنع من الحسد والكبر والكفّار إنّما نازعوا محمّدا في نبوّته بسبب الحسد والكبر فالله تعالى ذكر هذه القصّة ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الصفتين المذمومتين.

وهاهنا تحقيق وهو أنّ العلماء ذكروا في قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ وجوها: الأول: أنّ المراد من «اليد» القدرة والاستيلاء تقول العرب: مالي بهذا الأمر من يد أي: من قوّة وطاقة. الثاني: اليد عبارة عن النعمة. الثالث: أنّ لفظ اليد قد يراد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان: هذا ما كسبت يداك.

فلو قيل: حمل اليد على القدرة غير جائز لأنّه لو كانت اليد عبارة عن القدرة فكلّ شيء مخلوق بالقدرة حتّى إبليس ولم تكن هذه العلّة علّة لكون آدم مسجودا لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجود لآدم وكذلك لو كانت اليد عبارة عن النعمة فهو أيضا باطل لأنّ نعم الله كثيرة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1] والنعمة مخلوقة فحينئذ هذا الأمر لا يكون سبب الكمال بل سبب النقصان لكنّ المعنى أنّ السلطان العظيم إذا كان له عناية شديدة في عمل يجعل العناية الشديدة بمنزلة العمل باليد شخصا مجازا لاهتمام الأمر به وتوسّعا.

﴿قَالَ ... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ هذا سؤال توبيخ ومعنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ تولّيت خلقه من غير واسطة ومثل هذا المعنى قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: أرفعت نفسك فوق قدرك وتعظّمت عن امتثال أمري أم كنت من الّذين تعلو أقدارهم عن السجود فتعاليت عنه؟

١ـ سورة ابراهيم: ٣٤.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وفضّل النار على الطين ﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة أو من السماوات ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ طريد ومبعد عن رحمتي ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ إبليس عند ذلك: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أخّرني إلى يوم يحشرون وهو يوم القيامة ﴿ قَالَ ﴾ الله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي: من المؤخّرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ وإنّما طلب الإنظار إلى يوم القيامة لأجل أن يتخلّص من الموت لأنّه إذا انظر إلى يوم البعث ولم يمت قبل يوم البعث فعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضا فحينئذ يتخلّص من الموت فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: إلى يوم يعلمه الله ولم ينظره إلى يوم القيامة.

فـ﴿ قَالَ ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أي: اقسم بقدرتك الّتي تقهر بها جميع المخلوقين ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: أدعو بني آدم إلى الغيّ وأزيّن لهم القبا إلّا عبادك الّذين استخلصتهم وعصمتهم فلا سبيل لي عليهم وغرضه اللعين من هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنّه علم أنّه لا قدرة له عليهم ولو لم يستثن لظهر كذب وإذا كان الكذب أمر يستنكف منه إبليس مع هذه الشقاوة فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[1]؟

فالجواب أنّه لم يقل: إنّي لم أقصد إغواء عباد الله المخلصين وهو وإن كان يقصد الإغواء إلّا أنّه لا يغويهم حيث لا قدرة له عليهم.

فائدة قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ يدلّ على أنّ إبليس لا

١ـ سورة الحج: ٥٢.

يغوي عباده المخلصين فمن وصفه سبحانه في كتابه بأنّه من المخلصين معصوم مثل يوسف وأمثاله وذلك يدلّ على كذب الحشويّة والّذين ينسبون الأنبياء إلى القبائح وينسبون إليهم بعض المعاصي.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ﴾ قرأ عاصم وحمزة ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ بالنصب والباقون بالنصب فيهما أمّا الرفع فتقديره فالحقّ قسمي فيكون مبتدءا وحذف الخبر وأمّا النصب فيهما فتشبّها بالقسم فيكون الناصب له ما ينصب القسم من نحو الله لأفعلنّ فيكون التقدير الحقّ لأملأنّ والحقّ منصوب بأقول أي: أقول الحقّ ويجوز أن يكون ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ تأكيدا لقوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: جنسك وهم الشياطين المتمرّدة ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الشياطين التابعين لك أو المراد من قوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من بني آدم وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد من ضمير ﴿مِنكَ﴾ أو ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لكفّار مكّة: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الوحي والقرآن والدعوة إلى الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ومال تعطونه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لهذا القرآن من تلقاء نفسي أو المعنى ما أتيتكم رسولا من قبل نفسي ولم تكلّف هذا الإتيان بل أمرت به ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلّا موعظة لخلق وشرفا لمن آمن به.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ يا كفّار مكّة خبر صدق القرآن بعد الموت ومن عاش علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا حكمه.

فائدة علمية إذا خالف القياس النصّ يجب تركه، ومتابعته والعمل به

يوجب الخذلان كما أوجب على إبليس الطرد واللعن لأنّه قاس من مقدّمة كاذبة وخالف النصّ حيث من كان أصله خير من أصل غيره فهو خير منه لأنّي خلقت من نار وخلق آدم من طين فأنا أشرف منه ولا يجوز سجود الأشرف لغير الأشرف لأنّ الأجرام الفلكيّة أشرف من الأجرام العنصريّة والنار أقرب العنصر الفلك من الأرض والأرض أبعدها عنه النار مضيئة في العالم والأرض غبراء كثيفة واللطافة أشرف من الكثافة والنار خفيفة يشبه الروح والأرض ثقيلة يشبه الجسد والروح أفضل من الجسد والعنصر الثقيل عون على تركيب الأجساد والعنصر الخفيف أعون على توليد الأرواح وأشرف أعضاء الحيوان القلب والروح وهما على طبيعة النار وأخسّ أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس والأجسام الأرضيّة كلّما كانت أشدّ نورا ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلّما كانت أكثر وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخسّ مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانيّة كالجواهر وأشرف أجسام العالم الجسمانيّ هو الشمس أشبه بالنار في صورته وطبيعته وأثره وتوليد المركّبات لا تتمّ إلّا بالحرارة، النار القوّة الفاعلة والأرض القوّة المنفعلة والفعل أفضل من الانفعال.

ومن هذه المقامات الباطلة استكبر اللعين وآل أمره إلى ما آل لأنّ كلّ هذه الوجوه الّتي قاسها اللعين امور اعتباريّة لا متأصّلة والأمر المتأصّل والشرف الأصيل جعله اللّه أصيلا وأودع فيه حكمته.

وكلّ هذه الوجوه متناقضة بمثلها، مثاله أنّ الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبّة إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كلّما أسلمته إليها، وكذلك الأرض مستولية بالقدرة على النار فإنّها تطفئ النار، وأمّا النار فإنّها لا تؤثّر في الأرض الخالصة فالنار منفعله والأرض فاعلة وقول اللعين: إنّ من كان أصله

خيرا من أصله فهو خير منه هذه المقدّمة كان لأنّ أصل الرماد النار وأصل الفواكه والثمار هو الأرض ومعلوم بالضرورة أنّ الأشجار المثمرة خير من الرماد ثمّ هب أنّ اعتبار مثل هذه الجهات يوجب الفضيلة إلّا أنّه هب يمكن أن يصير معارضا بجهة اخرى أقوى وأولى مثل إنسان أصيل نسيب لكنّه عار عن الفضائل ورجل غير نسيب يكون كثير العلم والفضائل فيكون هو أفضل من ذلك الرجل النسيب العاري فثبت أنّ قياساته باطلة ولمّا عارض النصّ فأبطل.

فإن قيل: هب أنّ إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة فإنّ قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ أمر والأمر إذا لم يكن حقيقة في الوجوب ويكون حقيقة في الندب فمخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر وهب أنّ الأمر حقيقة في الوجوب لكنّه محتمل للندب ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر؟ وهب أنّه للوجوب فإذا كان الخطاب للملائكة وعلى كون إبليس لم يكن من الملائكة لا يدخل في الأمر فخصّص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس. ثمّ هب أنّه لم يسجد مع علمه بأنّه كان مأمورا به إلّا أنّ هذا المقدار يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه؟

فالجواب أنّه هب أنّ صيغة الأمر لا تدلّ على الوجوب لكن إذا ضمّت إليها من القرائن ما يدلّ على الوجوب وجب العمل به وقد حصلت تلك القرائن بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ فاللعين أتى بذلك القياس ليتوسّل به إلى القدح والجحود في أمر اللّه وتكليفه وذلك يوجب الكفر قطعا بل أعلى درجة الكفر لأنّ الجحود أقبح أقسام الكفر. واعلم أنّه ثبت في أصول الفقه أنّ ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلا بذلك الوصف وهاهنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكي عنه أنّه

خصّص النصّ بالقياس فهذا يدلّ على أنّ تخصيص النصّ بالقياس يوجب هذا الحكم، انتهى. تمّت السورة.

سورة الزمر

وتسمى سورة الغرف وهي مكيّة كلّها، وقيل: ثلاثة منها نزلن بالمدينة في وحشيّ قاتل حمزة ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرهنّ وقيل: فقط آية ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ﴾ مدنيّة.

قال ابيّ بن كعب عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاه وأعطاه ثواب الخائفين الّذين خافوا الله»[1].

وروى هارون بن خارجة عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة وأعزّه بلا مال ولا عشيرة حتّى يهابه من يراه وحرّم جسده على النار ويبنى له في الجنة ألف مدينة في كلّ مدينة ألف قصر في كلّ قصر مائة حوراء وله مع ذلك عينان تجريان وعينان نضّاختان وجنّتان مدهامّتان وحور مقصورات في الخيام»[2].

التفسير: ختم الله سورة (ص) بذكر القرآن وافتتح هذه السورة أيضا بالقرآن فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٨١، ونور الثقلين، ج٤، ص٤٧٥.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٨١، وثواب الاعمال، ص١١٢.

بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

تنزيلُ مبتدأ وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أو خبر مبتدء محذوف أي: هذا تنزيل الكتاب.

عظّم الله أمر القرآن وحثّ المكلّفين على القيام بما فيه واتّباع أوامره ونواهيه بأن قال: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ المتعالي عن المثل والشبه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في أفعاله والحكيم هو الّذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة وهذا إنّما يتمّ إذا كان عالما بجميع المعلومات وغنيّاً عن جميع الحاجات ووصف نفسه سبحانه تعالى بالعزّة تحذيرا من مخالفة كتابه.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ولم ننزّله بغير غرض وأنزلنا بالأمر الحقّ والدين الصحيح ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ وتوجّه عبادتك إلى الله وحده ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من شرك الأوثان والأصنام ومعنى الإخلاص أن يقصد العبد بنيّته وعمله إلى خالقه ولا يشوبه أمر آخر من الرياء والسمعة وغرض غير الله ولا يكون فيه وجه من وجوه الدنيا وهو الإسلام وشهادة أن لا إله إلّا الله على حسب الحقيقة وهو الاعتقاد الواجب في التوحيد والعدل والنبوّة والشرائع والإقرار بها على حسب الجزم واليقين والعمل بموجباتها والبراءة من كلّ دين سواها فليكن العبد مشتغلا بعبادة الله على سبيل الإخلاص لقوله تعالى:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ ومتبرئاً عن عبادة غيره وأن لا يجعل لله تعالى في العبادة شريكا وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لأنّ قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1].

وشرط المعتزلة في قبول العبادات التخلّص من الكبائر وقال غيرهم: إنّ المعصية لا تضرّ مع الإيمان كما أنّ الطاعة لا تنفع مع الكفر محتجّين بما روي عن النبيّ ﷺ قال الله: «لا إله إلّا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي».[2] وبالجملة فالمسألة خلافيّة بين الأشاعرة والمعتزلة والأكثرون على أنّ الآية متناولة لكلّ ما كلّف الله به من الأوامر والنواهي وهذا هو الأولى ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[3] نعم إنّ شهادة أن لا إله إلّا الله بمنزلة العمود ولكن أين الطنب وعمود الخيمة لا ينتفع به إلّا مع الطنب النهاية أنّ صاحب هذه الكلمة لا يخلّد ومع ذلك هذه الكلمة مشروطة بشرائط وليست مطلقة قال القاضي عبد الجبّار: وأمّا ما يروى عن النبيّ ﷺ أنّه قال لمعاذ وأبي الدرداء: وإن زنى وإن سرق، على رغم أبي الدرداء فإن صحّ فإنّه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة لأنّه مخالف للقرآن قال القاضي: ولأنّه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجورا عن الزنى والسرقة لأنّه يعلم أنّه لا يضرّه مع التمسّك بالشهادتين فكان ذلك إغراء بالقبيح وهو ينافي الحكمة انتهى كلام القاضي.

فلو قيل: إنّ القول بأنّه يزول ضرر العصيان بالتوبة يوجب أيضا الإغراء بالقبيح.

١ـ سورة البينة: ٥.

٢ـ بحارالانوار، ج٤٩، ص١٢٧، وتفسير الرازي، ج٢٦، ص ٢٤٠.

٣ـ سورة المائدة: ٢٧.

فنقول: ليس الأمر كذلك لأنّا نعتقد ونقول: إنّ فعل القبيح مضرّ لكنّه يزول ذلك الضرر بفعل التوبة في الجملة إذا كانت مقبولة ومأتيّة بشرائطها وآدابها ولمّا كان الإتيان بالشرائط والآداب غير محقّق والقبول أيضا غير يقينيّ فحينئذ لا يكون إغراء بالقبيح بخلاف قول من يقول: إنّ فعل القبيح لا يضرّ مع الشهادتين ثمّ من أين تحقّق قول القاضي من أنّ القول به مخالف للقرآن لأنّه لمّا لم يحصل القطع بحصول العفو في حقّ كلّ أحد من الناس والعاصين كان الخوف حاصلا للعاصي في القبول فلا يكون حينئذ الإغراء حاصلا.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: زعموا أنّ لهم من دون الله مالكا عليكم والتقدير: أنّهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ فمرادهم أنّ عبادتهم لها تقرّبهم إلى الله ومعنى ﴿زُلْفَىٰ﴾ أي: قربى والتقدير ليقرّبونا قربى وحاصل الكلام أنّ العبّاد للأوثان والأصنام والملائكة والشمس والقمر كانوا يقولون: إنّ الإله الأعظم أجلّ من أن يعبده البشر، والبشر اللائق به أن يشتغل بعبادة الأكابر من هؤلاء مثل الكواكب ومثل الأرواح السماويّة ثمّ إنّها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ويتشفّعون لنا.

فاقتصر سبحانه في الجواب لهم بإسماع التهديد والتخويف فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقد تكون الدعوى من الخصم واهية بحيث لا تكون قابلة للاستدلال في ردّه فحينئذ يكون الجواب التهديد والتخويف فإنّ وصفهم لهذه الأوثان والأصنام بأنّها آلهة ومستحقّة للعبادة مع علمهم بأنّها جمادات خسيسة وهم نحتوها وكانت قبل ساعة أو سنة شجرة في بستان أو صخرة في جبل وهم بأيديهم عملوها والعلم الضروريّ حاكم بأنّ وصف هذه الأشياء بالإلهيّة والإدراك والقوّة والتصرّف كذب محض فلا يكون جوابهم إلّا التهديد وقد كفروا بنعمة الله فإنّ العبادة نهاية التعظيم وهي

لا تليق إلّا لمن صدر منه هذه النعمة فعبادة غير المنعم كفران نعمة المنعم. ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى طريق الجنّة أو لا يحكم بهدايته إلى الحقّ ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ على الله وعلى رسوله ﴿كَفَّارٌ﴾ بما أنعم الله عليه وليس مراده سبحانه من الهداية الهداية إلى الإيمان لقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[1].

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ على ما يقوله هؤلاء من أنّ الملائكة بنات الله أو ما يقوله النصارى: من أنّ المسيح ابن الله أو اليهود من أنّ عزيرا ابن الله.

﴿لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: لاختار من خلقه ما يشاء أي: ما كان يتّخذ الولد باختيارهم حتّى يضيفوا من شاءوا بل يختصّ ما يشاء لذلك ومثله قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾[2] وهو منزّه عن مثل هذه النسبة لأنّه الواحد الحقيقيّ والولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه وإذا كان كذلك فيكون ذا أجزاء فهو مركّب محتاج إلى جزئه ولا يتصوّر الفرديّة المطلقة مع حصول الأجزاء وشرط الولديّة أن يكون الولد مماثلا في تمام الماهيّة للوالد فيكون حقيقة الولد حقيقة الوالد حقيقة نوعيّة محمولة على شخصين أو ثلاث وهذا الشخص لا يكون واجب الوجود لذاته ولا يكون واحدا القهّار لخلقه بالموت والفناء.

ثمّ نبّه على قدرته بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فلمّا طعن في الآية السابقة جعل الأصنام المخلوقة وعباده المربوبة كونها آلهة ذكر في هذه الآية الصفات الّتي باعتبارها يحصل الإلهيّة والخالقيّة فاستدلّ بقدرته على خلق السماوات والأرض واختلاف حال الأفلاك والليل والنهار وهو المراد بقوله:

١ـ سورة السجدة: ١٧.

٢ـ سورة الأنبياء: ١٧.

﴿يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ﴾ وبيانه أنّ النور والظلمة آيتان عجيبتان وفي كلّ يوم يغلب هذا تارة ذاك وذاك تارة هذا ففي هذا الاختلاف دلالة على أنّ كلّ واحد منهما مغلوب ومقهور بغالب وقاهر ومسخّر لهما يكونان تحت حكمه وتدبيره ومعنى ﴿يُكَوِّرُ﴾ يدخل فما يزيد في أحدهما ينقص من الآخر والشمس سلطان النهار بل الحاكم والقمر سلطان اللّيل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقد قدّر حركتهما بطرز مخصوص إلى زمان مخصوص مسمّى وهو يوم القيامة وهما مسخّرتان بأمره. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ وهو سبحانه مع هذه القدرة العظيمة غفّار عظيم الرحمة والفضل والإحسان والمراد من بيان الآية أنّ من هو قادر على خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وتكوير الليل والنهار ليس بمحتاج في اتّخاذ الولد منزّه عنه.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ
ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن
تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ
مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ
لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ
﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ
رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

المعنى: فبعد أن استدلّ على كمال قدرته بخلق الآفاق استدلّ في هذه الآية بخلق الأنفس فاستدلّ بخلق آدم وذريّته فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم لأنّ جميع البشر من نفسه ونسله ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حوّاء من فضل طينه وقيل: من ضلع من أضلاعه و﴿ثُمَّ﴾ يقتضي التراخي والمهلة. وبعد ذلك استدلّ سبحانه بخلق الحيوان فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ذكرا وأنثى ومعنى «الإنزال» هنا الإحداث والإنشاء كقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾[1] ولم ينزل اللباس ولكن أنزل الماء الّذي هو سبب القطن والصوف واللباس يتكوّن منهما فكذلك هنا الأنعام تكوّن بالنبات والنبات يكوّن بالماء أو المعنى أنّه أنزلها بعد أن خلقها في الجنّة وفي الخبر: الشاة والإبل من دوابّ الجنّة وقيل: إنّ المعنى جعل الأنعام نزلا ورزقا لكم.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يعني: نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاما ثمّ يكسي العظام لحما ثمّ ينشئ خلقا آخر وقيل: معناه خلقا في بطون الأمّهات بعد الخلق في ظهر آدمعليه السلام ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن.

ثمّ خاطب سبحانه خلقه فقال ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: ذلكم الشيء الّذي عرفتم وبيّنّا من عجائب الأفعال وصنعه هو الله ربّكم وخالقكم يملك التصرّف فيكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ لا لغيره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنّه لو ثبت إله آخر فذلك الإله إمّا أن يكون له الملك أو لا يكون فإن كان له الملك فحينئذ يكون

١ـ سورة الأعراف: ٢٦.

كلّ واحد منهما قادرا مالكا ويجري بينهما التمانع وإن لم يكن للثاني شيء من الملك والقدرة فيكون ناقصا ولا يصلح للإلهيّة.

ثمّ زيّف سبحانه طريقة المشركين بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن طريق الحقّ مثل قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ قالت المعتزلة ردّا على الأشاعرة بأنّ هذا الكلام تعجّب وإنكار عن هذا الانصراف ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو اللّه لم يبق لهذا الإنكار والتعجّب معنى لأنّه تعالى لو كان هو الصارف كما قالت الجبريّة فممّ يستنكر وممّن يتعجّب فثبت أنّ الصارف غيره.

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ أي: تجحدوا نعمة اللّه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن عبادتكم وشكركم فلا يضرّه كفركم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ وفي الآية أوضح دلالة على أنّه سبحانه لا يريد الكفر الواقع من العباد لأنّه لو أراده لوجب متى وقع أن يكون راضياً لعبده وكيف يتصوّر أن يرضى بشيء ولم يرده ألا ترى أنّه يستحيل أن نريد من غيرنا أمرا ويقع على وفق ما نريد فلا نكون راضين به أو أن نرضى شيئا ولم نرده. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وإن تشكر اللّه تعالى على نعمه وتعترفوا بها يرضه لكم والهاء في ﴿يَرْضَهُ﴾ راجعة إلى المصدر الّذي دلّ عليه الفعل وهو قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ والتقدير: يرضى الشكر لكم مثل قولهم: من كذب كان شرا له أي: كان الكذب شرا له.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة ثقل اخرى أي: لا يؤاخذ بالذنب إلّا من يرتكبه ويفعله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيكم بحسب عملكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ولا يخفى عليه سرّ وعلانية.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ من شدّة ومرض وقحط وكلّ أنواع الضرّ ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعا إليه وحده لا يرجو سواه ولا يرجع في طلب

دفعه إلّا إلى الله ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي: أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي الضرّ الّذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل نيل هذه النعمة أي: نسي الدعاء الّذي كان يتضرّع به إلى الله أو نسي الله الّذي كان يتضرّع إليه ورجع إلى المعاصي وعبادة الأصنام.

والمراد بالإنسان قيل: أقوام معيّنون مثل عتبة بن ربيعة وغيره وقيل: المراد به الكافر الّذي تقدّم ذكره وفي قوله: ﴿خَوَّلَهُ﴾ قيل: من قوله: «فلان خائل مال» إذا كان متعهّدا له حسن القيام به ومنه ما روي عنه ﷺ أنّه كان يتخوّل أصحابه بالموعظة[1] وقيل: من مادّة خال يخول إذا اختال وافتخر وفي هذا المعنى قالت العرب: «إنّ الغنيّ طويل الذيل ميّاس» وكلمة «ما» في الآية بمعنى «من» كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ﴾[2] وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[3] وقوله: ﴿فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَآءِ﴾[4].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: يرجع هذا الإنسان الكافر إلى عبادة الأصنام وسمّي له أمثالا في توجيه عبادته إلى الأصنام ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه أو يضلّ هو عن الدين واللام لام العاقبة وذلك أنّهم لم يفعلوا ما فعلوه وغرضهم ذلك لكن آل أمرهم إليه وهو المراد من معنى لام العاقبة ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وهذا أمر معناه الخبر كقوله: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، والمعنى أنّ مدّة تمتّعه في الدنيا قليلة زائلة ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ﴾ تعذّب فيها دائما.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ أي: هذا الّذي ذكرناه خير أم من هو دائم على

١ـ تفسير الرازي، ج٢٦، ص٢٤٩، والكشاف، ج٣، شرح ص٣٨٩.

٢ـ سورة الليل: ٣.

٣ـ سورة الجحد: ٣ و ٥.

٤ـ سورة النساء: ٣.

الطاعة وقيام الليل وقيل: صلاة الليل عن الصادق عليه السلام[1] ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ساعات الليل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ومنه قوله صلى الله عليه وآله [أفضل الصلاة صلاة القنوت] وهو القيام فيها و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أوقاته أوّله ووسطه وآخره وعبادة الليل أفضل لأنّها أستر على العيون فيكون أبعد عن الرياء لأنّ الظلمة تمنع الأبصار ونوم الخلق يمنع من السماع فالقلب يكون أفرغ، وترك النوم أشقّ فيكون الثواب أكثر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[2]. ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ أي: يسجد تارة ويقوم أخرى في الصلاة وفي الكلام حذف والتقدير: أمّن هو قانت كغيره ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يتردّد بين الخوف والرجاء أي: ليسا سواء وهو قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بمثل هذه الأمور ويتّعظ ذوي العقول من المؤمنين عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن الّذين يعلمون وعدوّنا الّذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب»[3].

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «قل» يا محمّد: يا عبادي الّذين صدقوا بتوحيد الله ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عقاب ﴿رَبَّكُمۡ﴾ باجتناب معاصيه.

وتمّ الكلام ثمّ قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: فعلوا الأفعال الحسنة والأعمال الصالحة وأحسنوا إلى غيرهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ أي: ثناء حسن وذكر جميل ومدح وشكر وصحّة وسلامة وقيل: معناه الّذين أحسنوا في هذه الدنيا لهم مثوبة حسنة في الآخرة وهو الخلود في الجنّة والتنكير في «الحسنة» للتعظيم. ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ والمراد أنّه لا عذر للمقصّرين في

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٨٨، وانظر: التفسير الصافي، ج ٤، ص٣١٦.

٢ـ سورة المزمل: ٦.

٣ـ المناقب، ج٣، ص٣٤٣، والمحاسن، ج ١، ص١٦٩، وبحار الانوار، ج ٦٥، ص٢٩.

الإحسان حتّى أنهم إن اعتلّوا بأوطانهم وبلادهم بأنّهم لا يتمكّنون فيها من التوفرة على الإحسان قيل لهم: إنّ أرض اللّه واسعة فتحولّوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات والاقتداء بالأنبياء في مهاجرتهم لتزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وقيل: المراد حث لهم على الهجرة من مكّة وقيل: المعنى: وأرض الجنّة واسعة فاطلبوها بالأعمال الصالحة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم على طاعتهم وصبرهم على شدائد الدنيا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لكثرته لا يمكن عدّه وحسابه روى العيّاشيّ بالإسناد عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «قال رسول الله: إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل الصبر في الشدائد ميزان ولم ينشر لهم ديوان بل يصب الرحمة عليهم صبّا حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾».

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ
﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ
دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ
النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ
اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ
﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

النظم قيل: إنّ كفّار قريش قالوا للنبيّ ﷺ: ما حملك على هذا الدين الّذي أتيتنا به ألا تنظر إلى ملّة قومك وسادات عشيرتك يعبدون اللّات والعزّى فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ والعبادة الخالصة ما لا يشوبه الشرك بل شيء من المعاصي ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضا ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيكون لي فضل السبق[1] وثوابه والتكليف نوعان أحدهما: الاحتراز عمّا لا ينبغي والثاني: الأمر بتحصيل ما ينبغي ويعبّر بالتخلية والتحلية فالعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وتكرار ﴿أُمِرْتُ﴾ مشعر لهذا المعنى فليس بتكرار فالأمر مشترك معناه في الوجوب والندب والإباحة ومشترك اللفظيّ كالعين. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب يوم القيامة ولمّا بيّن سبحانه وأمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال الجوارحيّة وكان الأمر يحتمل الوجوب والندب بيّن أنّ الأمر للوجوب بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ إلخ، وأنّه ﷺ مع جلالة قدره وشرف نبوّته إذا وجب أن يكون خائفا من المعاصي فغيره أولى بذلك وإذا كان تارك الأمر عاصيا وخائفا فتحقّق حينئذ أنّ الأمر للوجوب.

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ** فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا تأكيد في حصر العبادة له سبحانه يعني: الله أعبد ولا أعبد سواه وأنتم معاشر الكفّار فاعبدوا ما شئتم من دون الله من الأصنام وهذا الأمر على وجه التهديد لهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ في الحقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ وإنّما خسروا أنفسهم لأنّهم قذفوها بين أطباق الجحيم وخسروا

١ـ يريد ان الأولية ليست من جهة الإسلام والايمان فأن أول من آمن بهذه الشريعة وعرفها واسلم لله لا بد وان يكون الرسول نفسه ولا يمكن غير ذلك حتى يؤمر النبي بذلك بل المراد أن يكون الرسول في طاعة الله وإجراء أحكامه الواجبة والمندوبة سابقاً على المؤمنين والمسلمين.

أهليهم الّذين كان أعدّ لهم الجنّة قال ابن عبّاس: إنّ لكلّ رجل منزلا وأهلا وخدما في الجنّة فإن أطاع اعطي ذلك وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين ولا خسارة أعظم منها وهو المراد بقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ البيّن الظاهر.

ثمّ شرح حال الخاسرين ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: سرادقات وأطباق من النار ودخانها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: فرش ومهاد وإنّما أطلق اسم «الظلل» على قطع النار على سبيل التوسّع والتهكّم في مقابلة ما لأهل الجنّة من الظلل والمعنى أنّ النار تحيط بجوانبهم وإنّما سمّي ما تحتهم من النار ﴿ظُلَلٌ﴾ مع أنّ الظلل لا يكون إلّا من جانب الفوق لأنّها ظلل لمن تحتهم إذ النار دركات وهم بين أطباقها. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: ذلك الّذي تقدّم ذكره من العذاب يخوّف الله به عباده ليحترز عباده المؤمنين منه لأنّهم إذا سمعوا أنّ هذا حال الكفّار تنبّهوا وأخلصوا في التوحيد والعبادة والأولى أنّ التخويف للكافر والمؤمن ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ من الشرك والمعاصي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ولمّا ذكر سبحانه وعيد المشركين ذكر في هذه الآية وعد من اجتنب عبادة الأوثان وتجنّب عن المعاصي وإنّما أنّث للجماعة ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ فاقلعوا عمّا كانوا عليه من الشرك ورجعوا إلى الله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ ما يظهر به من السرور والبشارة جزاء على ذلك وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «أنتم هم ومن أطاع جبّارا فقد عبده»(١).

ثمّ قال سبحانه مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمّد ﴿عِبَادِ﴾ اجتزئ بالكسرة عن الياء ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: كلّ من سمع أمرا من أوامر الله فاختار الأكمل منها والأحسن في كلّ باب فهو في زمرة

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص ٣٩١، وبحارالانوار، ج٢٣، ص٣٦١.

السعداء وتميّز الأحسن من القول لا يحصل إلّا بالسماع عن المخاطب بالوحي فهو المرشد إلى الطريق الصواب والأصوب فالّذي يتّبع أحسن ما يؤمر به ويعمل به فهو أهل البشارة بالسعادة الأبديّة عن أبي الدرداء قال: لو لا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوما: الظّماء بالهواجر والسجود في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقى طيب التمر.

وقيل: المراد يستمعون القرآن وغيره فيتّبعون القرآن والطاعة الّتي هي أحسن ثوابا وأكثر فضلا مثل أنّ القصاص حقّ والعفو أفضل فيأخذون بالعفو وهكذا وهذا الحكم يجري في كلّ أبواب الخير من الأمور الاعتقاديّة والعمليّة مثل العلم بأنّ إله العالم يكون حيّا عالما بالجزئيّات يصدر منه جزئيّات الخير وكلّيّاته أحسن من أن يعتقد الإنسان أنّ اللّه ليس عالم بالجزئيّات هذا في الاعتقاد ومثل أن يصلّي الإنسان صلاة جامعة لشرائط الصحّة والكمال أحسن من أن يصلّي صلاة جامعة لشرائط الصحّة دون الكمال وهذا في مثل العمل وهذا المراد بقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ وحصول الهداية أمر حادث ولا بدّ له من فاعل فالفاعل هو اللّه وقابل وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

وإنّ الجسم لمّا كان قابلا للحركة والسكون على السويّة وهي في هذا الأمر متماثلة فامتنع أن تصير ذات الجسم سببا لرجحان أحد الطرفين على الآخر فالاختلاف في الأجسام مع أنّها متماثلة دليل وجود الفاعل فكذلك القول في الهداية من الفاعل والقابل عرض وإنّما قلنا: إنّ الفاعل لهذه الهداية هو اللّه لأنّ جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحقّ والباطل وإذا كان الشيء قابلا للضدّين كانت نسبة ذلك القابل إليهما بالسويّة فامتنع كون ذلك القابل سببا لرجحان أحد الطرفين كما بيّنّا في الجسم لأنّ

ذات النفس كما أنّها قابلة لهذه الإرادة فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة فيمتنع كون جوهر النفس محقّقا لتلك الإرادة فثبت أنّ حصول الهداية لا بدّ لها من فاعل وقابل والفاعل هو اللّه لكنّها مشروط وجودها بقبول القابل فتأمّل هذه الدقة والآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا يقولون في الجاهليّة: لا إله إلّا اللّه وهم زيد ابن عمرو بن نفيل وأبي ذرّ الغفاريّ وسلمان الفارسيّ وفي حصول هذه البشارة من السلطان الأعظم شرط عظيم وهو الإعراض عن غير اللّه والطواغيت والإقبال على طاعة اللّه بالكلّيّة والمقصود من الآية هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات وحاصل الكلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الإعراض عن عبوديّة ما سواه وفي قوله: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ الرجوع والإقبال بالكلّيّة إلى اللّه.

وفي السفر الخامس من التوراة أنّ اللّه تعالى قال لموسى: يا موسى أجب إلهك بكلّ قلبك ولا شكّ أنه ما دام يبقى في القلب الالتفات إلى غير اللّه فهو ما أجاب إليه بكلّ قلبه وإنّما تحصل الإجابة بكلّ القلب إذا أعرض القلب عن كلّ ما سواه من باب الطاعات فمن أطاع الشيطان فقد أعرض عن اللّه وعبد الشيطان في ذلك الأمر.

وهاهنا تحقيق للرازيّ وهو أنّه كيف يعرض الإنسان بالكلّيّة وهو أنّه يشاهد بالحسّ الأسباب المفضية إلى المسبّبات في هذا العالم فليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقتضي عليها بالعدم بل المراد أن يعرف الإنسان أنّ واجب الوجود لذاته واحد وأنّ كلّ ما سواه فإنّه ممكن الوجود لذاته وكلّ ما كان ممكنا لذاته فإنّه لا يوجد إلّا بتكوين الواجب وإيجاده وإنّما جعل سبحانه تكوين الأشياء على قسمين منها: ما يكون بغير واسطة وهي عالم السماوات والروحانيّات والعلويّات ومنها: ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم السفليّ.

فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أنّ الكلّ لله وبالله ومن الله ولا مؤثّر إلّا هو وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثّر الحقيقيّ فإنّه إن كان قد وضع الأسباب بحيث يتأدّى إلى هذا المطلوب فهذا الشيء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يقضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكلّ ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلّا إلى الموجد الأوّل وقد اتّفق أنّي كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ المال فعارضني وقال: لا يجوز الاعتماد على الجدّ والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره فقلت: هذه كلمة حقّ سمعتها ولكن ما عرفت معناها وذلك لأنّه لا شبهة أنّ الكلّ من الله من الأسباب والمسبّبات إلّا أنّه سبحانه دبّر الأشياء على قسمين: منها: ما جعل حدوثه وحصوله معلّقا بأسباب معلومة ومنها: ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب أمّا القسم الأوّل: فهو حوادث هذا العالم الأسفل وأمّا القسم الثاني: فهو حوادث العالم الأعلى فمن طلب حوادث هذا العالم الأسفل وأراد حصولها لا من الأسباب الّتي عيّنها الله تعالى لها كان هذا الشخص مخالفا لتدبير الله ومنازعا له لأنّه تعالى حكم بحدوث هذه الأمور بناء على أسباب معيّنة معلومة لحصول المسبّبات وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب وهذا خطاء فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض والإقبال عن غير الله وإلى الله فتأمّل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بيّن سبحانه هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وآله لحرصه على إسلام المشركين. والمعنى أنّك لا تقدر على إدخال الإسلام في قلوبهم فلا عليك إذا لم يؤمنوا فإنّما أتوا ذلك من قبل نفوسهم وهذا كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ

ءَاثَٰرِهِمْ﴾[1] الآية، وقيل: تقدير الآية أ فمن وجب عليه وعيد الله بالعقاب أ فأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ عن الضمير العائد إلى المبتدء وأتى بالاستفهام مرّتين توكيدا للتنبيه على المعنى قال ابن الأنباري: الوقف في الآية على قوله: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ والتقدير: كمن وجبت له الجنّة.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أي: قصور في الجنّة﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فإنّ في الجنّة منازل رفيعة بعضها فوق بعض وذلك أنّ النظر من الغرف إلى الخضر والمياه والجنان أشهى وألذّ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت الغرف ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعدا ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ميعاده الّذي وعده.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾

لمّا قدّم سبحانه الدعوة إلى التوحيد في الآيات السابقة عقّبه بذكر

١ـ سورة الكهف: ٦.

الدلائل فقال يخاطب النبي ﷺ ـ وإن كان المراد جميع المكلّفين ـ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطرا ﴿فَسَلَكَهُ﴾ أي: فأدخل ذلك الماء ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ مثل العيون والقنى والآبار وينبوع الموضع الّذي يفور منه الماء.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء من الأرض ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وصنوفه من البرّ والشعير والأرز وغيرها من أخضر وأصفر وأبيض وأحمر واللون يطلق على الأصناف وعلى الألوان. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفّ لأنّه إذا تمّ جفافه جاز أن ينفصل عن منابته وإن لم تتفرّق أجزاؤه فتلك الأجزاء كأنّها هاجت لأن تتفرّق ثمّ يصير حطاماً يابساً. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأنّ من شاهد هذه الأحوال في النبات من الشعير علم أنّ أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنّه وإن طال عمره فلا بدّ له من الانتهاء إلى أن يصير منحطم الأجزاء فلمّا شاهد هذه الحالة فحينئذ تعظم نفرته من الدنيا وطيّباتها ورغب في الآخرة وعلم قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] وينابيع منصوب بنزع الخافض والتقدير: في ينابيع.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: وسّع قلبه لقبول الإسلام والثبات عليه وشرح الصدر يحصل بقوّة الأدلّة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ودلالة وهدى ﴿مِّن﴾ توفيق ﴿رَّبِّهِ﴾ وشبّه سبحانه الدليل بالنور لأنّ بها يعرف الحقّ كما بالنور يعرف امور الدنيا. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ وفي الآية حذف وتقديره: كمن هو قاسي القلب ويدلّ على المحذوف ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وهم الّذين ألفوا الكفر وتصلّبت قلوبهم حتّى لا ينفع فيها وعظ ولا ترغيب ولا ترهيب ولا يهتدي لقراءة القرآن وذكر الله.

١ـ سورة الأعراف: ٢٩.

واعلم أنّ جواهر النفوس تختلف ماهيّاتها بالملكات الطيّبة والخبيثة فتصير بعضها خيرة نورانيّة شريفة مائلة إلى الإلهيّات عظيمة الرغبة في الاتّصال بالروحانيّات وبعضها نذلة خسيسة مائلة إلى الجسمانيّات وهذا التفاوت حاصل في جواهر النفوس البشريّة وهو المراد من شرح الصدور وقسوة القلوب ولهذا السبب تختلف جواهر النفوس فإنّ الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسوّد وجه القصّار ويبيضّ ثوبه وكذلك حرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى إنسانا واحدا يذكر كلاما واحدا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه آخر وما ذاك إلّا من اختلاف جواهر النفوس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وفي عدول عن الحقّ واضح.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ القرآن سمّاه الله «حديثاً» والكلام سمّي حديثاً كما يسمّى كلام النبيّ حديثاً والقرآن كلام الله ولأنّه حديث النزول بعد الكتب المنزلة علي الأنبياء وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته وإعجازه واشتماله على جميع ما يحتاج المكلّف من الأحكام.

وفي الآية دلالة على حدوث الكلام لأنّ الحديث لا بدّ وأن يكون حادثا بل لفظ الحديث أقوى دلالة في الحدوث من الحادث والشيء إمّا أن يكون حادثا أو قديماً وليس مرتبة بين الحادث والقديم.

﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ يشبه بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً وقيل: معناه إنّه يشبه كتب الله المتقدّمة وإن كان أكمل وأنفع وأعمّ ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ سمّي القرآن بذلك لأنّه يثنّى فيه بعض القصص والأخبار والأحكام والمواعظ بضروب البيان ويثنّى في التلاوة فلا يملّ لحسن مسموعه ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ﴾ أي: تأخذهم قشعريرة خوفا ممّا في

القرآن من الوعيد ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة وتطمئنّ وتسكن قلوبهم إلى ذكر الله الجنّة والثواب وإنّ العارفين إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا.

وتركيب لفظ القشعريرة من حروف التقشّع وهو الأديم اليابس مضموما إليها حرف رابع وهو «الراء» ليكون رباعيًا ودالًا على زيادة المعنى يقال: اقشعرّ جلده من الخوف ووقف شعره وذلك مثل في شدّة الخوف روي عن عبّاس بن عبد المطّلب أنّ النبي ﷺ قال: إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها. وهذا المعنى نعت لأولياء الله نعتهم الله بأن تقشعرّ جلودهم وتطمئنّ قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنّما ذلك في أهل البدع من المتصوّفة وهو من الشيطان(۱).

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني القرآن ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بما نصب فيه من الأدلّة وهم الّذين آتاهم القرآن من امّة محمّد وتدبّروا في دلائل القرآن واهتدوا بها. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن طريق الجنّة بسبب عدم قبول القرآن والهداية ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: لا يقدر على هدايته أحد عن الجبّائيّ وقيل: معناه من ضلّ عن رحمة الله وعن الله فلا هادي له يقال: أضللت بعيري إذا ضلّ وقيل: معناه من يضلله عن زيادة الهدى والألطاف بكفره لا لطف له لأنّ الكافر لا لطف له.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أ فحال من يتّقي بوجهه ويدفع عذاب النار بوجهه يوم القيامة كحال من يأتي آمنا لا تمسّه النار

۱ـ مجمع البيان، ج۸، ص۳۹۵، وبحارالانوار، ج۶۷، ص۳۴۶.

وإنّما قال سبحانه: ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ لأنه يلقى منكوسا في النار فأول عضو منه مسّته النار وجهه والوجه أعزّ أعضاء الإنسان ويقال لمقدّم القوم: يا وجه العرب ثمّ إذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنّه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له وإذا كان القادر على الاتّقاء يجعل كلّ ما سوى الوجه وقاية للوجه فجعل الاتّقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتّقاء ونظيره. قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم　　　بهنّ فلول من قراع الكتائب

أي: لا عيب في الجماعة إلّا هذا وهو عين المدح في الشجاعة فالمعنى أنّه لا عيب فيهم بوجه من الوجوه في الشجاعة فكذا هنا أي: لا يقدرون على الاتّقاء من العذاب بوجه من الوجوه إلّا بالوجه وهو ليس باتّقاء فليس لهم قدرة على الاتّقاء البتّة وإنّ الّذي يلقى في النار يداه مغلولة إلى عنقه ولا يتهيّأ له أن يتّقي النار إلّا بوجهه كيف حاله؟

وبالجملة فجواب الاستفهام محذوف وتقديره: أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ والقائل خزنة النار لهم أي: جزاء ما كسبتموه من المعاصي.

ثمّ أخبر سبحانه عن أمثال هؤلاء الكفّار من الأمم الماضية فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بآيات الله وجحدوا رسله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ عاجلا ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ وهم آمنون غافلون.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ
﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا

فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

ثمّ أخبر سبحانه عمّا فعله بالأمم المكذّبة بأن قال:

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي: الذلّ والهوان في الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وأشدّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ كيفيّة عذاب الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ سمّي ذكر الأمم السابقة «مثلا» كما قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1] أو المعنى: إنّا وصفنا وبيّنّا للناس في هذا القرآن كلّما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم لكي يتذكروا ويتدبّروا فيعتبروا.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ ليس فيه اعوجاج وميل عن الحقّ بل هو مستقيم موصل إلى الحقّ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي وفي الآية دلالة على أنّ أفعال الله وأحكامه معلّلة وأنّه سبحانه يريد من الكلّ الإيمان والمعرفة لأنّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ مشعر بالتعليل وكذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وأيضا الآية تدلّ على حدوث الكلام لأنّ الشيء الّذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثا لأنّ القديم هو الّذي يكون موجودا في الأزل وهذا يمتنع أن يقال: إنّه إنّما أتى به لغرض كذا وكذا وبالجملة وصف القرآن بالاستقامة وعدم الاعوجاج وكونه ﴿قُرْءَانًا﴾ والمراد كونه متلوّا في المحاريب والأمكنة الشريفة وكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ قد أعجز الفصحاء عن معارضته.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ ضرب سبحانه هذا المثل للمشركين الّذين يعبدون الآلهة فحالهم كحال رجل قد اشترك في ذلك

۱ـ سورة ابراهيم: ٤٥.

الرجل موالي كثيرة وهم شركاء في ملكيّته وبينهم تنازع واختلاف كثير فهذا المولى يأمره بأمر وذلك ينهاه وينازع كلّ واحد منهم ويدّعي أنّه عبده وهم يتجاذبونه في حوائجهم والرجل متحيّر في أمره فكلّما أرضى واحدا غضب الباقون وإذا احتاج العبد إلى أمر أو رزق ومعاش فكلّ واحد منهم يردّه إلى الآخر فهو يتحيّر في أمره لا يعرف أيّهم أولى بأن يطلب رضاه وأيّهم يقيم بحوائجه فهو لهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم. والشكس سوء الخلق.

فهذا مثل المشرك الّذي يجعل للّه شريكا في العبادة ويجعل له الآلهة وأمّا المؤمن الموحّد الّذي يعبد اللّه ويطيعه وحده كمثل رجل له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهمّاته فأيّ هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا؟ وهو المراد بقوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ وقرئ «سالما» أي: ذو سلامة وتسليم وهذا مثل ضرب اللّه في قبح الشرك وتحسين التوحيد.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي هذان الرجلان صفة في حسن العاقبة أي: لا يستويان ثمّ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فتكون العبوديّة والحمد والمستحقّ للثناء هو اللّه لأنّه المالك الواحد والمنعم الحقيقيّ ويمكن أن يكون «الخبر» بمعنى الأمر أي: احمدوا اللّه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة نعمة التوحيد.

فإن قيل: هذا المثل لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنّها جمادات وليس بينها مشاكسة ومنازعة؟

فالجواب أن عبدة الأصنام منهم من يقول: هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم في الحقيقة يعبدون الكواكب السبعة ثمّ إنّ القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألا ترى أنّهم يقولون: زحل هو النحس

الأعظم والمشتري هو السعد الأعظم ومنهم من يقول: هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكيّة والقائلون بهذا القول زعموا أنّ كلّ نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلّق بروح من الأرواح السماويّة وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح مخالفات في المقتضي ومشاكسة فالمثل حينئذ مطابق ومنهم من يقول: هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من الصلحاء والعلماء الّذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصيروا أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند اللّه والقائلون بهذا القول: يزعم كلّ طائفة منهم أنّ المحقّ هو ذلك الرجل الّذي هو على دينه وأنّ من سواه مبطل فعلى هذا أيضا ينطبق المثال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ بيّن سبحانه المقام الّذي يتبيّن فيه المبطل من المحقّ فقال: إنّ عاقبتك وعاقبة هؤلاء الموت فحينئذ يتبيّن الحقّ من الباطل.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ والاختصام يكون بين المهتدين والضالّين والصادقين والكاذبين وقيل: يقع الاختصام بين أهل القبلة قال أبو سعيد الخدريّ في هذه الآية: كنّا نقول: ربّنا واحد ونبيّنا واحد وديننا واحد فما هذا الاختصام؟ فلمّا وقعت صفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

ثمّ بيّن نوعاً آخر من قبائح أفعال المشركين وهو أنّهم أثبتوا للّه ولدا وشركاء أو أنّهم مصرّون على تكذيب الصادقين والأنبياء ويكذّبون محمّداً ﷺ

فأردف تكذيبهم بالوعيد فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ ومقراً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ والمراد من قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ التوحيد والقرآن ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قيل: الّذي جاء بالصدق محمّد ﷺ جاء بالقرآن ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هم المؤمنون ﴿أُولَئِكَ﴾ المصدّقون ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل: الّذي جاء جبرئيل والصدق القرآن وتلقّاه بالقبول وصدّق به محمّد ﷺ وقيل: الّذي جاء بالصدق الجائي محمّد ﷺ والصدق كلمة لا إله إلّا الله وصدّق به هو أيضا بنفسه الشريفة وبلّغه إلى الخلق وقالوا: لو كان المصدّق به غيره لقال: والّذي صدّق به وهذا القول أقوى الأقوال والقائل ابن عبّاس وقيل: الّذي جاء بالصدق الأنبياء وصدّق به أتباعهم فحينئذ يكون كلمة ﴿وَالَّذِي﴾ للجنس كما قال الشاعر:

وإنّ الّذي جاءت بفلج دماؤهم ... هم القوم كلّ القوم يا امّ خالد

الا ترى أنّه عاد إليه ضمير الجمع وقيل: الّذي جاء بالصدق محمّد ﷺ وصدّق به، المراد عليّ بن أبي طالب ﷺ عن مجاهد ورواه الضحّاك عن ابن عبّاس وهو المرويّ عن أئمّة الهدى من آل محمّد ﷺ خزنة العلم[(١)].

ثمّ منّ سبحانه بما أعدّ لهم من النعيم فقال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ من النعيم في الجنّة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينالون من جهة لطفه ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ذلك إشارة إلى ما ذكر وهو حصول ما يشاءونه على إحسانهم الّذي فعلوه في الدنيا وأعمالهم الصالحة.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ قيل: اللام في ليكفّر من صلة قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ والمعنى أنّه لمّا وعدهم بما يشاءون جزاء على

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٩٩، والطرائف، ص٧٩، وتفسير الصافي، ج ٤، ص٣٢٣.

إحسانهم أثبت وحقّق الثواب لهم بتكفير السيّئات الّتي عملوها قبل الإيمان وقيل: اللام للقسم والتقدير: والله ليكفّرنّ فحذف النون وكسرت اللام أي: يسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي الّتي فعلوها قبل ذلك مقابل إيمانهم وتصديقهم ورجوعهم إلى الله.

واعلم أنّ مقاتلا شيخ المرجئة وهم الّذين يقولون: لا يضرّ شيء من المعاصي مع الإيمان كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر واحتجّ بهذه الآية فقال: إنّها تدلّ على أنّ من صدّق الأنبياء فإنّه تعالى يكفّر عنهم أسوء الّذي عملوا وقال: إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ التكفير حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر الّتي يأتي بها بعد الإيمان والآية تنصيص على أنّه يكفّر عنهم بعد إيمانهم أسوء ما يأتون به وذلك هو الكبائر.

أقول: وفي هذا الكلام نظر لأنّه من أين ثبت أنّ المراد من التقوى في الآية التقوى من الشرك كما فسّره بل لعلّ المراد التقوى من المعاصي فتأمّل.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ وثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالفرائض والنوافل فهي أحسن أعمالهم لأنّ عمل المباح وإن كان حسنا لكن لا يستحقّ به ثواب ولا مدح.

وهاهنا بحث وهو قوله للمصدّقين ووعدهم بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا الوعد يدخل فيه كلّ ما يرغب المكلّف فيه ولا شكّ أنّ الكمال أمر محبوب لذاته مرغوب فيه وأهل الجنّة لا شكّ أنّهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية الّتي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنّها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشيء من حيث إنّه كمال وخير يوجب الميل إليه والرغبة فإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم

فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية أيضا وليس يحصل لهم يقينا فلو لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصّة ووحشة القلب.

فالجواب أنّ أحوال أهل الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا فيزيل الله عن قلوبهم الحقد والحسد والطمع.

وفي الآية بحث آخر وهو أنّ بعض الناس تمسّكوا بهذه الآية في أنّ المؤمنين يرون الله تعالى عن ذلك وذلك لقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنّ الرؤية أعظم وجوه التجلّي وزوال الحجاب ولا شكّ أنّها حالة مطلوبة والنصّ يقتضي حصول كلّما شاؤوه وأرادوه.

وأجيب بأنّ هذا الكلام باطل لأنّه لمّا علم أنّ هذا المطلوب ممتنع الوجود بعينه فإنّه يترك طلبه لا لأجل عدم المقتضي للطلب بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعا في نفسه فإذا تحقّق الامتناع لهم وجودا سلب المقتضي فهم لا يشاءون أمرا ممتنعا لأنّهم عقلاء وللمسألة جواب آخر وهو أنّ الله سبحانه يزيل عن قلوبهم هذه الإشاءة فلا يشتهون هذا الأمر حتّى تقول: إنّ ترك الطلب للمانع والطلب والميل باق انتهى.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ

﴿يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾

كانت الكفّار تخيفه‌ﷺ بالأوثان الّتي كانوا يعبدونها وكانوا يقولون له‌ﷺ: إنّ آلهتنا تمسّك بالضرّ فحسم اللّه سبحانه مادّة قولهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ﴾ من يعبده وإنّ آلهتهم لا تضرّ ولا تنفع. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني آلهتهم ولعلّ المراد بالعبد في الآية العباد والمقصود الأنبياء كما كفى نوحا من الغرق وإبراهيم من النار ويونس ردّ فهو كافيك كما كفى الأنبياء قبلك، قيل: إنّه لمّا قصد خالد لكسر الأصنام بأمر النبيﷺ قالوا: إيّاك يا خالد فبأسها شديد فضرب خالد أنفها بالفأس وهشمها وقال: كفرانك يا عزّى لا سبحانك، سبحان من أهانك، إنّي رأيت اللّه قد أهانك.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضلّه اللّه عن طريق الجنّة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها وقيل: معناه إنّ من وصفه بأنّه ضالّ إذا ضلّ هو عن طريق الحقّ فليس له من إله هادياً وقيل: معناه من يحرمه اللّه عن زيادات الهدى فليس له زائد.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: من يهديه اللّه وحذف «الهاء» كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾[1] لدلالة الكلام إلى طريق الجنّة فلا أحد يضلّه عنها وقيل: من بلغ استحقاق زيادات الهدى بصالح أعماله فقد ارتفع عن تأثير الوسواس ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ أي: غالب قادر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ من أعدائه الجاحدين لنعمه.

ثمّ قال: لنبيّه‌ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمّد ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأوجدها بعد أن كانت معدومة ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الفاعل لذلك لأنّهم مع عبادتهم الأوثان يقرّون بذلك.

۱ـ سورة الفرقان: ٤١.

فردّ عليهم سبحانه بأنّ ما يعبدونه من دون الله لا يملك كشف السوء والضرّ عنهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: بمرض أو فقر أو بلاء أو شدة ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ والمراد أنّ هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشرّ.

وحاصل المعنى أخبروني أنّ آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضرّ هل يكشفن عنّي ذلك الضرّ أو أراد الله أن ينفعني بخير هل تمنعني آلهتكم بحيث لا يصلني ذلك الخير فإذا كان الأمر كذلك وآلهتكم عاجزة عن إيصال النفع ودفع الأذى فكيف يستحقّون العبادة فحينئذ الاعتماد على عبادة الله.

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ويفوّضون إليه أمورهم ووجه عبادتهم. ولمّا أورد الله عليهم هذه الحجّة الواضحة قال على سبيل التهديد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على جهدكم وقدرتكم في إهلاكي وتضعيف أمري ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ قدر جهدي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم أي: فسوف تعلمون أنّ العذاب والهوان والخزي يصيبني أو يصيبكم.

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى
ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ

﴿كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

النظم: ولمّا كان يعظم على النبيّ صلى الله عليه وآله إصرارهم على الكفر سلّى قلبه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقرونا بالحقّ فمن اهتدى به فنفعه يعود إليه ومن ضلّ فضرّ ضلاله يعود إليه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ولست مأمورا بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر والقبول وعدمه مفوّض إليهم ولست كفيل إيمانهم.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ المقصود من الآية إتيان الحجّة على المشركين ببيان قدرته فإنّه المستحقّ للعبادة دون آلهتكم العجزة وإشعار في تشبيه الهداية والإيمان بالحياة واليقظة والكفر والضلال بالموت والنوم فقال: إنّه تعالى يتوفّى الأنفس عند الموت وعند النوم.

قال ابن عبّاس: في بني آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس بها العقل والتمييز والروح بها التنفّس والحركة فإذا نام الإنسان قبض الله نفسه ولم يقبض روحه وإذا مات قبض الله روحه ويؤيّده ما رواه العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام قال: «ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الروح وقضى عليه بالموت أجابت الروح النفس وإن لم يأذن أجابت النفس الروح وهو قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية فما رأت في ملكوت السماوات فهو ممّا له تأويل وما رأت فيما بين السماء والأرض فهو ممّا يخيله الشيطان ولا تأويل

له ونسبة التوفّي إلى الملك في بعض الآيات بالمباشرة والمتوفّى هو الله.

وبالجملة فمعنى الآية أنّ الله يتوفّى الأنفس وقت موتها وانقضاء آجالها.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفّى الله النفس الّتي لم يقض عليه بالموت أيضا فالنفس الّتي قضى عليها الموت يمسكها سبحانه إلى يوم القيامة ولا تعود إلى الدنيا والّتي لم يقض عليها الموت وما بلغ أجلها يرسلها إلى وقت معلوم قدّر لها فليس قادر غيره على هذا الأمر والنفس الإنسانيّة عبارة عن جوهر مشرق روحانيّ أي: من سنخ عالم الروحانيّات لا العناصر إذا تعلّق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة ففي وقت الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وعن باطنه وأمّا في وقت النوم فإنّه ينقطع ضوؤه عن الحواسّ وظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن فالموت والنوم متشابهان من بعض الجهات إلّا أنّ الموت انقطاع تامّ والنوم انقطاع ناقص فيشتركان في كون كلّ واحد منهما توفّيا للنفس وهذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلّا عن الخالق القادر وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولمّا اعتذر المشركون أنّا لا نعبد هؤلاء الأصنام لاعتقاد أنّها آلهة مستقلّة وإنّما نعبدها لأجل أنّها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقرّبين فنحن نعبدها لأجل الشفاعة فأجاب الله بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي: بل اتّخذ قريش من دون إذن الله الأصنام شفعاء تشفع لهم عنده قل يا محمّد: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ «الهمزة» للاستفهام الإنكاريّ واستقباح هذا الأمر أي: قل لهم: أ تتّخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء ولا يعقلون لأنّها جمادات فضلا عن أن

يملكون الشفاعة عند الله وحاصل المعنى: أ يتّخذونهم شفعاء راجين شفاعتهم ولو كانت الآلهة موصوفة بصفة العجز وعدم الإدراك.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد: ﴿لِلَّهِ﴾ إذن ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ ولا يملك أحد الشفاعة إلّا بإذنه وتمليكه ﴿جَمِيعًا﴾ لأنه المالك و﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما حتّى يكون المشفوع له مرتضى دينه والشفيع يكون مأذونا وكلاهما مفقود هاهنا وإليه رجوعكم يوم القيامة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال ابن عبّاس: كان المشركون إذا سمعوا قول «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له» نفروا من هذا القول لأنّهم كانوا يقولون بالتشريك.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني: الأصنام الّتي كانوا يعبدونها من دون الله ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويسرّون بحيث يظهرون السرور في وجوههم الخبيثة وحصل الغيظ في قلوبهم الفاسدة والاستبشار والاشمئزاز متقابلان بالتضادّ.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾

ولمّا صدر من المشركين الاستبشار من ذكر تعدّد الآلهة والاشمئزاز من

وصف التوحيد وهو أمر عجيب تشهد فطرة العقل بفساده أمر نبيّه أن يحاكمهم ويدعو بهذا الدعاء: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: قل يا محمّد، أي: يا خالقهما ومنشئهما ويا عالم الغيب والشهادة أي: يا عالم ما غاب علمه عن جميع الخلايق وعالم ما شهدوه وعلموه. ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ يوم القيامة ﴿فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم وتفصل بينهم بالحقّ في الحقوق والمظالم أي: فاحكم بيني وبين قومي بالحقّ. وفي هذا بشارة للمؤمنين بالظفر والنصر لأنّه سبحانه إنّما أمره به للإجابة لا محالة وعن سعيد بن المسيّب أنّه قال: إنّي لأعرف موضع آية لم يقرأها قطّ فسأل الله شيئا إلّا أعطاه وهي قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

ثمّ أخبر سبحانه بوقوع العذاب والعقاب بالكفّار بأمور:

أولها: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ زيادة عليه ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: إنّ هؤلاء الكفّار لو ملكوا كلّ ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكلّ فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد.

والثاني: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا يظنّونه وينتظرونه ولم يكن في حسابهم وكما أنّه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنّة: فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فكذلك في العقاب حصل مثله.

وثالثها: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم أيضا ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: جزاء سيّئات أعمالهم وآثارها ﴿وَحَاقَ﴾ من كلّ الجوانب ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو كلّ ما ينذرهم النبيﷺ ممّا كانوا ينكرونه ويكذّبون به.

ثمّ أخبر سبحانه عن شدة تقلّب الإنسان من حال إلى حال وعن عقيدته الفاسدة فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: عند وقوع الضرر من الفقر والمرض يفزعون إلى الله ويرون أنّ دفع ذلك لا يكون إلّا منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً﴾ وهي السعة في المال أو العافية في البدن تفضّلا ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: زعم أنّه إنّما حصل ذلك بكسبه وبسبب جدّه وجهده فإن كان مالا قال: إنّما حصل بكسبي وإن كان صحّة قال: إنّما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانيّ وهذا تناقض عظيم لأنّه كان في حال العجز والحاجة أضاف إلى الله واستدعى رفعه منه وفي حال السلامة قطعه عن الله وأسنده إلى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح.

ثمّ قال تعالى: ليس الأمر على ما يقولونه ويزعمونه ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بليّة واختبار يبتليه الله بها ليظهر شكره أو صبره فيجازيه بحسبها وقيل: معناه هذه المقالة والعقيدة فتنة لهم لأنّهم بسبب هذا القول يعاقبون عليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البلوى من النعمى أو لا يعلمون أنّ النعم كلّها من الله وإن حصل بأسباب من جهة العبد.

فإن قيل: إنّ لفظ ﴿ٱلنِّعْمَةِ﴾ مؤنّثة والضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد على النعمة وضمير المذكّر كيف عاد إلى المؤنّث وقال: بعده ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ فجعل الضمير مؤنّثا فما السبب فيه والجواب أنّ التقدير حتّى إذا خوّلناه شيئا من النعمة فمعنى ﴿ٱلنِّعْمَةِ﴾ مذكّر فلا جرم جاز الأمران ومعنى التخويل التفضّل.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال مثل هذه الكلمة قارون حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1] ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ولم

١ـ سورة القصص: ٧٨.

ينفعهم ما كانوا جمعوه من الأموال بل صارت وبالا عظيما.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفّار بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: أصاب عقاب سيّئاتهم فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه وإنّما سمّي عقاب سيّئاتهم سيئة لازدواج الكلام كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: من كفّار قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أيضا ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا يفوتون اللّه ولا يعجزون اللّه بالخروج عن قدرته.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّع الرزق على من يشاء ويضيق على من يشاء بحسب ما يعلم من المصلحة والدليل عليه أنّا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ولا بدّ له من سبب وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لأنّا نرى العاقل في أشدّ الضيق ونرى الجاهل المريض الضعيف العاجز في أعظم السعة وليس ذلك أيضا لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك كما يزعم بعضهم لأنّ في الساعة الّتي ولد ذلك

١ـ سورة الشورى: ٤٠.

الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيها أيضا عالم من الناس وعالم من الحيوان غير الإنسان وعالم من النبات ونشاهد حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة علمنا أنّه ليس المؤثّر في السعادة والشقاوة الطبيعة والطالع لأنّ الطالع إن كان يقتضي السعد فيقتضي السعد للملك والصعلوك اقتضاء واحدا ولمّا بطلت هذه الأقسام والأثر لا يوجد إلّا بالمؤثّر والمعلول بالعلّة علمنا أنّه ليس المؤثّر فيه إلّا اللّه.

قال الشاعر:

فلا السعد يقضي به المشتري	ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنّـه حكـم ربّ السـماء	وقاضي القضاة تعالى وجلّ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ ودلالات واضحات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدّقون بتوحيد اللّه لأنهم المنتفعون.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بارتكاب الذنوب ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرة اللّه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ عن ثوبان مولى رسول اللّه ﷺ قال: «ما احبّ أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»[١]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية[٢]. وفي مصحف عبد اللّه بن مسعود: إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء.

قال الرازي: إنّ عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٠٧، وتفسير الصافي، ج٤، ص٣٢٦.

٢ـ المصدرالسابق نفسه.

٣ـ سورة الفرقان: ٦٣.

﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾[1] وأيضا لفظ مذكور في معرض التعظيم فوجب أن لا يقع إلّا على المؤمنين فظهر من هذه المقدّمات أنّ قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مختصّ بالمؤمنين ولأنّ المؤمن هو الّذي يعترف بكونه عبد الله وأمّا المشركون فإنّهم في الغالب يسمّون أنفسهم بعبد اللات والعزّى وعبد المسيح.

إذا ثبت هذا فنقول: إنّه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ عامّ في حقّ جميع المسرفين ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وهذا يقتضي كونه تعالى غافرا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين.

فإن قيل: إنّ هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها وإلّا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعا وأنتم لا تقولون به فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به والّذي تقولون به لا تدلّ عليه هذه الآية فسقط الاستدلال. وأيضا إنّه قال عقيب هذه الآية: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ولو كان المراد من أول الآية أنه غفر جميع الذنوب قطعا لما أمر عقيبه بالتوبة ولما خوّفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون. وأيضا لو كان المراد ما يدلّ عليه ظاهر الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقا في الإقدام عليها وذلك لا يليق بحكمة الله تعالى فعلى هذا وجب أن يحمل معنى الآية على أن يقال: المراد منه التنبيه على أنّه لا يجوز أن يظنّ العاصي أنّه لا مخلص له من عذاب الله البتّة فإنّ من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلّا ومتى تاب زال عقابه فمعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: بالتوبة والإنابة.

وأمّا الجواب عن القول: «بأنّ الآية تقتضي كون كلّ الذنوب مغفورة

١ـ سورة الإنسان: ٦.

قطعاً وأنتم لا تقولون به»[1] قلنا: بل نحن نقول به وبيانه أنّ صيغة ﴿يَغْفِرُ﴾ للاستقبال وعندنا أنّ الله يخرج من النار أهل التوحيد وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعا إمّا قبل الدخول في جهنّم وإمّا بعد الدخول فيها فحينئذ ما خرجنا عن مدلول الآية.

وأمّا قوله: لو صارت الذنوب مغفورة بأسرها لما أمر بالتوبة فالجواب أنّ التوبة واجبة وحكم لازم على المكلّف وخوف العقاب قائم ولم يحصل القطع بإزالة العقاب بالكلّيّة بل نقول: لعلّه يعفو مطلقا ولعلّه يعذّب بالنار مدّة ثمّ يعفو بعد ذلك انتهى كلام الرازي[2].

القميّ قال: نزلت الآية في شيعة عليّ بن أبي طالب خاصّة[3] وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام قال: «لقد ذكركم الله في كتابه إذ يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية قال: والله ما أراد بهذا غيركم».[4] وفي «معاني الأخبار» والقميّ عن الباقر عليه السلام قال: «وفي شيعة ولد فاطمة عليها السلام أنزل الله هذه الآية خاصّة».[5] وفي «المحاسن» عن الصادق عليه السلام قال: «ما على ملّة إبراهيم غيركم وما يقبل إلّا منكم ولا يغفر الذنوب إلّا لكم».

وبالجملة قيل: إنّ الآية نزلت في وحشيّ قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف أن لا يقبل توبته فلمّا نزلت الآية أسلم. قال الطبرسيّ: وهذا لا يصحّ لأنّ الآية نزلت بمكّة ووحشيّ أسلم بعدها بسنين كثيرة ولكن يمكن أن

١ـ بل الجواب ان جميعا تأكيد للذنوب والمراد ان الله إذا غفر لمن يشاء يغفر جميع ذنوبه بلا فرق بين كبيرة وكبيرة فلا يقنط احد من غفران بعض كبائرها العظيمة في نفسه، وليس الله ان يغفر بعضها ثم يعذبه ببعضها ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟﴾: توبة مما سلف وتسليما لما خلف حتى يغفر لكم جميع ما سلف.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢.

٣ـ تفسيرالقمي، ج٢، ص٢٥٠، وتفسير الاصفي، ج٢، ص١٠٨٩.

٤ـ الكافي، ج٨، ص٣٥، وبحارالانوار، ج٢٤، ص٢٦٠.

٥ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٠، ومعاني الاخبار، ص١٠٧.

يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه فالله سبحانه يغفر الذنوب جميعا للتائب لا محالة حيث يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[1] فإن مات الموحّد من غير توبة فهو في مشيّة الله إن شاء عذّبه بعدله وإن شاء غفر له بفضله كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2][3].

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: انقادوا له بالطاعة فيما يأمركم به وقيل معناه: اجعلوا أنفسكم خالصة لقبول دينه وقد حثّ سبحانه بهذه الآية على التوبة لكي لا يرتكب الإنسان المعصية ويدع التوبة اتّكالا على الآية المتقدّمة.

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ من الحلال والحرام والأمر والنهي وأتى بالمأمور به وترك المنهيّ عنه وإنّما قال: ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ لأنّه أراد بذلك الواجبات والنوافل الّتي هي الطاعات دون المباحات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة لا تتوقّعونه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تعرفون وقت نزوله بكم.

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

١ـ سورة التوبة: ١٠٥.

٢ـ سورة النساء: ٤٨ و١١٦.

٣ـ مجمع البيان، ج٨ ص٤٠٨.

ولمّا أمر اللّه سبحانه باتّباع الطاعات واجتناب المعاصي تحذيرا من نزول العقوبات بيّن الغرض في ذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي: كراهية أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ أي: يا ندامتي وطول تحسّري علي ما ضيّعت من ثواب اللّه وقصّرت في أمر اللّه والتفريط إهمال ما يجب أن يتقدّم فيه حتّى يفوت وقتة والجنب القرب أي: في قربه وجواره يقال: فلان في جنب فلان أي: في قربه وجواره وهو الجنّة وقال الزجّاج: أي: فرّطت في طريق اللّه فيكون الجنب بمعنى الجانب أي: قصّرت في الجانب الّذي يؤدّي إلى مرضاة اللّه.

وروى العيّاشيّ بالإسناد عن أبى الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «نحن جنب اللّه». وفي «المحاسن» عن الباقر عليه السلام: «إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة الّذين وصفوا العدل ثمّ خالفوه وهو قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾. الآية»[1]. وفي «الكافي» عن الكاظم عليه السلام في الآية قال: «جنب اللّه أمير المؤمنين وكذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم»[2]. وفي «الإكمال» والعيّاشيّ عن الباقر عليه السلام: «نحن جنب اللّه»[3] وفي «المناقب» عنه وعن أبيه في هذه الآية: «عليّ جنب اللّه وحجّة على الخلق»[4].

قوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وإن كنت لمن المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وآله والقرآن وبالمؤمنين في دار الدنيا وقيل: معناه من الساخرين ممّن يدعوني إلى الإيمان. ومن الكلمات الّتي حكى اللّه عنهم قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّهم لمّا لم ينظروا في الأدلّة

۱ـ المحاسن، ج ۱، ص ۱۲۰، وبحار الانوار، ج ۲، ص ۳۰.

۲ـ الكافي، ج ۱، ص ۱٤٥، وبصائر الدرجات، ص ۸٤.

۳ـ كمال الدين، ص ۲۰٦، ومجمع البيان، ج ۸، ص ٤۱۰.

٤ـ المناقب، ج ۳، ص ٦٤.

وأعرضوا عن القرآن واشتغلوا بالدنيا والأباطيل توهّموا أنّ الله لم يهدهم فقالوا ذلك بالظنّ وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ الآية، وقيل: معناه لو أنّ الله هداني إلى النجاة بأن يردّني إلى حال التكليف لكنت ممّن يتّقي المعاصي عن الجبّائيّ قال: لأنهم يضطرّون يوم القيامة إلى العلم بالحقيقة بأنّ الله قد هداهم. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لو أنّ لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحّدين المطيعين. ثمّ أنكر الله قولهم فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ﴾ أي: ليس كما قلت قد جاءتك آياتي أي: حججي ودلالاتي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وأنفت من اتّباعها ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقرئ في الشواذّ بكسر التاءات باعتبار تأنيث النفس.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فزعموا أنّ له شريكا أو ولدا ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ استفهام تقريريّ أي: الّذين تكبّروا عن الإيمان بالله فيها مثواهم ومقامهم.

وروى العيّاشيّ بإسناده عن خيثمة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«من حدّث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوما فإن صدق علينا فإنّما يصدق على الله ورسوله لأنّا إذا حدّثنا لا نقول: قال فلان وقال فلان إنّما نقول: قال الله وقال رسوله»** ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ﴾ الآية، ثمّ أشار خيثمة إلى أذنيه فقال: صمّتا إن لم أكن سمعته.

وعن سودة بن كليب قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: «هو إمام انتحل إمامته ليست له من الله». قلت: وإن كان علويّاً قال عليه السلام: «وإن كان علويّا» قلت: وإن كان فاطميّاً قال عليه السلام: **«وإن كان فاطميّاً»**.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ
وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

لمّا أخبر سبحانه في الآية السابقة حال الكفّار عقّبه بذكر حال الأتقياء الأبرار فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ معاصيه خوفا من عقابه ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بمنجاتهم وقرئ ﴿بِمَفَازَاتِهِمْ﴾ على أنّ المصادر قد تجمع إذا اختلف أجناسها وأصل الفوز النجاة وبذلك سمّيت المفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها كما سمّوا اللديغ سليماً ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: لا يصيبهم المكروه والشدة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من لذّات الدنيا.

ولمّا ذكر الوعد والوعيد بيّن أنّه القادر على كلّ شيء بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: محدثه ومبدعه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ ومدبّر.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واحدها مقليد يريد مفاتح السماوات والأرض بالرزق والرحمة يفتح لمن يشاء ويغلق لمن يشاء على حسب ما يقتضيه الحكمة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنّهم خسروا الجنّة ونعيمها ويصلون النار وسعيرها.

ثمّ أعلم أنّه المعبود ولا معبود سواه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ أي: أ تأمروني أن أعبد غير الله ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ بما تأمرونني به إذ تأمرون بعبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضرّ.

وبالآية السابقة وهي قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ استدلّت المجبّرة بأنّ الله خالق الكفر والإيمان وأثبتوا الجبر بزعمهم.

وأجيب عنها بأجوبة صحيحة: منها أنّه قالت المجوسيّة: إنّ السباع والهوامّ والموذيات والأمراض ليست من خلق اللّه فأراد سبحانه أن يبيّن أنّها بأجمع من خلقه ثمّ إنّ لفظة «كل» قد لا يوجب العموم لقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] والحال أنّها ما أوتيت كلّ شيء في العالم وقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2].

والجواب الآخر أنّه لو كانت الأعمال من العباد من خلق اللّه لما أضافها إليهم بقوله: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[3] ولما صحّ قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[4] ولما صحّ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[5] ومعلوم أنّ الكفر باطل وقال الجبّائيّ: اللّه خالق كلّ شيء سوى أفعال خلقه الّتي صحّ فيها الأمر والنهي واستحقّوا بها الثواب والعقاب ولو كانت أفعالهم خلقاً للّه لما جاز العقاب فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم.

وقال أبو مسلم: الخلق هو التقدير لا الإيجاد فإذا أخبر اللّه سبحانه عن عباده أنّهم يفعلون الفعل الفلانيّ فقد قدّر ذلك الفعل فيصحّ إطلاق التقدير على الخلق وإن لم يكن له موجداً.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال ابن عبّاس: هذا أدب من اللّه لنبيّه وتهديد لغيره لأنّ اللّه عصمه من الشرك وهو كلام وارد على طريق الفرض والشرط ولو أنّ مشتاقا

١ـ سورة النمل: ٢٣.

٢ـ سورة الأحقاف: ٢٥.

٣ـ سورة البقرة: ١٠٩.

٤ـ سورة آل عمران: ٧٨.

٥ـ سورة ص: ٢٧.

لتهييع الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الكفر والاشتراك وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف عن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كلّ واحد واللام الاولى موطّئة للقسم والأخريان للجواب.

فإن قيل: كيف صحّ هذا الكلام مع علم الله أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم.

فالجواب أنّ الكلام قضيّة شرطيّة والقضيّة الشرطيّة لا يلزم من صدقها صدق جزئيها ألا ترى أنّ قولك: لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضيّة صادقة مع أنّ كلّ واحد من جزأيها غير صادق قال الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] ولم يلزم من هذا صدق القول بأنّ فيهما آلهة وبأنّهما قد فسدتا. ثمّ إنّه تعالى لمّا بيّن هذه الأمور ذكر ما هو المقصود فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فردّ سبحانه ما اقترحوه منه ﷺ من الاستلام ببعض آلهتهم لأنّ قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ يفيد أنّ المشركين عيّنوا عليه عبادة غير الله فقال سبحانه إنّهم بئس ما قالوا ولكن كن على الصدق وكن من الشاكرين على ما هداك وأرشدك

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ
سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم
قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ
بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ

١ـ سورة الأنبياء: ٢٢.

نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾

فبيّن سبحانه أنّ المشركين لمّا جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في المعبوديّة قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ وما وحّدوه وعظّموه تعظيما لائقا به فلو قيل: كيف إنّ الخلق ما عرفوا اللّه، فالجواب أنّ هذا وصف المشركين لا المؤمنين على أنّ المؤمنين أيضا لم يعرفوه كما هو.

والضمير في الآية راجع إلى المشركين أي: أشركوا معه غيره والحالة أنّ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وهم جحدوا البعث وقالوا: إنّه عاجز عن الإعادة والنشر لأنّ هذا أمر غير ممكن فذكر سبحانه أن الأرض كلّها مع عظمها في مقدوره كالشيء الّذي يقبض عليه القابض بكفّه وكذلك قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: يطويها بقدرته كما يطوي الواحد منّا الشيء المقدور له طيّه بيمينه وذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار والملك، كقول الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها عرابة باليمين

قال الزمخشري: المراد من هذا الكلام بيان عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا إلى جهة حقيقة، روي أنّ يهودياً جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا أبا القاسم إنّ اللّه يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثمّ يهزّهن فيقول: أنا الملك فضحك رسول اللّه تعجّبا ممّا قال.

قال الزمخشري: وإنّما ضحك أفصح العرب لأنّه لم يفهم منه إلّا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا إصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك ولكن فهم من كلام اليهوديّ الخلاصة الّتي هي الدلالة على القدرة المحضة[1].

واعلم أنّ الأصل في الكلام حمله على الحقيقة فإن قام دليل منفصل

١ـ الكشاف، ج٣، شرح ص ٤٠٨، وتفسير الرازي، ج٢٧، ص١٥.

على أنه يتعذّر حمله على حقيقته فحينئذ يتعيّن صرفه إلى مجاز فإن حصلت هناك مجازات لم يتعيّن صرفه إلى مجاز معيّن إلّا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيّن والتعيين يحصل بالأولويّة وهذا هو الطريق الصحيح في استعمال اللفظ في معنى المجازيّة في الكلام والكلام في الآية كذلك لأنّه لمّا دلّت الدلائل العقليّة والسمعيّة على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح للّه تعالى فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز وأقربها.

وللرازيّ كتاب مفرد في إثبات تنزيه اللّه تعالى عن الجسم والمكان سمّاه تأسيس التقديس ومن أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه.

وقوله تعالى في الآية: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ المراد الأرضون وبيّنه قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فإنّ هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلّا على الجمع فإنّ الأوصاف والألفاظ الملحقة بالمفرد إذا كانت جمعا تدلّ على أنّ المراد منه الجمع كقوله: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾[1].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ نزّه سبحانه نفسه عن شركهم وعمّا يضيفونه إليه.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل ووجه الحكمة في ذلك أنّها علامة جعلها اللّه ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف ثمّ بعد ظهور هذه العلامة تجديد الخلق فشبّه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول وقيل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ جمع صورة فكأنّه نفخ في صورة الخلق. ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يموت من شدّة تلك الصيحة الّتي تخرج من الصور جميع من في السماوات والأرض يقال: صعق فلان إذا مات بحال

١ـ سورة ق: ١٠.

هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختلف في المستثنى: قال ابن عبّاس: هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهو المرويّ عن حديث مرفوع، ثمّ يميت الله ميكائيل وإسرافيل ثمّ جبرائيل وملك الموت، والقول الثاني: أنّهم أي: المستثنين هم الشهداء لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «هم الشهداء متقلّدون أسيافهم حول العرش»[2]. القول الثالث: المستثنى هو موسى لأنّه صعق مرّة فلا يصعق ثانيا. القول الرابع: أنّهم الحور العين وسكّان العرش والكرسيّ، القول الخامس: الله أعلم بأنّهم من هم وليس في القرآن والأخبار ما يدلّ على أنّهم من هم.

واختلفوا في الصعقة، منهم من قال: إنّها غير الموت بدليل قوله في موسى عليه السلام: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مع أنّه لم يمت فهذا هو النفخ الّذي يورث الفزع الشديد فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع على هذا التقدير واحد وهو المذكور في سورة النمل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] وعلى هذا فنفخ الصور ليس إلّا مرّتين. والقول الثاني: أنّ الصعقة عبارة عن الموت، والقائلون بهذا القول قالوا: إنّهم يموتون من الفزع وشدّة الصوت وعلى هذا التقدير فالنفخة يحصل ثلاث مرات أولها: نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة، النمل والثانية: نفخة الصعق والثالثة: نفخة القيام وهما مذكورتان في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

وكلمة ثمّ في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ تفيد التراخي وهي متأخّرة عن النفخة الاولى وروي عن النبيّ ﷺ: «أنّ بينهما أربعين

١ـ سورة آل عمران: ١٦٩.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤١٦، وتفسير الصافي، ج٤، ص٣٢٩.

٣ـ سورة النمل: ٨٧.

ولا أدري أربعون يوما أو شهرا أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة»[١] وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ يعني: قيامهم من القبور عقيب هذه النفخة الآخرة في الحال من غير تراخ لأنّ الفاء تدلّ على التعقيب والمراد من قوله ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذ جاءهم خطب عظيم أو ينظرون ما ذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحسرة والدهشة عليهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض الّتي يسكن ويقعد عليها الآن بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾[٢] يعني: أرضا لم يكسب عليها الذنوب وبدليل قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[٣] بل هي أرض اخرى يخلقها الله لمحفل يوم القيامة.

وهاهنا بيان وهو أنّه قالت المجسّمة: إنّ الله تعالى نور محض فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله وأكّدوا هذا القول بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٤].

وقد أجيب عن هذه الشبهة الواهية على التفصيل في سورة النور وكيف يجوز حمل الكلام في معنى النور على الحقيقة وكونه تعالى شأنه من جنس هذه الأنوار المشاهدة وقد فسّر لفظ النور في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[٥] على العدل وقد يستعمل هذا اللفظ مجازاً في هذا المعنى وفي بيان

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٨.

٢ـ سورة ابراهيم: ٤٨.

٣ـ سورة الحاقة: ١٤.

٤ـ سورة النور: ٣٥.

٥ـ سورة الزمر: ٦٩.

أنّ المراد من لفظ النور هاهنا ليس إلّا هذا المعنى أمّا بيان الاستعمال فهو أنّ الناس شايع في كلامهم بأن يقولون للملك العادل: أشرقت الأرض بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك قال ﷺ: **«الظلم ظلمات يوم القيامة»**(١).

والقرينة على أنّ المراد من النور في الآية العدل فقط أنّه تعالى قال: بعده ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ومعلوم أنّ المجيء بالشهداء ليس إلّا للشهادة وإظهار العدل. وأيضا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثمّ إضافة النور إلى اللّه لا يلزم كون ذلك صفة ذات اللّه لأنّه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب فلمّا كان ذلك النور من خلق اللّه وشرّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور اللّه مثل قوله: بيت اللّه وناقة اللّه. وهذا الجواب أقوى من الأول لأنّ في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل: المراد من الكتاب اللوح المحفوظ الّذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت القيامة وقيل: المراد كتب الأعمال كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾(٢) وقال في آية اخرى ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(٣).

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمراد من مجيء الأنبياء ليكونوا شهداء على الناس، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قيل: أراد بالشهداء المؤمنين وقيل: يعني: الحفظة من الملائكة في أعمالهم وقيل: أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل اللّه، القمي:

١ـ مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٩٩، وبحارالانوار، ج٧، ص٢٢٩، وعوالي اللئالي، ج١، ص١٤٩.

٢ـ سورة الإسراء: ١٣.

٣ـ سورة الكهف: ٥٠.

الشهداء الأئمة.[١] وفي «إرشاد المفيد» عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ المراد إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها أي: نور الإمام وقد جعله الله نورا للعالم واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمة[٢].

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: يفصل بينهم ويوصل إلى كلّ أحد حقّه من غير نقيصة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: يستوفي كلّ نفس جزاء ما عمل ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ عالم بكيفيّات أعمالهم ومقادير أفعالهم فلا يمكن دخول الخطاء في ذلك الحكم.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

لمّا شرح أحوال أهل القيامة بقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ بيّن

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٥٣، وبحارالانوار، ج ٢٣، ص ٣٤١.

٢ـ الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨١، وتفسير نورالثقلين، ج ٤، ص ٥٠٤.

أحوال أهل العقاب ثمّ كيفيّة أهل الثواب «السوق» الدفع بالعنف[1] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: يساقون بالعنف إلى جهنّم تسوقهم الملائكة من خزنة جهنّم وهم ملائكة العذاب ونظيره قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[2] أي: يدفعون دفعا وأمّا الزمر فهي الأفواج المتفرّقة بعض في أثر بعض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: تفتح أبواب جهنّم عند وصول أولئك إليها فإذا وصلوا باب جهنّم ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ ملائكة العذاب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ يقرءون عليكم آيات ربّكم وحجج ربّكم وما يدلّكم على معرفته وبيان عبادته ويخوّفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فيقول الكفّار: قد جاءتنا وخوّفونا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وجب العقاب على من كفر باللّه لأنّه أخبر بذلك فلم يكن يقع منه على خلاف ما أخبر به فصار كوننا في جهنّم موافقا لخبره سبحانه والكلمة قوله تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] وقد كنّا ممّن تبعه وكذّبنا الرسل.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فتقول الخزنة لهم: ادخلوا أبواب جهنّم وأنتم مخلّدون ومؤبّدون فيها وإبهام القائل لتهويل المقول ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس موضع المتكبّرين عن الحقّ وهذا الكلام لبيان أنّ ورودهم في النار بناء على كفرهم وتكبّرهم عن عبادة اللّه وهذا العذاب إنّما أوردوه على أنفسهم بكفرهم على سبيل الاختيار حيث لم

١ـ بل هو الحث على السير.

٢ـ سورة الطور: ١٣.

٣ـ سورة ص: ٨٥.

يعتنوا بدلائل التوحيد ولم يقبلوا قول الرسل.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فبيّن حال أهل الثواب والّذين لم يتكبّروا عن أمره وخافوا عن مخالفة اللّه ورسله.

فإن قيل: السوق في أهل النار للعذاب معقول لأنهم لا بدّ وأن يساقوا إليه لأنهم ذهبوا إليه عنفاً وكرهاً ولكن أيّ حاجة لأهل الكرامة بالسوق؟

فالجواب أنّه إنما ذكر السوق على وجه المقابلة لسوق الكافرين كلفظ البشارة في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وإنّما البشارة للخير ومثل قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾.

وقيل وجه آخر وهو أنّ المحبّة والصداقة باقية بين المتّقين فإذا قيل لواحد منهم: اذهب إلى الجنّة فيقول: لا أدخلها حتّى يدخلها أصدقائي فيتأخّرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى السوق إلى الجنّة.

وقيل أيضا وجه آخر: أنّ المؤمنين الماحضين قد عبدوا اللّه مخلصا لا للجنّة ولا للنار فتصير شدّة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم من الرغبة في الجنّة فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنّة.

وقيل: إنّ أهل الجنّة وأهل النار يساقون إلّا أنّ المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس والمراد بسوق أهل الجنّة سوق مراكبهم لأنّه لا يذهب بهم إلّا راكبين فالمراد إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على الملوك شتّان ما بين السوقين! ثمّ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ فإن قيل: قال تعالى في أهل النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بغير الواو وقال هاهنا بالواو فما الفرق؟ والفرق أنّ أبواب جهنّم لا

١ـ سورة آل عمران: ٢١.

تفتّح إلّا عند دخول أهلها فيها فأمّا أبواب الجنّة ففتحها يكون متقدّما على وصولهم إليها بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[1] فلذلك جيء بالواو كأنّه قيل: حتّى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها والواو واو حال وقيل: الواو واو الثمانية قال المبرّد: الواو زائدة وأنكر قول من قال: إنّها واو الثمانية وأنشد لامرئ القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى ... بنا بطن جنب ذي حقاف عقنقل

قال: والمعنى فلمّا أجزنا ساحة الحيّ انتحى بنا.

فجواب إذا في صفة أهل الجنّة محذوف وتقديره: حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها فازوا ونالوا وكانوا كيت وكيت كما أنّ في بيت امرئ القيس الجواب محذوف والتقدير: فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا خلونا ونعمنا.

وبالجملة فالمعنى: حتّى إذا جاءوها وقد فتحت لهم أبواب الجنّة وقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ الخزنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث أولها يبشّرونهم بالسلامة من كلّ الآفات فتقول الملائكة عند استقبالهم: سلامة من الله عليكم ويحيّونهم ليزدادوا بذلك سرورا ﴿طِبۡتُمۡ﴾ بالعمل الصالح في الدنيا وطابت وزكت أعمالكم أو المعنى: طابت أنفسكم بدخول الجنّة وقيل: إنّهم طيّبوا قبل دخول الجنّة بالمغفرة وقيل: طبتم أي: طاب لكم المقام وقيل: إنّهم إذا قربوا من الجنّة يردون إلى عين من الماء فيغتسلون بها ويشربون منها فيطهّر الله أجوافهم فلا يكون بعد ذلك منهم حدث وأذى ولا يتغيّر ألوانهم فحينئذ تقول الملائكة لهم: طبتم فادخلوها خالدين مؤبّدين والفاء في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ يدلّ على كون ذلك الدخول معلّلا ومتعاقبا بالطيب والطهارة.

١ـ سورة ص: ٥٠.

قالت المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ أحدا لا يدخلها إلّا إذا كان طاهرا عن كلّ المعاصي، قال الرازيّ: وهذا القول ضعيف لأنّه يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات فحينئذ يصيرون طيّبين طاهرين.

وعن سهل بن سعد الساعديّ أنّ رسول اللّه قال: إنّ للجنّة ثمانية أبواب منها باب يسمّى الريّان لا يدخلها إلّا الصائمون.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ قال المتّقون عند ذلك: الحمد للّه الذي صدقنا وعده الّذي وعدنا على ألسنة الرسل في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ والمراد بالأرض أرض الجنّة وعبّر عنه بالإرث لأنّ الجنّة كانت في أوّل الأمر لآدم فلمّا عادت إلى أولاده كان ذلك سببا لتسميتها بالإرث أو لأنّ الوارث يتصرّف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك هؤلاء يتصرّفون في الجنّة كيف شاءوا والمشابهة علّة لحسن المجاز.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: نأخذ منها مأوى ومبوء ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة قصورهم ومنازلهم وسعة نعمتهم ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: نعم ثواب المحسنين الجنّة قال مقاتل: إنّ هذا الكلام من قول اللّه وليس من كلام أهل الجنّة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ لمّا بيّن ثواب أهل الإيمان ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال: كما أنّ ثواب المتّقين الجنّة فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه أي: محدقين بالعرش ويطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزّهون اللّه عمّا لا يليق به ويذكرونه بصفاته الّتي هو عليها وقيل: يحمدون اللّه حيث دخل الموحّدون الجنّة وتسبيحهم في ذلك الوقت على سبيل التلذّذ والتنعّم لا على وجه التعبّد إذ ليس هناك تكليف.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنّة أو المعنى: قضي بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على ما قضي بيننا بالحقّ ولمّا كان تقرير المؤمنين بقولهم: ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ وبيّن أنّهم اشتغلوا بهذا التحميد تلذّذاً لا تكليفاً فكذلك الملائكة متوافقين على الاستغراق في التحميد تلذّذاً وكان ذلك سببا لمزيد التذاذهم وقيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من كلام أهل الجنّة شكرا وقيل: إنّه من كلام الله تعالى فقال في ابتداء الخلق: الحمد لله الّذي خلق السماوات والأرض وقال بعد بعثهم واستقرارهم في منازلهم: الحمد لله وهذا أدب أدّب الله العباد بأنّه يجب الأخذ بأدبه في ابتداء كلّ أمر وختم كلّ أمر.

سورة غافر

مكّيّة إلّا آيتين منها نزلتا بالمدينة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ يعني بذلك صلاة الفجر والمغرب وقد ثبت أنّ فرض الصلاة نزل بالمدينة.

فضل قراءة الحواميم كثير وفضلها خصوصا روى أبو بردة الأسلميّ (أو بريدة) عن رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليقرأ الحواميم في صلاة الليل»[1] وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الحواميم ديباج القرآن»[2] وعن ابن عبّاس قال:

«لكلّ شيء لباب ولباب القرآن الحواميم»[3] قال ابن مسعود: «إذا وقعت في قراءة الحواميم وقعت في روضات دمثات أتأنّق فيهنّ»[4].

وعن ابيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة حم المؤمن لم يبق روح نبيّ ولا صدّيق ولا مؤمن إلّا صلّوا عليه واستغفروا له»[5] وروى أبو بصير عن

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، وبحارالانوار، ج٨٩، ص٣٠٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، وبحارالانوار، نفس المصدر.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٢١٨.

٤ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، وانظر: زاد المسير، ج٧، ص٣٢.

٥ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٧.

الصادق عليه السلام قال: «الحواميم ريحان القرآن فاحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها وإنّ العبد ليقوم يقرء الحواميم فيخرج من فيه ريح أطيب من المسك الأذفر والعنبر وإنّ الله ليرحم تاليها وقاريها ويرحم جيرانه وأصدقاءه وكلّ حميم أو قريب له وإنّه في القيامة يستغفر له العرش والكرسيّ وملائكة الله المقرّبون»[١].

وروى أبو الصباح عن الباقر عليه السلام قال: «من قرأ حم المؤمن في كلّ ثلاث غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وألزمه التقوى وجعل الآخرة خيرا له من الدنيا»[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

وقرئ بكسر الحاء وبعض بين الفتح والكسر قال صاحب الكشّاف: بفتح الميم وتسكينها ووجّه الفتح لالتقاء الساكنين وإيثار الفتح للخفّة نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرء ومنع الصرف للتعريف والتأنيث لأنّها اسم للسورة وأمّا السكون لأنّ الأسماء المجرّدة تذكر موقوفة الأواخر.

وبالجملة قال الرازيّ الأقرب أن يقال: «حم» اسم للسورة فقوله: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبره والتقدير: إنّ هذه

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٠٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢٢، وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩١.

السورة المسمّاة بحم تنزيل الكتاب وتنزيل مصدر لكنّ المراد منه المنزل. وقوله: من الله بيان أنّه تعالى هو المنزل ووصف نفسه بالغالب العليم. والفائدة في ذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بيان أنّه تعالى بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحدّ الّذي يتضمّن المصالح في عموم التكليف والإعجاز لقدرته وعلمه.

ثمّ وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهذه ستّة أنواع من الصفات: الاولى: غافر الذنب، قال الجبّائيّ: معناه أنّه غافر الذنب إذا استحقّ المذنب غفرانه إمّا بتوبة أو طاعة أعظم من الذنب ومراده أنّ فاعل المعصية إمّا أن يقال: إنّه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأوّل كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلّا بالتوبة، انتهى كلام الجبّائيّ.

قال الرازيّ: ومذهب أصحابنا أنّ الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة والآية تدلّ على ذلك لأنّ الغفر معناه الستر ومعنى الغفر إنّما يعقل في الشيء الّذي يكون باقيا موجودا فيستر والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعليها فمعنى الغفر فيها غير معقول.

ولا يمكن حمل قوله: غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة لأنّ معنى كونه قابلا للتوبة ليس إلّا ذلك وإنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له وتوسيط الواو بين الأوّلين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين فثبت أنّ كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة على أنّ الكلام مذكور في معرض المدح العظيم فحمله على ما يفيد

أعظم أنواع المدح وأليق. انتهى كلامه وفيه نظر[1].

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ وفي لفظ التوب قال أبو عبيدة: هو مصدر وقال الأخفش: إنّه جماعة التوبة وقال المبرّد: إنّه مصدر تاب يتوب توبا مثل «قَوْلًا» قالت الأشاعرة: إنّ قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضّل وليس بواجب على اللّه وقالت المعتزلة: إنّه واجب على اللّه.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فلو قيل: إن قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهي صفة للمعرفة وهو اللّه ولا يصلح أن يوصف المعرفة بالنكرة كما أنّه يقال: مررت برجل شديد البطش ولا يقال: مررت بعبد اللّه شديد البطش فأجيب بأنّ هذه الصفة وإن كانت نكرة إلّا أنّها لمّا ذكرت مع سائر الصفات الّتي هي معارف فحسن ذكرها مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2] وأجاب الزجّاج أنّ خفض شديد العقاب على البدل وجعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز. وقال ابن عبّاس في تفسير الآية: إنّه تعالى غافر الذنب لمن قال: لا إله إلّا اللّه مخلصا قابل التوب.

قال: لا إله إلّا اللّه شديد العقاب لمن لم يقل: لا إله إلّا اللّه ذي الطول أي: ذو الغنى. لم يقل: لا إله إلّا اللّه. أقول: وقد عرفت أنّ هذه الكلمة مقيّدة بقبول الولاية وأداء شروطها.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ وقيل: إنّه إنّما ذكر ذي الطول عقيب قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لبيان تفضّله وطوله على الخلق والطول الإحسان كقول الشاعر: «ليلى وليلى» إلى آخر البيت وهذا البيان ليعلم أنّ العاصي أتى في هلاك نفسه من قبل نفسه لا من قبل ربّه وإلّا فنعمه سابغة.

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٧.

٢ـ سورة البروج: ١٤ ـ ١٦.

الصفة الخامسة: التوحيد المطلق وهو قوله: لا إله إلّا هو فحينئذ لا يشاركه أحد في العبادة.

الصفة السادسة: قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وهذه الصفة أيضا داعية إلى الترغيب والترهيب. أنّ التوحيد داع إلى الترغيب والترهيب.

ولمّا ذكر سبحانه صفاته الشريفة وبيّن أنّ القرآن كتاب أنزله للهداية ثمّ ذكر أحوال المخاصم في دفع حجج الله وجحدها فقال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله اعلم أنّ الجدال نوعان جدال في تقرير الحقّ وجدال في تقرير الباطل الجدال في إثبات الحقّ فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] وأمّا الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد في الآية.

قال: ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ الآية وقال: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ جدالاً في القرآن كفر». فقوله: إنّ جدالا على لفظ التنكير يدلّ على التمييز.

وجدال ولفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال الحقّ والذبّ عن الحقّ وقال صلى الله عليه وآله: «لا تماروا في القرآن فإنّ المراء فيه كفر»[2] والجدال في آيات الله هو أن تقول مرّة إنّه سحر ومرّة إنّه شعر ومرّة إنّه قول الكهنة وأساطير الأوّلين ومرّة إنّما يعلّمه بشر وأشباه هذا من الشبهات الباطلة فذكر تعالى إنه لا يفعل هذا إلّا الّذين كفروا وأعرضوا عن الحقّ.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ يا محمّد ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ أي: تصرّفهم في البلاد

١ـ سورة النحل: ١٢٥.

٢ـ مسند أحمد، ج٤، ص٢٠٤، وتفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٩.

للتجارات سالمين أصحاء مع كفرهم فإنّ الله لا يخفى عليه حالهم وإنّما يملهم لأنّهم في سلطانه ولا يفوتونه وفي هذا غاية التهديد أي: فإنّي وإن أمهلتهم فإنّي سآخذهم كما فعلت بأمثالهم من الأمم المكذّبة وكانت قريش كذلك يتقلّبون في بلاد الشام واليمن فرحين فرهين ولهم الأرباح الكثيرة في تجاراتهم والزمان مساعد لهم.

ثمّ كشف عن هذا المعنى بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحا وهو رسولهم ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الأمم المستمرّة على التكذيب والكفر نحو قوم هود وثمود وغيرهم من بعدهم وهم الّذين تحزّبوا على تكذيب الأنبياء.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من أولئك الأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ أي: قصدوه ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليهلكوه ويقتلوه وإنّما قال: ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ ولم يقل: برسولها لأنّ المراد الرجال. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ مثل قولهم: ما أنتم بشر مثلنا وهلّا أرسل الله إلينا ملائكة ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ويبطلوا الحقّ ويزيلوه يقال: أدحض الله حجّته أي: أزالها وأزلّها ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي إيّاهم فأفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصرّوا على الجدال والكفر بآيات الله.

ثمّ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: مثل الّذي حقّ على أولئك الأمم السالفة من العقاب حقّت كلمتي أيضا على هؤلاء الّذين كفروا من قومك فوجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ
أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن حال المؤمنين وأنّه تستغفر لهم الملائكة مع عظم منزلتهم عند اللّه فحالهم بخلاف حال الكفّار.

المعنى: إنّه إذا كان يبالغون في إظهار العداوة للأنبياء والمؤمنين فأشرف طبقات المخلوقات هم حملة العرش من الملائكة فهم يبالغون في إظهار المحبّة والدعاء فلا تبال بهؤلاء الأراذل ولا تقم لهم وزنا فإنّ حملة العرش ينصرونك بالدعاء.

روي أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السلفى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«لا تتفكّروا في عظم ربّكم ولكن تفكّروا فيما خلق الله من الملائكة فإنّ خلقا من الملائكة يقال له: إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سماوات وإنّه ليتضاءل من عظمة الله حتّى يصير كأنّه الوضع»**[1] قيل: إنّه طائر صغير.

روى الزمخشري:[2] إنّ اللّه أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة وخلق اللّه العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وحول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صفّ قد وضعوا

١ـ الكشاف، ج٣، شرح ص٤١٥، وتفسير أبي السعود، ج٧، ص٢٦٧.

٢ـ الكشاف، ج٣، ص ٤١٥.

الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلّا ويسبّح بما لا يسبّح به الآخر والحاصل أنّ حملة العرش ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ يعني الملائكة المطيفين بالعرش وهم الكرّوبيّون وسادة الملائكة وأشرافها ينزّهون ربّهم عمّا يصفه به هؤلاء المجادلون ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ويصدّقونه بوحدانيّته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ ويسألون الله المغفرة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أهل الأرض ويدعون لمن معك من المؤمنين فإنّ المشاركة في الإيمان أدعى الدواعي وأتمّها إلى النصح والشفقة واستغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم ويقولون في دعائهم للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك كلّ شيء والمراد بالعلم المعلوم كما ينبئ عن هذا المعنى قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أي: معلومه على التفصيل وفي هذا تعليم وأدب لطريقة الدعاء لأنّه لمّا كان السعادة مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله المستحقّين لها فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ مشعر بالتعظيم لأمر الله وقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مشعر بالشفقة على خلق الله.

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ الّذي دعوت إليه خلقك وهو دين الإسلام ﴿وَقِهِمْ﴾ وادفع عنهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفي هذه الآية دلالة على أنّ إسقاط العقاب عند التوبة تفضيل من الله إذ لو كان واجبا لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ مع قبول توبتهم ووقايتهم النار ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ على ألسن أنبيائك ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ ليكمل انسهم ويتمّ سرورهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على ما يشاء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالك.

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أي: ومن تقه عذاب السيّئات والمعاصي ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ يوم القيامة لأنّ من انصرف عنه شرّ معاصيه فقد تفضّل وأنعم عليه ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ والظفر بالبغية والفلاح.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: «آمنوا بولايتنا»[1] وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«إنّ لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما يسقط الريح الورق أوان سقوطه وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾.** الآية قال عليه السلام: **«استغفارهم الله لكم دون هذا الخلق»**[2]. والقميّ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ يعني رسول الله والأوصياء من بعده يحملون علم الله ومن حوله يعني الملائكة يستغفرون للّذين آمنوا أي: لشيعة آل محمّد وقوله: ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي: للّذين تابوا من ولاية غيرهم مثل بني اميّة ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ يعني ولاية وليّ الله ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ يعني من تولّى عليّا وذلك صلاحهم ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لمن نجاه الله عن ولاية غير عليّ وأولاده المعصومين[3].

وفي «الكافي» مرفوعا: **«إنّ الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطي خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها»** ثمّ تلا هذه الآية.[4]

وهاهنا نكتة وهي أنّ الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ ربّنا كما قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ﴾ الآية، وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾[5] وقال

١ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٣٧.

٢ـ الكافي، ج٨، ص٣٤، أنظر: دعائم الإسلام، ج١، ص٧٧.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٥، وانظر: تفسير نورالثقلين، ج٤، ص٥١٢.

٤ـ الكافي، ج٢، ص٤٣٢، ووسائل الشيعة(الإسلامية)، ج١١، ص٣٥٨.

٥ـ سورة الأعراف: ٢٣.

نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[1] الآية، وقال أيضا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[2] وقال أيضا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[3] الآية، وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[4] وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[5] وقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[6] وقال موسى: في قصّة الوكز ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[7] وقال سليمان: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾[8] وقال عيسى: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾[9] وقال الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[10] الشَّيَاطِينِ﴾[10] وحكى سبحانه عن المؤمنين أنهم قالوا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ وأعادوا إلى آخر السورة[11] هذه اللفظة خمس مرات فظهر أنّ الترتيب في الدعاء أن ينادي العبد ربّه بقوله: يا ربّ. فإن قيل: إنّ لفظ الله أعظم من لفظ الربّ فلم صار لفظ الربّ مختصا بوقت الدعاء؟

فالجواب أنّ المناسب في المقام لفظ الربّ فإنّ العبد يقول: كنت في كتم العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني إلى الوجود وربّيتني فاجعل

١ـ سورة هود: ٤٧.

٢ـ سورة نوح: ٥.

٣ـ سورة ابراهيم: ٤١.

٤ـ سورة البقرة: ٢٦٠.

٥ـ سورة ابراهيم: ٤١.

٦ـ سورة البقرة: ١٢٨.

٧ـ سورة القصص: ١٦.

٨ـ سورة الشعراء: ٨٣.

٩ـ سورة المائدة: ١١٤.

١٠ـ سورة المؤمنون: ٩٧.

١١ـ سورة آل عمران: ١٩١.

تربيتك لي شفيعا إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك القديم إليّ فبعد هذا الخطاب والنداء إلى ربّه فليحسن الداعي الثناء عليه ثمّ يستدعي حوائجه والعقل يحكم برعاية هذا الترتيب وذلك لأنّ ذكر اللّه بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس فكما أنّ ذرّة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكلّ ذهبا إبريزا فكذلك إذا وقعت ذرّة من إكسير معرفة اللّه وجلاله على جوهر الروح النطقيّة انقلب من نحوسة النحاس إلى صفاء القدس والنقاوة ومتى أشرق نور معرفته في جوهر الروح يصير الروح أقوى وأكمل فتأثير القويّ أقوى فكان حصول الشيء المطلوب بسبب هذه القوّة أمكن وأقرب وهذا هو السبب في تقديم الثناء على اللّه على الدعاء.

وهاهنا بحث آخر وهو أنّ العلم يصحّ أن يسع كلّ شيء لكنّ الرحمة كيف يسع كلّ شيء لأنّ المضرور حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة.

فالجواب أنّ كلّ موجود فقد نال من رحمة اللّه نصيبا وذلك لأنّ الموجود إمّا واجب وإمّا ممكن أمّا الواجب فليس إلّا اللّه وأمّا الممكن فوجوده من اللّه بإيجاده وذلك رحمة فلا موجود إلّا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة اللّه والمقصود بالذات من الخلق والتربية الرحمة والإحسان ولهذا قالت الحكماء: الخير مراد مرضيّ والشرّ مراد مكروه والخير مقضيّ به بالذات والشرّ مقضيّ به بالعرض وفي هذا البيان غور عظيم.

فإن قيل: إنّ قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقولهم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ وقد فسّرتم أي: قهم عذاب السيّئات فما هذا التكرار الخالي عن الفائدة؟

فالجواب أنّ عذاب الجحيم يتناول عذاب جهنّم وعذاب السيّئات

يشمل عذاب الموقف والقبر ومواقف القيامة أو المراد من قولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المراد الحفظ من العقائد المفسدة في الدين والأعمال الفاسدة كما هو المفهوم من ظاهر الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّ الملائكة ينادون الكفّار يوم القيامة والمراد من الملائكة خزنة جهنّم ينادون الكفّار وهم في النار: لمقت الله ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾ وذلك أنّهم مقتوا أنفسهم الأمّارة بالسوء الّتي بسبب اتّباعها وقعوا فيما وقعوا أو المعنى أنّ الكفّار مقت بعضهم بعضاً من الأحباب كقوله: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[1] والمقت أشدّ البغض فتقول الملائكة لهم عند ذلك: لمقت الله إيّاكم في الدنيا أكبر وأعظم من مقتكم والسبب أنكم كنتم إذ تدعون من جهة الأنبياء ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فتأبون ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ اتّباعا لأنفسكم ومسارعة إلى هواها أو اقتداء بأخلّائكم المضلّين.

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن
سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ
تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ
أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

المعنى: بيّن سبحانه أنّ الكفّار لمّا خوطبوا بهذا الخطاب وهو قوله:

١ـ سورة العنكبوت: ٢٥.

﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ الآية ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أنّ الإماتة الاولى في الدنيا بعد الحياة والثانية: في القبر قبل البعث، والإحياء الاولى: في القبر للمساءلة والثانية: في الحشر، وهو اختيار بعض علماء أهل الجماعة مثل السدّيّ والبلخيّ.

وثانيها: أنّ الإماتة الاولى حال كونهم نطفا فأحياهم الله في الدنيا ثمّ أماتهم الموتة الثانية ثمّ أحياهم للبعث فهاتان حياتان وموتتان ونظيره قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وهذا قول ابن عبّاس وقتادة والضحّاك واختاره أبو مسلم.

وثالثها: أنّ الحياة الاولى في الدنيا والثانية في القبر ولم يرد الحياة يوم القيامة والموتة الاولى في الدنيا والثانية في القبر عن الجبّائيّ وقوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فاثنتين نعت لمصدر محذوف والتقدير: إماتتين وإحياءتين اثنتين وفي تفسير عليّ بن إبراهيم قال الصادق عليه السلام: **«ذلك في الرجعة»**.

ثمّ حكى الله عنهم أنّهم قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فالفاء فيه معنى السببيّة وذلك أنّهم لمّا كانوا منكرين في البعث فلمّا شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرّتين فلا جرم وقع هذا الاعتراف كالمسبّب عن تلك الإماتة والإحياء.

ثمّ حكى سبحانه عن قولهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ مِنْ النار ﴿سَبِيلٍ﴾ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك وفي مثل هذا الكلام نوع تلطّف في الاستدعاء ويعادل الاستفهام: أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل وفي الكلام حذف تقديره: فأجيبوا بأنّه لا سبيل لكم إلى الخروج.

وينبئ عن هذا الجواب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي: ذلكم العذاب الّذي حلّ بكم بسبب أنّه إذا قيل لا إله إلّا الله استكبرتم وقلتم أجعل الآلهة إلها واحدا وجحدتم ذلك ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ معبود آخر

من الأصنام والأوثان ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ وتصدّقوا وتقبلوا ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾ في ذلك والفصل بين المحقّ والمبطل ﴿لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ القادر على كلّ شيء الّذي ليس فوقه من هو أقدر منه أو من يساويه في مقدوره ونقلت هذه اللفظة من علوّ المكان إلى علوّ الشأن كما يقال: استعلى فلان بالحجّة والقوّة.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ ولمّا كان أهمّ المهمّات رعاية مصالح الأديان من عباده فراعى بإظهار الحجج والبيّنات وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان فالآيات لحياة الأديان والأرزاق لحياة الأبدان فبيّن سبحانه في الآية أنّه أراكم بيّناته وأنزل أرزاقكم من السماء لقوام حياتكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتّعظ بهذه الأمور وليس تتفكّر في حقيقتها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ويرجع إليه ويقبل طاعته.

ثمّ أمر المؤمنين بقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: وجّهوا عبادتكم إليه وحده ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فلا تبالوا بهم ولا تعتنوا بغيظهم وكرههم.

ثمّ وصف نفسه سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ الرفيع بمعنى الرافع أي: هو رافع درجات الأنبياء والموحّدين في الجنّة وقيل: رافع السماوات السبع وقيل: معناه أنّه سبحانه عالي الصفات ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: مالك العرش وربّه وقيل: المراد من العرش الملك. ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وقيل: الروح القرآن وكلّ كتاب أنزله اللّه على نبيّ من أنبيائه وقيل: الروح الوحي هنا لأنّه يحيا به القلب أي: يلقي الوحي على قلب من يشاء ممّن يراه أهلا له يقال: ألقيت عليه كذا أي: فهّمته وقيل: إنّ الروح جبرئيل يرسله اللّه بأمره وقيل: الروح هنا النبوّة. ﴿لِيُنذِرَ﴾ بما اوحي إليه ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي:

لينذر اللّه الناس أو لينذر النبيّ الناس وقرئ بالتاء للخطاب للنبيّ أي: لتنذر الناس العذاب يوم القيامة لأنّه يتلاقى فيه الأرواح والأجسام أو يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء وأهل الأرض وقيل: يلتقي فيه الأوّلون والآخرون والخصم والمخصوم وقيل: يلتقي فيه الخالق والمخلوق، عن ابن عبّاس، يعني أنّه يحكم بينهم. وقيل: يلتقي المرء وعمله والكلّ مراد.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ من قبورهم بدل من يوم التلاق أي، خارجون من قبورهم وظاهرون ولا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعا صفصفا وليس عليهم ثياب إنّما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث: يحشرون عراة حفاة[1] ويمكن أن يكون المعنى كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[2].

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ فيجازي كلًّا بعمله إن خيرا فخير وإن شرًا فشرّ ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾[3] فإن قيل: إنّ اللّه لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيّام فما معنى التقييد بذلك اليوم؟ لأنّهم كانوا يتوهّمون أنّ اللّه لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم وهو غير عالم بالجزئيّات فهم في ذلك اليوم صائرون من الانكشاف والبروز إلى حال لا يتوهّمون فيها مثل ما يتوهّمونه في الدنيا قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ والتقدير ينادي فيه لمن الملك وهذا النداء في أيّ الأوقات يحصل فيه قولان: الأوّل: قال المفسّرون: إذا

١ـ الكشاف، ج٣، ص٤١٩، وتفسير الرازي، ج٢٧، ص٤٥، وتفسير أبي السعود، ج٧، ص٢٧١.

٢ـ سورة الطارق: ٩.

٣ـ سورة الحاقة: ١٨.

٤ـ سورة السجدة: ٢٢.

هلك كلّ من في السماوات ومن في الأرض فيقول الربّ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ يعني يوم القيامة ولا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ قال محمّد بن كعب القرظي: يقول الله ذلك بين النفختين حين يفني الخلائق كلّها والقول الثاني: أنّه تعالى يقول وذلك يوم الطلاق يوم يبرز العباد من قبورهم فيقرّ المؤمنون والكافرون بأنّه «لله الواحد القهّار».

وإنّما خصّ ذلك اليوم بأنّه له الملك لأنّه قد ملك العباد بعض الأمور في الدنيا ولا يملك أحد شيئا في ذلك اليوم لأنّه تعالى يملك جميع الأمور من غير تمليك مملّك وقد أنكر بعض أنّ هذا النداء يقع وقت هلاك الكلّ بل قالوا: إنّ الآية لا تدلّ على حصول النداء في ذلك الوقت بل يقع يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كلّ نفس بما كسبت والناس في ذلك الوقت أحياء بل يستفاد من الآية أنّ النداء يقع في يوم هم بارزون.

ثمّ إنّ الكلام لا بدّ فيه من فائدة وإنّما يحسن تكلّمه حال كون المتكلّم وحشره إمّا لأنّه يحفظ به شيئا كالّذي يكرّر على الدرس أو لأجل أنّه يحصل له سرور بما يقوله ويستلذّ به وكلّها في حقّ الله محال ولو ذكر في ذلك الوقت لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر فذلك أيضا ممنوع لأنّه لا تكليف ولا مكلّف نعم يمكن أن يكون النداء وقت فناء البشر دون الملائكة فيكون في ذلك الوقت وقوع النداء لمصلحة من المصالح.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ تجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وفي الحديث إنّ الله تعالى يقول: «**أنا الملك الديّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتّى أقصّه منه**» ثمّ تلا هذه الآية. ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ أي: لا ظلم لأحد على أحد ولا ينقص من ثواب أحد ولا يزاد في عقاب أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

﴿ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره.

قال القاضي: هذه الآية صريحة قويّة في إبطال قول المجبّرة لأنّه تعالى إذا خلق في الكافر الكفر ثمّ عذّبه عليه فهذا هو عين الظلم.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

أمر سبحانه أن يخوّف المكلّفين يوم القيامة فقال:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: الدانية وهو يوم القيامة لأنّ كلّ ما هو آت دان قريب ويوم دنوّ المجازاة والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر والآزفة نعت لمحذوف مؤنّث على تقدير يوم القيامة.

ويوم الآزفة يوم مسارعتهم دخول النار فإنّ عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها من شدّة الخوف وقيل: يوم الآزفة يوم حضور الموت والّذي يدلّ على هذا المعنى أنّه تعالى وصف القيامة بأنّه يوم التلاق ويوم هم بارزون ثمّ قال: بعده ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب وأيضا الصفات المذكورة بعد قوله، ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ لائقة بيوم حضور الموت.

واختلفوا في أنّ المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ كناية من شدّة الخوف أو هو محمول على ظاهره؟ قيل: كناية عن شدّة الخوف وقيل: بل هو محمول على ظاهره والقلوب تنتزع من مواضعها بسبب شدّة الخوف ويبلغ الحناجر حقيقة فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفّسوا وقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غمّا

وغيظا وهو حال عن أصحاب القلوب والقلوب كاظمة على غمّ وكرب مع بلوغها موضع الحنجرة. وأتى بلفظ جمع السلامة لأنّه وصف القلوب بالكظم الّذي هو من أفعال العقلاء كما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1] وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2].

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبيّن سبحانه أنّه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته.

وهاهنا بحث وهو أنّ أكثر المعتزلة احتجّوا بهذه الآية في نفي الشفاعة على المذنبين. وأجاب أهل الجماعة بوجوه:

الأوّل: أنّه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدلّ على نفي الشفيع ألا ترى أنّك إذا قلت: ما عندي كتاب يباع فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب ولفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة فهذا يدلّ على أنّه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه اللّه ومعلوم أنّه ليس في الوجود أحد أعلى حالا من اللّه حتّى يقال: إنّ اللّه يطيعه.

الوجه الثاني: في الجواب أنّ المراد من الظالمين هاهنا الكفّار لأنّ الآية في بيان زجر الكفّار الّذين يجادلون في آيات اللّه فوجب أن يكون مختصّا بهم ومعلوم أنّه لا شفاعة في حقّ الكفّار.

الثالث: أنّ لفظ الظالمين إمّا أن يفيد الاستغراق وإمّا أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم ويدخل في المجموع الكفّار وسلّمنا أنّ الشفاعة غير حاصلة للكافر فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفا بهذه

١ـ سورة يوسف: ٤.

٢ـ سورة الشعراء: ٤.

الصفة ومعلوم أيضا أنّ بعض الموصوفين بهذه ليس لهم شفيع وهم الكافرون.

وأجاب المستدلّون عن الجواب الأول فقالوا: يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكلّ أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأنّ المطيع أدون حالا من المطاع وليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله حتّى يقال: إنّ الله يطيعه فكان حمل الآية عليه إخراجا لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الإجابة قال الشاعر:

ربّ من انضجت غيظا صدره ... قد تمنّى لي موتا لم يطع

أي: لم يجب. وأمّا الجواب عن الجواب الثاني: بأنّ لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم أقصى ما في الباب أنّ هذه الآية وردت لذمّ الكفّار إلّا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فحينئذ إنّ قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يفيد أنّ كلّ واحد من الظالمين محكوم عليه بأنّه ليس له حميم ولا شفيع يطاع.

وأجيبوا عن الردّ الأول بأنّ القوم كانوا يقولون في الأصنام: إنّها شفعاؤنا عند الله بغير إذن ولهذا السبب ردّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فهذا يدلّ على أنّ القوم اعتقدوا أنّه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله نفى تلك الطاعة بقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية.

وأيضا أجيبوا عن الكلام الثاني: بأنّ الأصل في حرف التعريف أن ينصرف المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه وقد حصل في الآية معهود سابق وهم الكفّار الّذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليه وعن الكلام بأنّ قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يحتمل عموم السلب ويحتمل سلب

العموم فعلى التقدير الأول يكون المعنى: إنّ كلّ واحد من الظالمين محكوم عليه بأنّه ليس له حميم ولا شفيع وأمّا على تقدير سلب العموم يكون المعنى: إنّ مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع فحينئذ لا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كلّ واحد من آحاد ذلك المجموع كما أنّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إن حملناه على أنّ كلّ واحد منهم محكوم عليه بأنّه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في الكلام لأنّ كثيرا ممّن كفر فقد آمن بعد ذلك أمّا لو حملناه على أنّ مجموع الّذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق ويخلص عن الخلف فلا جرم حملت الآية على سلب العموم ولا نحملها على عموم السلب فكذا قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب فسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية.

أقول: والحقّ أنّه نعم ما تدارك أهل الجماعة من الجواب في الردّ على المعتزلة في إثبات الشفاعة فكيف لا تكون الشفاعة لأنّه إن كان مرادكم أنّ الشفاعة لا ينال الظالم والظالم بمعنى الكافر فهذا حكم متّفق عليه بيننا وبينكم وليس فيه اختلاف وإن كان مرادكم أنّ الشفاعة لا تصيب لمن ظلم نفسه أو غيره بالمعصية والذنوب فالآية ناطقة بأنّ الشفاعة تنال غير الكافر لقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ دينه والمراد من المرضيّ الدين المسلم لأنّ الدين عند اللّه الإسلام فمن هو مرضيّ الدين بالإيمان فهو داخل في الشفاعة وأيضا الأخبار في حصول الشفاعة للنبيّ الأكرم مستفيضة وغير واحد بل هي حاصلة للمؤمنين كما قال صلى الله عليه وآله: ادخرت شفاعتي لأمّتي من أهل الكبائر[1].

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: إنّه سبحانه عالم لا يعزب

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٠١، وبحار الانوار، ج ٨، ص ٣٠.

عن علمه مثقال ذرة في السماوات ويعلم خيانة الأعين الخائنة وهو الرمز بالعين والخائنة مصدر كالخيانة مثل الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو ويعلم ما تخفي الصدور ومضمرات القلوب فحينئذ يعلم الأفعال الخفيّة من الجوارح فضلا عن الجليّة وأفعال القلوب والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحدّ كان خوف المذنب منه شديدا جدًا وقيل: الخائنة صفة النظرة إلى ما لا يحلّ.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ويوصل كلّ ذي حقّ إلى حقّه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الكفّار ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ ولا ينفعون لأحد لا لشفاعة ولا غيرها لأنّها جمادات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ سميع بالمسموعات وبصير بالمبصرات.

أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ
أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ
إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ
﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ
نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾

المعنى لمّا بالغ في الآيات السابقة في تخويف الكفّار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ليعتبروا فقال:

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ والعاقل من اعتبر بغيره فإنّ الّذين مضوا من الكفّار قبلهم كانوا أشدّ قوّة من هؤلاء الحاضرين من الكفّار وأقوى آثارا في الأرض منهم والمراد حصونهم

وقصورهم وعساكرهم فلمّا كذّبوا أنبياءهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجّلا فحذّرهم الله من مثل ذلك بهذا القول وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ لمّا نزل العذاب بهم عند أخذه ولم يجدوا من يعينهم ويخلّصهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الّذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بها ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهلكهم عقوبة على كفرهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ﴾ الانتقام منهم.

ثمّ ذكر قصّة موسى وفرعون ليعتبروا بها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بعثناه بحججنا ودلالاتنا ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ومعجزة باهرة ظاهرة نحو قلب العصا حيّة وفلق البحر ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ كان موسى رسولا إلى كافّتهم إلّا أنّه خصّ فرعون لأنّه كان رئيسهم وكان هامان وزيره وقارون صاحب جنوده وكنوزه والباقون تبع لهم وعطف السلطان على الآيات لاختلاف اللفظيّ تأكيدا وقيل: المراد بالآيات حجج التوحيد والعدل وبالسلطان المعجزات الدالّة على نبوّته.

﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ مموّه فيما يدعو إليه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: فلمّا أتاهم بالدّين الحقّ الّذي من عندنا وأمرهم بالتوحيد ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: أمروا بقتل الذكور من قوم موسى لئلّا يكثر قومه ولا يتقوّى بهم وأمروا باستبقاء نسائهم للخدمة وهذا القتل غير القتل الأوّل لأنّه أمر بالقتل الأوّل لئلّا يولد منهم من يزول ملكه على يده ثمّ ترك ذلك فلمّا ظهر موسى وأظهر أمر نبوّته عاد إلى تلك العادة فمنعهم الله عنه بالدم والضفادع والطوفان والجراد.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ومعناه أنّ جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى فهو باطل لأنّ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك

لها. ثمّ أخبر سبحانه عن نوع آخر من قبايح فرعون وقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾

المعنى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي: قال لقومه: اتركوني أقتله. وفي الآية دلالة على أنّه كان في خاصّة قومه يشيرون عليه بأن لا يقتل موسى ويخوّفونه بأن يدعو ربّه فيهلك فلذلك قال فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: كما يقولون وليستعن بدعائه في دفع القتل عنه فإنّه لا يجيء من دعائه شيء، قاله عتوًا وتكبّرا وجرأة على الله ولعلّه كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتل موسى أو لعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرّغ لتأديب أولئك الأقوام فإنّ من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجيّ حتّى يصيروا آمنين من شرّ ذلك الملك.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: إن لم

أقتله يبدّل ما يعتقدونه من إلهيّتي أو أن يتبعه قوم ويحتاج الأمر إلى أن نقاتله فيخرب البلاد وقيل: إنّ مراده بقوله: «أن يظهر الفساد» أن يعمل بطاعة اللّه ويتركون قوله. فلمّا قال اللعين هذه الكلام استعاذ موسى عليه السلام بربّه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: إنّي اعتصمت بربّي الّذي خلقني وربّكم الّذي خلقكم من شرّ كلّ متكبّر على اللّه متجبّر عن الانقياد له لا يصدّق بيوم المجازاة.

ولمّا قصد فرعون قتل موسى وعظهم المؤمن من آل فرعون وهو قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ في صدره علي وجه التقيّة قال الصادق عليه السلام: «التقيّة من ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقيّة له والتقيّة ترس اللّه في الأرض لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإيمان لقتل»[1] قال ابن عبّاس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وذلك المؤمن هو الّذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال السدّيّ ومقاتل: كان الرجل ابن عمّ فرعون وكان آمن بموسى وهو الّذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقيل: إنّه كان وليّ عهده بعده وكان اسمه حبيب وقيل: اسمه حزبيل.

قال الرجل: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات مثل العصا واليد وغيرهما وقرئ رجل بكسر الجيم كما تقول: عضد في عضد.

﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وإنّما قال ذلك على وجه التلطّف وحاصل المعنى: إن كان هذا الرجل كاذبا كان وبال كذبه عائدا عليه فاتركوه وإن كان صادقا ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾

قيل: إنّ موسى عليه السلام كان يعدهم بالنجاة إن آمنوا وبالهلاك إن كفروا ولذا

١ـ بحارالانوار، ج١٣، ص١٥٨، ومجمع البيان، ج٨، ص٤٣٧.

قال: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ لأنّهم إذا كانوا على أحد الحالين نالهم أحد الأمرين وذلك بعض الأمر لا كلّه. وقيل: استعمل البعض في موضع الكلّ تلطّفا في الخطاب وتوسّعا في الكلام والمراد الكلّ. قال الشاعر:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته   وقد يكون من المستعجل الزلل

وكأنّه قال: إن يك صادقا أقلّ ما فيه أن يصبكم بعض الّذي يعدكم وفي ذلك البعض هلاككم قال عليّ بن عيسى إنّما قال: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ على المظاهرة في الحجاج أي: إنّه يكفيكم بعضه فكيف بجميعه؟

فإن قيل: إنّه كان من الواجب أن يقال: وإن يك صادقا يصبكم كلّ الّذي يعدكم الّذي لأنّ الّذي يصيب في بعض ما يعدهم أصحاب الكهانة والنجوم أمّا الرسول الصادق الّذي لا يتكلّم إلّا بالوحي وهو صادق في كلّ ما يقول.

فالجواب هو الجواب الّذي ذكرنا والمراد أنّه لا حاجة بكم في دفع شرّه إلى القتل بل يكفيكم أن تعرضوا عن مقالته وتتركوا قتله فإن كان كاذبا فحينئذ لا يعود ضرره إلّا إليه وإن كان صادقا انتفعتم به. وفيه بيان ووجه آخر وهو أنّه‌ﷺ كان يتوعّدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الّذي يعدهم. انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يجوز أن يكون هذا حكاية عن قول المؤمن ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله وفي الكلام بيان أنّ ما هم فيه من الملك والنعمة يقتضي الشكر لله والإيمان به ولا يهدي الله إلى جنّته وثوابه من هو مسرف على نفسه ومجاوز عن الحدّ في المعصية كذّاب على ربّه.

ثمّ قال المؤمن: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ لمّا بيّن المؤمن لهم أنّه لا يجوز الإقدام على قتل

موسى ولا يجوز التكذيب على الله بادّعاء الإلهيّة خوّفهم بعذاب الله وبأسه فقال: أنتم اليوم قد علوتم الناس ولكم السلطنة في أرض مصر وما والاها فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرّضوا لبأس الله وعذابه فإنّه لا قبل لكم به وإنّما قال: ينصرنا وجاءنا لأنّه كان يظهر من نفسه أنّه منهم وهو مناصح لهم ومشارك معهم.

ولمّا قال هذا الكلام ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنّه يجب قتله حسما لمادّة الفتنة ودفعا له بالقتل ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ثمّ حكى سبحانه أنّ المؤمن ردّ هذا الكلام على فرعون.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ واعلم أنّ فرعون لمّا قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وكان المؤمن يكتم إيمانه والّذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون فلهذا السبب حصل هاهنا قولان:

الأوّل: أنّ فرعون لمّا قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لم يصرّح المؤمن بأنّه على دين موسى بل أوهم أنّه مع فرعون وعلى دينه ولكنّه زعم أنّ المصلحة تقتضي ذلك وأظهر لفرعون هذا البيان لأجل المناصحة حيلة لتخليص موسى عن القتل وأوهم لفرعون أنّ مراده من المسرف الكذّاب يريد موسى وهو يريد فرعون.

والقول الثاني: أنّه لمّا سمع من فرعون إرادة قتل موسى أزال الكتمان وأظهر دينه وشافهه بالحقّ وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: عذابا مثل يوم الأحزاب.

وقيل: القائل لذلك موسى لأنّ مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه وهذا لا يصحّ لأنّه قريب من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ والمراد بالأحزاب الأحزاب

الّذي تحزّبوا على تكذيب أنبيائهم واجتمعوا على مخالفة رسلهم وفسّرهم بقوله:

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ
(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ
مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾

الدأب العادة. المعنى: إنّي أخاف عليكم مثل عادة الأولين من اللّه في ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ حين أهلكهم اللّه واستأصلهم جزاء على كفرهم، قد حذف المضاف في الآية والتقدير: مثل جزاء دأبهم [و] مثل ﴿الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط، والخوف بسبب هلاك معجّل في الدنيا ثمّ خوّفهم أيضا بهلاك الآخر والحرمان من الجنّة وهو قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ وإنّما أوجبوا على أنفسهم العذاب والحرمان بعنادهم وكفرهم وهو سبحانه غير ظالم لخلقه وإنّما هم ظلموا أنفسهم واستحقّوا العذاب وهو غير ظالم تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا.

قالت المعتزلة: إنّ هذه الآية صريحة دالّة على أنّه سبحانه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً وتدلّ على أنّه سبحانه لا يريد ظلم أحد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثمّ يعذّبهم على ذلك الكفر لكان ظالما البتّة وإذا ثبت أنّه لا يريد الظلم ثبت أنّه غير خالق لأفعال العباد من السيّئات لأنّه لو خلقها لأرادها.

وبالجملة النوع الآخر من كلمات المؤمن ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ والتناد التفاعل من النداء يقال: تنادى القوم أي: نادى بعضهم بعضاً والأصل الياء وحذفت لدلالة الكسرة وحذف الياء حسن في الفواصل مثل يوم التلاق وهو يوم القيامة. والسبب في التسمية أنّ في ذلك اليوم ينادي فيه بعض الظالمين بعضاً بالويل وينادي فيه أصحاب الجنّة ينادون أهل النار بأن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا وكذلك أصحاب النار ينادون أصحاب الجنّة كما ذكر الله في سورة الأعراف ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[1] الآية ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾[2] أو ينادي المؤمن ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[3] والكافر ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾[4] أو ينادي فيه باللعنة على الظالمين أو لأنّه يجاء الموت بصورة كبش أملح ثمّ يذبح وينادى يا أهل القيامة لا موت فيزداد أهل الجنّة فرحا على فرحهم وأهل النار حزنا على حزنهم.

ولكن قال أبو عليّ الفارسي: التنادي مشتقّ من التناد أصله من قولهم ندّ فلان إذا هرب وهو قول ابن عبّاس قال: يندّون كما يندّ الإبل ويؤيّد هذا المعنى قوله: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾[5]. وقوله: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أيضا يؤيّد هذا القول لأنّهم إذا سمعوا زفير النار يندّون هاربين فلا يأتون قطرا من الأقطار إلّا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون إلى المكان الّذي كانوا فيه. ثمّ أكّد سبحانه التهديد بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ ومانع من عذابه ﴿وَمَن

١ـ سورة الأعراف: ٥٠.

٢ـ سورة الإسراء: ٧١.

٣ـ سورة الحاقة: ١٩.

٤ـ سورة الحاقة: ٢٥.

٥ـ سورة عبس: ٣٤.

﴿يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من يضلله الله عن طريق الجنّة فما له هاد يهديه إليها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يمكن أن يكون هذا من بقيّة كلام مؤمن آل فرعون ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله هو يوسف بن يعقوب على أنّ فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل: المراد من يوسف سبطه وهو يوسف بن إفرائيم بن يوسف الصديق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى بالبيّنات والحجج الواضحة. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ من الدّين وممّا يأمركم به من التوحيد ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ يوسف ومات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمّا إلى تكذيب رسالة من بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسولا مع الشكّ في رسالته وأقمتم على كفركم وظننتم أنّ الله لا يجدّد لكم إيجاب الحجّة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ عن طريق الجنّة والثواب ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه كافر ومجاوز عن الحدّ و﴿مُّرْتَابٌ﴾ وشاكّ في التوحيد والنبوات فالعبد ما لم يضلّ عن الدّين فإن الله لا يضلّه عن طريق الجنّة والخير لأنّه سبحانه قال: إنّما أضلّهم عن طريق الجنّة لكونهم مسرفين في المعاصي مرتابين في دينهم.

ثمّ بيّن المسرفين والمرتابين فقال: هم ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ ويسعون في دفع آيات الله وإبطالها بغير حجّة ودليل أتاهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: كبير ذلك الجدل والمخاصمة منهم بغضا وعداوة عند الله ﴿وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله والمعنى مقته الله ولعنه وأعدّ له العذاب ومقته المؤمنون وأبغضوه بذلك الجدال وأنتم جادلتم وخاصمتم في آيات الله مثلهم فاستحققتم ذلك. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي: مثل ما طبع على قلوب أولئك بأن ختم عليها علامة لكفرهم

يطبع ويفعل ذلك على كلّ مستكبر عن آيات اللّه وكلّ من يأنف على قبول الحقّ ولعلّ المراد من قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ أي: على ذي قلب والمقت والغضب والتعجّب والحياء وأمثال هذه الصفات واجبة التأويل في حقّ اللّه تعالى والكبر وأمثاله قد يضاف إلى القلب مثل قوله: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ وقال قوم: الإنسان الحقيقيّ القلب.

وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ
﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ
عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾

ثمّ بيّن سبحانه ما موّه فرعون على قومه لمّا وعظه المؤمن وخوّفه من قتل موسى ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ أي: قصرا مشيّدا بالآجرّ وقيل: مجلسا عاليا والصرح البناء الظاهر الّذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد.

﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ ثمّ فسّر تلك الأسباب ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: لعلّي أبلغ بالأسباب الطرق من سماء إلى سماء وقيل: لعلّي أبلغ أسباب طرق السماوات أو منازل السماوات وأتوصّل بها إلى مرادي وإلى علم ما غاب عنّي من امور السماوات والسبب كلّ ما يتوصّل به إلى شيء يبعد عنك ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: فانظر إليه فأراه أراد اللعين بهذا الكلام التلبيس

على الضعفة مع علمه باستحالة ذلك أو من جهله اعتقد أنّ اللّه في السماء وإنّه يقدر على بلوغ السماء. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: إنّي أظنّ أنّ موسى كاذب في قوله: أنّ له إلها غيري وهو مرسل إلينا والعجب أنّ اليهود الباحثين عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون قالوا: إنّ هامان ما كان موجودا في زمان موسى وفرعون وإنّما جاء بعدهما بزمان مديد فصدّقوا تاريخهم وكذّبوا القرآن مع أنّهم مقرّون بأنّ أحوالهم اضطربت بسبب غلبة بخت نصّر على ملكهم حتّى ضيّع توراتهم سيّما قد طال العهد بتاريخ أحوالهم فكيف يبقى اعتماد بمثل هذا التاريخ حتّى ينسب الصدق إلى التاريخ المشوّش والكذب إلى القرآن تعالى كلامه عن الكذب علوّا كبيرا.

وبالجملة لمّا حكى اللّه سبحانه عن فرعون هذه المقالة قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقرئ ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مجهولا ومعلوما أي: ومثل ما زيّن لهؤلاء الكفّار سوء أعمالهم زيّن لفرعون سوء عمله وقبيح فعله وإنّما زيّن له ذلك أصحابه وجلساؤه وزيّن له الشيطان كما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1] وامتنع عن سبيل الحقّ بسوء اختياره وكفره أو صدّ غيره عن الإيمان على المعلوميّة.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: وما كيد فرعون في إبطال آيات موسى إلّا في هلاك وخسار لا ينفعه وقرأ صاحب الكشّاف «زيّن له سوء عمله» على المعلوم فالمزيّن هو الشيطان وسوء العمل بخلاف ما قاله المجبّرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ثمّ عاد الكلام إلى ذكر نصيحة آل فرعون والكلام من بقيّة الكلام الّذي آمن به من آل فرعون وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى وقيل: إنّ القائل موسى يا

١ـ سورة الانعام: ٤٣.

قوم اتّبعوني حتّى تهتدون طريق الحقّ وهو الإيمان بالله فقال ابتداء على سبيل الإجمال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

ثمّ بيّن على سبيل التفصيل وبيّن حال حقارة الدنيا وعظّم كمال حال الآخرة فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيّام قلائل ثمّ تنقطع وتزول ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ والبقاء والدوام خيرا من المنقضي قال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا كانت الآخرة خير من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق وكما أنّ النعيم في الآخرة باق فكذلك العذاب فيها دائم والترغيب وقع في قوله بالنعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم وهو من أقوى وجوه الموعظة.

ثمّ بيّن حصول الجزاء في الآخرة ثوابا كان أو عقابا فقال: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق.

فإن قيل: كيف يصحّ هذا الكلام مع أنّ كفر ساعة يوجب عقاب الأبد؟

قلنا: إنّ الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيمانا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرّا على الكفر أبدا فلا جرم كان عقابه مؤبّدا بخلاف الفاسق فإنّه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصرّا عليه فلا جرم يكون عقاب الفاسق منقطعا والعزم على الإتيان بها أيضا ليس دائما فوقعت المماثلة وهذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فوجب رعاية المماثلة في الأحكام إلّا في مواضع التخصيص كما أنّ هذا الأصل جار في الأحكام الكثيرة مثل باب الجنايات على النفوس وعلى الأعضاء وعلى الأموال وعلى العبادات.

فلمّا بيّن أنّ جزاء السيّئة مقصور على المثل بيّن أنّ جزاء الحسنة غير

مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفيه إشارة إلى أنّ جانب الرحمة غالب على جانب العقاب وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات فمعنى الآية: إنّ كلّ من عمل صالحا وكان مواظبا على التوحيد ولم يخرج من حدّ الإيمان فإنّه يدخل الجنّة ويرزق فيها بغير حساب أي: زيادة على ما يستحقّونه تفضّلا من الله ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحساب ولكنّ المعتزلة تقول: إنّ صاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن ولا يدخل في هذا الوعد.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

ثمّ استأنف ذلك المؤمن ونادى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أي: أنا أدعوكم إلى الإيمان الّذي يوجب النجاة ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى﴾ الكفر الّذي يوجب ﴿النَّارِ﴾ ومعنى ﴿مَا لِي﴾ أي: مالكم كما يقول الرجل: مالي أراك حزينا معناه مالك حزيناً.

ثمّ فسّر الدعوتين بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي

بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا يجوز حصول العلم به إذ لا يجوز قيام الدلالة على إثبات شريك للّه لا من طريق السمع ولا من طريق العقل ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي: إلى عبادة القادر الّذي يعذّب ويغفر.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا قطع ولا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام ولا تزال باطلة ولا ينقطع ذلك فينقلب حقّا وحاصل معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ في الآية أي: كما أنّ معنى لا بدّ لك أن تفعل كذا أنّه لا بدّ لك من فعله فكذلك لا جرم أنّ دعوتهم باطلة وغير حاصلة ولا قطع لذلك وأنّهم أبدا يستحقّون النار ولا انقطاع لاستحقاقهم أو بمعنى كسب بمعنى أنّه ما كسب من دعوة الأصنام إلّا ظهور بطلان الدعوة والأوثان الّتي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة لأنّها جمادات والجمادات لا تدعو أحدا إلى عبادة نفسها أو ليس لها استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة فسمّيت استجابة الدعوة بالدعوة.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وارتجاعنا إلى اللّه وإنّ هذه الأصنام لا فائدة فيها البتّة وأيّ عاقل يترك عبادة اللّه الّذي هو قادر على كلّ شيء ويعبد ما لا يدعو ولا يستجيب ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضرّ؟

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة: يعني المشركين وقال مجاهد: السفّاكين للدماء أي: ووجب أنّ المسرفين الّذين أسرفوا على أنفسهم بالشرك وسفك الدماء بغير حقّها إنّهم يلازمون النار.

وقال لهم على وجه التخويف والموعظة ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: فستعلمون صحّة ما أقول لكم إذا حصلتم يوم القيامة في العذاب أو المعنى فستذكرون عند نزول العذاب بكم صحّة ما قلته لكم من النصيحة.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأتوكّل عليه وأسلّم له أمري والأمر اسم جنس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالم بأحوالهم ويستنبط من هذا الكلام أنّ

مؤمن آل فرعون قد هدّد بأمر يخافه وإنّما تعلّم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فإنّ فرعون لمّا خوّفه بالقتل قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وهذا آخر كلام مؤمن آل فرعون.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: صرف الله عنه سوء مكرهم فنجامع موسى حتّى عبر البحر معه وقيل: إنّهم همّوا بقتله فهرب إلى جبل فبعث فرعون رجلين في طلبه فوجداه قائما يصلّي وحوله الوحوش صفوفا فخافا ورجعا هاربين وقيل: المراد من قوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أنّهم قصدوا إدخاله في الكفر فوقاه الله عن ذلك لكنّ القول الأوّل أليق لأنّ قوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يؤيّد معنى الأوّل أي: أحاط بهم الغرق في البحر أو المراد النار المذكورة في قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قال الزجّاج: النار بدل من قوله: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: يعرض آل فرعون على النار في قبورهم صباحا ومساء والآية تقتضي عرض النار عليهم غدوة وعشيّا من قولهم: عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به وليس المراد منه يوم القيامة لأنّه قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وليس المراد أنّ هذا العرض في الدنيا فثبت أنّ هذا العرض إنّما حصل بعد الموت وقيل: يوم القيامة وذلك يدلّ على إثبات عذاب القبر في حقّ هؤلاء وإذا ثبت في حقّهم ثبت في حقّ غيرهم لأنّه لا قائل بالفرق لأنّ حصول هذا العذاب إنّما وقع على آل فرعون لجحودهم وكفرهم فالعذاب أيضا حاصل كما أنّهم احتجّوا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر والمراد من الغداة والعشيّ مع أنّ في القبر ليس لهم غداة وعشيّ وقت الغداة والعشيّ أي: في مثل هذا الزمانين تعرض النار عليهم فيعذّبون بها ويمكن أن يكون المعنى والمراد دوام العذاب

وكناية عن ثبوته كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1].

وعن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار يقال له: هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة». أورده البخاري[2] ومسلم في الصحيح[3] وقال أبو عبد الله عليه السلام «ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة لأنّ في نار القيامة لا يكون غدوّ وعشيّ ولكن هذا في نار البرزخ قبل يوم القيامة»[4].

قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وهذا الأمر لآل فرعون بالدخول أو أمر للملائكة بإدخالهم في جهنّم باختلاف القراءة في القطع والوصل في باب الفعل.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾

المعنى: لمّا انجرّ الكلام إلى شرح أحوال النار ذكر عقيبها المناظرات الّتي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ أي: فاذكر يا محمّد لقومك الوقت الّذي يتخاصم

١ـ سورة مريم: ٦٢.

٢ـ صحيح البخاري، ج٢، ص١٠٣، ومجمع البيان، ج٨، ص٤٤٥.

٣ـ صحيح مسلم، ج٨، ص١٦٠.

٤ـ انظر: بحارالانوار، ج٦، ص٢٨٤، وتفسير الصافي، ج٤، ص٣٤٤.

الرؤساء والأتباع ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ معاشر الرؤساء ﴿تَبَعًا﴾ وكنّا نمتثل أمركم ونجيبكم إلى ما تدعوننا إليه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنّه من شأن الرئيس الدفع عن أتباعه فهل أنتم حاملون عنّا قسطا من النار والعذاب الّذي نحن فيه؟

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: نحن وأنتم في النار ومجتمعون فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بذلك وبأن لا يتحمّل أحد عن أحد وإنّه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره لا محالة فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ثمّ عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنّم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ فيستغيثون بخزنتها ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فتقول الملائكة لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أو لم تكن القصّة والحال تأتيكم رسلكم بالحجج على صحّة التوحيد فكفرتم وعاندتم حتّى استحققتم هذا العذاب ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ جاءنا الرسل والبيّنات فكذّبناهم وجحدناهم نبوّتهم ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قالت الخزنة: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ أنتم فإنّا لا ندعو إلّا بإذن ولم يؤذن لنا فيه وقيل: فادعوا بالويل والثبور ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضياع لأنّه لا ينفع والفاء في قوله: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ فصيحة مثل قوله: فقد جئنا خراسانا.

والمراد من الملائكة حيث قالوا للكفّار: فادعوا إقناط الكفّار عن الإجابة لأنّهم يعلمون أنّ هذا الدعاء وإجابته ليس في خيّز الإمكان وليس مراد الملائكة إطماع الكفّار في الاستجابة.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

في النظم: لمّا ذكر سبحانه وقايته لموسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون عقّبه ببيان أنّه تعالى ينصر رسله والمؤمنين فقال: ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ أي: إنّ شأننا المستمرّ أن ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

تارة بالانتقام والظفر عليهم وتارة بالعذاب الاستيصال على أعدائهم وتارة بالحجّة والدلائل ولا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم من صورة الغلبة للكفّار امتحانا إذ العبرة إنّما هي بالعواقب.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم يقوم القيامة عند جمع الأوّلين والآخرين والمراد «بالأشهاد» كلّ من يشهد أعمال العباد في ذلك اليوم من ملك ونبيّ ومؤمن قال المبرّد: يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهد كأطيار وطائر ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيد كأشراف وشريف وأيتام ويتيم. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وقرئ بالتاء «لا تنفع» المعنى إنّ ذلك اليوم كما أنّه حصلت النصرة والسعادة للرسل والمؤمنين حصلت الشقاوة للظالمين بأمور ثلاثة أحدها لا يقبل منهم عذر والثاني أنّ اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال واليأس والثالث سوء الدار وهو العقاب الشديد. فإن قيل: إنّ قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدلّ على أنّهم يذكرون الأعذار إلّا أنّ الأعذار لا تنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1].

١ـ سورة المرسلات: ٣٦.

فالجواب أنّ قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدلّ على أنّهم ذكروا الأعذار بل يدلّ على أنّ عذرهم غير مقبول ولا يدلّ على أنّهم ذكروا أم لم يذكروا. ثمّ إنّ يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية، ولمّا ذكر نصرة الرسل والمؤمنين ذكر نوعا من أنواع النصرة بإتيان موسى التوراة والمراد ما آتاه اللّه من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة والنبوّة الّتي هي أعظم المناصب.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وأورثنا من بعد موسى بني إسرائيل التوراة وما فيه هداية ودلالة يعرفون بها معالم دينهم وتذكير لأهل العقل لأنّهم الّذين يتمكّنون من الانتفاع به دون من لا عقل له وتوارثوه خلفا عن سلف ويمكن أن يكون المراد من الكتاب الكتب الّتي أنزلها اللّه على أنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل والفرق بين الهدى والذكرى أنّ الهدى ما يكون دليلا على الشيء وليس شرطه أن يذكر شيئا آخر كان معلوما ثمّ صار منسيّا وأمّا الذكرى فهي الّذي يكون كذلك فالكتب السماويّة كلّها مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها وبعضها مذكّرات.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد وتحمّل المشاقّ في تكذيبهم إيّاك واحتمل أذى قومك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ما وعدك من النصر في الدنيا والثواب في الآخرة فاللّه ناصرك كما نصرهم ثمّ أمره بأن يقبل على طاعة اللّه النافعة في الدنيا والآخرة.

واعلم أنّ مجامع الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عمّا لا ينبغي والاشتغال بما ينبغي والأوّل مقدّم على أنّ التخلية مقدّمة على التحلية بحسب الرتبة الذاتيّة فوجب أن يكون مقدّما في الذكر ولو أنّ المراد امّته لأنّه ﷺ ما

صدر عنه مكروه فضلا من غير جائز.

أمّا التوبة عمّا لا ينبغي فهو قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ والمقصود التأدّب والتعبّد من الله في حقّه لمزيد الدرجات، ولتصير سنّة لمن بعده ولإظهار خضوعه في العبوديّة لا أنّه صدر منه الذنب بل تعليم للدعاء والاستغفار.

وأمّا الاشتغال بما ينبغي فهو قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ والتسبيح عبارة عن كلّ ما لا يليق به والعشيّ والأبكار قيل: صلاة العصر وصلاة الفجر وقيل: المراد من العشيّ من النصف إلى آخر النهار والأبكار عبارة عن أوّل النهار إلى النصف وقيل: المراد طرفي النهار وقيل: الأبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس قال ابن عبّاس: يريد الصلوات الخمس وقيل: المراد من الآية صلّ لهذين الوقتين إذا كان الواجب بمكّة ركعتين بكرة وركعتين عشيّاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

لمّا ذكر في أوّل السورة حال المجادلين والمكذّبين بآيات الله واتّصل البعض بالبعض في النسق نبّه سبحانه في هذه الآية على الداعية الّتي تحمّل أولئك الكفّار على المجادلة فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ﴾ حجّة ودليل إنّما يحملهم

على هذا الجدال الباطل الكبر الّذي في صدورهم وهو يحملهم على الباطل وذلك الكبر هو أنّهم لو سلّموا نبوّتك لزمهم أن يكونوا تحت أمرك ونهيك وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا تحت يدك. ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: إنّهم يريدون أن لا يكونوا تحت يدك وطاعتك لكن لا يصلون إلى هذا المراد بل لا بدّ وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالتجئ إليه من كيد من يجادلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما يقولون أو تقول ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتقرير هذا الكلام أنّ الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام أحدها: أن يقال: لمّا قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد وثانيها: أن يقال: لمّا قد على الشيء قدر على مثله فهذا صحيح لما ثبت في العقول أنّ حكم الشيء حكم مثله وثالثها: أن يقال: لمّا قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقلّ الأرذل كان أولى وهذا الاستدلال في غاية الصحّة والقوّة. ثمّ إنّ هؤلاء القوم يسلّمون أنّ خالق السماوات والأرض هو الله ويعلمون بالضرورة أنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس فكان من حقّهم أن يقرّوا بأنّ القادر على خلق السماوات والأرض يكون على إعادة الإنسان الّذي خلقه بدوا وأوّلا فهذا برهان جليّ في إفادة المطلوب ومع ذلك أكثرهم لا يعقلون ولا يعلمون.

ولمّا بيّن سبحانه بهذا التقرير الجدال المقرون بالبرهان والجدال المقرون بالكبر والجهل فرّق بين البابين بذكر المثال فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: ما يستوي المهتدي والضالّ والمستدلّ والجاهل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرئ بالياء

والتاء أي: وكذلك لا يستوي المؤمنون العاملون الصالحون ولا الكافر الفاسق في الكرامة والإهانة فذلك يستحقّ الكرامة وهذا يستحقّ الإهانة ومع ذلك قليلا يتذكّرون الناس وقلّ نظرهم فيما ينبغي لهم وما مزيدة مؤكّدة أو مصدريّة فيكون تقديره قليلا تذكّرهم.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ ولمّا قرّر سبحانه الدليل على إمكان وجود القيامة أخبر وقوعها فقال: إنّها آتية من غير ريب ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ أكثرهم لا يصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به ولجهلهم وشكّهم بإخبار اللّه.

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

ولمّا قرّر سبحانه القول بالقيامة بأنّه حقّ وصدق وكان من المعلوم أنّ الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلّا بطاعة اللّه ولمّا كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرّع والمسألة أمر اللّه به بقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ إذا اقتضت المصلحة إجابتكم وكلّ من يسأل اللّه شيئا ويدعوه فلا بدّ أنّ يشترط المصلحة في ذلك وهذا القيد مضمر في الكلام وإلّا يلزم أن يصدر منه قبيح تعالى عن ذلك لأنّه ربّما كان داعيا بما يكون فيه مفسدة.

وقيل: معنى ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ أي: اعبدوني بدليل أنّه قال بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ ولو لا أنّ الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقي لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ معنى وأيضا الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ وأجيب عنه بأنّ الدعاء هو اعتراف بالعبوديّة والذلّ والمسألة فكأنّه قيل: إنّ تارك الدعاء إنّما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبوديّة وأيضا أجيب عن قوله: إنّ الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن بأنّ ترك الظاهر لا يصار إليه إلّا بدليل منفصل فحينئذ المعنى

على ظاهره وهو معنى الدعاء.

فلو قيل: إنّكم قلتم قد شرط المصلحة في الإجابة فإذا كانت الإجابة مصلحة فما هو فيه صلاح فهو سبحانه يفعله سواء دعوتم أو لا تدعون فلا فائدة في الدعاء. فالجواب أنّ الدعاء هو اعتراف بالعبوديّة ومحقّق معناها فلو كانت الإجابة ممتنعة لعدم المصلحة فإيقاع العبوديّة حاصلة وهو أصل المطلوب.

وفي المسألة بيان آخر وهو أنّه سبحانه قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ولعلّ العبد يدعو بدعاء ليس فيه أمر يقتضي عدم المصلحة في الحكمة وليس فيه أمر يقتضي إيجابه وجوبا في الحكمة مثل أن يدعو أمرا ينفعه ولا يكون فيه ضرر في الحكمة لكن لا يستجاب لأنّه ما دعى اللّه بالقلب بل دعاه باللسان لأنّ من دعا اللّه وفي قلبه ذرّة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه وجدّه واجتهاد فهو ما دعا اللّه في الحقيقة خالصا وفي الجملة في تحصيل ذلك المطلوب معول على غير اللّه فلذلك لا يستجاب له.

في الكافي عن الباقرعليه السلام في هذه الآية قال: **«هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء»**. عنه‌عليه السلام إنّه سئل أيّ العبادة أفضل فقال: **«ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل يطلب ما عنده وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده»**[1].

وعن الصادق‌عليه السلام **«ادع ولا تقل: قد فرغ من الأمر فإنّ الدعاء هو العبادة إنّ الله يقول»** وتلا هذه الآية[2] وفي الصحيفة السجّاديّة بعد ذكر هذه الآية: **«فسمّيت دعاءك عبادة الشرك استكبارا وتوعّدت على تركه دخول جهنّم داخرين»**[3].

١ـ الكافي، ج ٢، ص٤٦٦، وانظر: وسائل الشيعة(الإسلامية)، ج ٤، ص١٠٨٤.

٢ـ الكافي، ج ٢، ص٤٦٧، وجامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٣٦٠.

٣ـ الصحيفة السجادية الكامله، ص ٢٢٤، دعاؤه لوداع شهر رمضان.

وروى معاوية بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله: جعلني الله فداك ما تقول في رجلين دخلا المسجد وكان أحدهما أكثر صلاة والآخر أكثر دعاء فأيّهما أفضل قال: «كلّ حسن» قلت: قد علمت ولكن أيّهما أفضل قال: «أكثرهما دعاء أما تسمع قول الله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ وقال: «هي العبادة الكبرى»[1].

وروى زرارة عن الصادق في هذه الآية قال: «هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء»[2].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه البيانات وهذه الرواية عن رسول الله حكاية عن العزّة إنّه تعالى قال: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما اعطي السائلين؟؟؟ إنّ العبد إذا كان مستغرقاً في ثناء الله وآلائه بحيث يمنعه ذلك الاستغراق والتذكّر عن، المسألة ذلك أفضل أقسام العبادة والدعاء وهو حقيقة الدعاء والدعاء غير منفكّ عنه النهاية إنّ المستغرق لا يطلب ولا يسأل حظًا غير هذا الحظّ العظيم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص ٤٥١، ومجمع البحرين، ج٢، ص١٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص ٤٥١، والكافي، ج٢، ص٤٦٦.

ولمّا أمر اللّه الناس بالدعاء فلا بدّ وأن يكون الداعي مسبوقا بحصول المعرفة فذكر في هذه الآية الدلائل على وجوده وقدرته فذكر من الدلائل الآفاقيّة والفلكيّة مثل تعاقب الليل والنهار فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ معاشر الخلق ﴿اللَّيْلَ﴾ وهو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في وقت الليل وتستريحون من كدّ النهار وتعبه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: وجعل لكم النهار مضيئا تبصرون فيه مواضع حاجاتكم ولو لا الإبصار لما حصل مكنة التصرّف في الأمور على الوجه الأنفع كما أنّ لولا السكون في الليل لما تخلّصت الأعضاء من الإعياء والليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحرارة والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات.

فإن قيل: إنّ الموافق لرعاية البيان أن يقال: «لتبصروا» كما قال: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وأيضا فما الحكمة في تقديم ذكر الليل مع أنّ النهار أشرف من الليل؟

فالجواب أنّ الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدميّة في الجملة فهو غير مقصود لأنّ الظلمة طبيعة عدميّة والنور طبيعة وجوديّة والعدم في المحدثات مقدّم على الوجود كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. وأمّا الجواب عن صيغة الاسم قال الشيخ عبد القاهر النحويّ في دلائل الإعجاز: إنّ دلالة صيغة الاسم على الكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في هذا البيان.

وبعد أن شرح سبحانه هاتين النعمتين من المصالح قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ونظيره قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1] وقال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2].

١ـ سورة سبأ: ١٣.

٢ـ سورة الأعراف: ١٧.

ولمّا بيّن اللّه الدلائل المذكورة على وجوده وقدرته قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال صاحب الكشّاف: ذلكم المعلوم المميّز بالأفعال الخاصّة الّتي لا يشاركه أحد فيها هو اللّه ربّكم خالق كلّ شيء أخبار مرادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهيّة والربوبيّة والخلق وأنّه لا ثاني له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: أنّى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذّبون بها ومعنى «أنى» كيف. ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما صرف وأفك وانقلب هؤلاء ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ومثل ذلك الإفك العجيب الّذي لا وجه له يؤفك كلّ من جحد بآياته ويؤفك كما أفكوا وهم من تقدّمهم من الكفّار صرفهم أكابرهم ورؤساؤهم.

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر الدليل على توحيده فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرًا تستقرّون فيها وهي منزلكم في حال الحياة وبعد الممات ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كالقبّة المضروبة على الأرض قائمة ثابتة وإلّا لوقعت علينا وجعل السماء مرتفعا ولو جعلها رتقا مع الأرض لما أمكن الانتفاع للخلق بما بينهما. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لأنّ صورة بني آدم أحسن صور الحيوان قال ابن عبّاس: خلق ابن آدم قائما معتدلا يأكل بيده ويتناول بيده وغيره يأكل بفيه بادي البشرة ولذلك سمّي بشرا منتصب القامة متناسب الأعضاء متهيّئين لاكتساب الصنائع والكمالات. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لأنه ليس شيء من الحيوان له طيّبات المآكل والمشارب مثل ما خلق اللّه سبحانه لابن آدم لأنّ له أنواع الطيّبات واللذّات من الثمار وفنون النبات واللحوم والدسوم بما لا يحصى كثرة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: خالق هذه الأشياء والمنعوت بهذه النعوت ربّكم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: جلّ اللّه وإنّه الدائم الثابت الّذي لم يزل ولا يزال.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ على الإطلاق من غير علّة وسبب وفاعل المتفرّد بالحياة الذاتيّة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ ولا تدعوا غيره واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في دعائه وعبادته خاصّة من غير أن تشاركوا معه أحدا في العبادة والدعاء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الفرّاء: وهو خبر وفي الكلام إضمار أي: احمدوه على هذه النعم وقولوا: الحمد للّه ربّ العالمين أو المعنى اعبدوه مخلصين له الدين قائلين الحمد للّه ربّ العالمين عن ابن عبّاس قال: من قال: لا إله إلّا اللّه فليقل على أثرها الحمد للّه ربّ العالمين يريد قول اللّه: مخلصين له الدين الحمد للّه ربّ العالمين.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

ثمّ أمر سبحانه نبيّه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ معبودكم الّذين تعبدونهم فأدّب المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان وبيّن أنّ وجه النهي في ذلك ما جاءه من البيّنات من صفات القدرة والخلق والرزق وصريح العقل يحكم بأنّ العبادة لا يليق إلّا لمن هو موصوف

بهذه وأنّ جعل المنحوتة والخشب المصوّرة شركاء له في المعبوديّة مستنكر في بداهة العقل. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أستسلم لأمر ربّ العالمين الّذي يملك تدبير الخلائق والعوالم.

ثمّ عاد في ذكر الأدلّة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ خلق أصلكم من تراب وأنتم نسله وتنتمون إليه أو أنّ مادّة نطفكم من التراب لأنّ مادّة النطفة من الغذاء والغذاء إمّا من الحيوان أو من النبات وكلاهما من التراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ أنشأ من ذلك الأصل الّذي كان مخلوقا من التراب النطفة وهي الماء القليل من الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي قطعة من الدم ثمّ بعد كونه علقة مراتب إلى أن ينفصل من بطن امّه وترك ذكرها لأجل أنّه ذكرها في سائر الآيات. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالا والطفل للواحد والجماعة قال الله تعالى: ﴿الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾[1] ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهاهنا تقدير أي: يبقيكم لتبلغوا أشدّكم وتكملوا ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بعد ذلك. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أن يصير شيخا ومن قبل أن يبلغ أشدّه ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ وليبلغ كلّ واحد منكم ما سمّي له من الأجل الّذي يموت عنده يفعل ذلك وقيل: هذا للقرن الّذي يقوم عليهم القيامة والأجل المسمّى هو القيامة على هذا القول ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتعتبرون وتعرفون خالقكم ومعبودكم.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: من خلقكم من تراب على هذه الأوصاف المذكورة وأحياكم هو الّذي يميتكم فأوّلكم من تراب وآخركم إلى تراب ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: يفعل ذلك من غير أن يتعذّر عليه ويمتنع له أمر أراده وحكم عليه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون

١ـ سورة النور: ٣١.

لأنّه يخاطب المعدوم بالتكوّن في عالم الأمر. فاستدلّ سبحانه بهذه الصفات على كمال القدرة وعبّر عن الإحياء والإماتة بقوله:

﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: الانتقال من كونه ترابا إلى نطفة إلى كونه علقة وعظاما في هذه الانتقالات بحسب الحكمة تحصل على التدريج قليلا قليلا وأمّا تعلّق جوهر الروح به فذلك يحدث دفعة واحدة وإنّ تلك المراتب من عالم الخلق وهذه المرتبة من عالم الأمر فلذلك وقع التعبير عنه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني المشركين الّذين يخاصمون في إبطال حجج الله كيف يقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ثمّ قال هدّدهم سبحانه بالّذين كذّبوا بالقرآن وجحدوه ولم يقلبوا ما في كتب رسلنا وكذّبوهم بأنّ عن قريب يعلمون عاقبة أمرهم إذا حلّ بهم وبال ما جحدوا فيعرفون حينئذ أنّ ما دعوتهم إليه حقّ وما ارتكبوه ضلال وفساد.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غلّ وهو طوق يدخل العنق فيه للذلّ والألم وأصله الدخول يقال: انغلّ العنق في الشيء إذا دخل فيه والغلول الخيانة لأنّها تصير كالغلّ في عنق صاحبها والسلسلة هي الحلق المنتظمة في جهة الطول.

المعنى: وصف في هذه الآية كيفيّة عقابهم فقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ﴾ أي: يكون ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ و﴿يُسْحَبُونَ﴾ بتلك في الماء المستحق بنار جهنّم ثمّ في النار يشتعلون والشجر الإيقاد في التنوّر. فإن قيل:

إنّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وسوف للاستقبال وإذ للماضي وهذا الكلام مثل قولك سوف أصوم أمس.

فالجواب أنّ إذ هاهنا بمعنى إذا لأنّ الأمور المستقبلة لمّا كانت في أخبار اللّه متيقّنة مقطوعا بها عبّر عنه بلفظ ما كان ووجد لكنّ المعنى على الاستقبال. وبالجملة فهم بهذه السلاسل والأغلال وقود جهنّم وتوقّد بهم النار.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقال لهؤلاء الكفّار إذا دخلوا النار على وجه التوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وتزعمون أنّها تنفع وتضرّ من أصنامكم الّتي عبدتموها ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ضاعوا عنّا وهلكوا ولم نقدر عليهم ثمّ يستدركون فيقولون: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ وفسّروا هذا القول منهم على وجهين: الأوّل: أنّهم أنكروا وكذّبوا أنّهم عبدوا غير اللّه كما أخبر اللّه سبحانه عنهم في سورة الأنعام أنّهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ والوجه الثاني: أنّ مرادهم من قولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي: تبيّن لنا أنّهم لم يكونوا شيئا وما كنّا نعبد بعبادتهم شيئا أي: نحن زعمنا أنّ عبادتها عبادة إلّا أنّها لم تكن. ثمّ قال اللّه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ قال القاضي عبد الجبّار: معناه أنّه سبحانه يضلّهم عن طريق الجنّة ولا يجوز أن يقال: يضلّهم عن الحجّة إذ قد هداهم في الدنيا إليها قال الطبرسيّ: معناه كما أضلّ اللّه أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يأملونه كذلك يفعل بجميع من يتديّن بالكفر فلا ينتفعون بشيء من أعمالهم[1] وقيل: يضلّ اللّه ويبطلها لأنّه لا ينفع عمل مع الكفر.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الّذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ جزاء بفرحكم في الدنيا بالكفر والمعاصي وبما كان

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٥٧، وبحارالانوار، ج٨، ص٢٦٣.

تصيبون أنبياء الله من المكاره وتأشرون وتبطرون من غير حقّ، والفرق بين الفرح والمرح أنّ الفرح قد يكون بحقّ فيحمد عليه لكنّ المرح لا يكون إلّا باطلا.

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

المعنى: يقال للكافرين: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ وهي سبعة أبواب ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مؤبّدين لا انقطاع لكربكم فيها ولا نهاية وإنّما جعل لها أبواب كما جعل لها دركات تشبيها لها بالدنيا من المطابق والسجون والمطامير فإنّ ذلك أهول وأعظم في الزجر ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ومقامهم لأنّهم تكبّروا عن عبادة الله وإنّما أطلق عليه اسم بئس وإن كان حسناً لأنّ الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل من القبيح فحسن لهذه العلّة اسم بئس عليه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأمر نبيّهﷺ بالصبر على أذى قومه والثبات على الحقّ وسمّاه صبرا للمشقّة الّتي تلحق به كما يلحق بتجرّع المرّ فإنّ ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب في الجنّة حقّ لا شكّ فيه بل هو كائن لا محالة ويمكن أن يكون إنّ وعد الله بالنصر لأنبيائه والانتقام من أعدائه حقّ.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ إن شرطيّة وما مزيدة للتأكيد أي: إن

نرك بعض الّذي نعدهم من العذاب في حياتك وإنّما قال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾ لأنّ المعجّل من عذابهم هو بعض ما يستحقّونه مثل القتل والأسر.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل الإراءة ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فنفعل بهم ما يستحقّونه من العقاب ولا يفوتوننا وحاصل المعنى: إن نعذّبهم في حياتك أو لم نعذّبهم فإنّا نعذّبهم في الآخرة أشدّ العذاب ويجوز أن يكون جواب الشرط محذوفا وتقديره: فذاك ويجوز أن يكون الجواب قوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنفعل بهم ما يستحقّونه.

ثمّ زاد سبحانه في تسلية نبيّهﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي: قد بيّنّا أحوال بعضهم لك وشرحنا لك أخبار بعضهم وبعضهم لم نبيّن لك أخبارهم أو المعنى: منهم من تلونا عليك ذكره ومنهم من لم نتل عليك ذكره واختلف الأخبار في عدد الأنبياء فروي في بعضها أنّ عددهم مائة ألف وألف وأربعة وعشرون ألفا وفي بعضها أنّ عددهم ثمانية آلاف نبيّ أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس والمذكور قصصهم أفراد معدودة.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ أي: وما استقام وما صحّ لرسول منهم أن يأتي بآية ومعجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّ المعجزات على تشعّب فنونها عطايا من الله قسّمها بينهم حسبما تقتضيه الحكمة كسائر القسم ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها ولم يكن ذلك قادحا في نبوّتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة عن قدر اللزوم ولمّا لم يكن إظهارها صلاحا لا جرم ما أظهرناها وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثمّ قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات من النبيّ فإذا جاء

أمر اللّه بالعذاب في الدنيا والآخرة أو المراد من أمر اللّه، القيامة، والمبطلون هم المعاندون الّذين يجادلون في آيات اللّه ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنّت فقضي عليهم بالعذاب وهو الحقّ.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: إنّهم خسروا الجنّة وحصّلوا النار بدلا منها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ جعل لكم من الإبل والبقر والغنم لتنتفعوا بركوبها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني إنّ بعضها للركوب والأكل كالإبل والبقر وبعضها للأكل كالأغنام وقيل: المراد بالأنعام هاهنا الإبل خاصّة كما أنّ أصل اللغة للإبل لنعومة أخفافها حين وطئها على الأرض وإنّها الّتي تركب وتحمل عليها في أكثر العادات واللام في قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟﴾ لام الغرض.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من جهة ألبانها وأصوافها وأوبارها ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بأن تركبوها وتبلغوا المواضع الّتي تقصدونها بحوائجكم ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وأي: على الأنعام وهي الإبل هنا ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: على السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في البرّ على الإبل وعلى السفن في البحر في أسفاركم فعلم اللّه سبحانه أنّا نحتاج إلى الأسفار فخلق لنا مركبا للبرّ ومركبا للبحر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: بعد أن أراكم اللّه بخلقه هذه النعم الّتي عدّدها اللّه فأيّ آية منها تنكرونها وإنّما أدخل لام الغرض على قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟﴾ وعلى قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟﴾ ولم يدخل على البواقي.

قال صاحب «الكشّاف»: الركوب في الحجّ والغزو إمّا أن يكون واجبا أو مندوبا فهذان القسمان أغراض دينيّة فلا جرم ادخل عليها اللام وأمّا الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات في الغالب فلا جرم ما ادخل عليها لام

التعليل نظيره ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[١] فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة وفي قوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ جاء على اللغة المستفيضة وتذكير هذه الكلمة شائع مستفيض[٢].

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

ثمّ نبّههم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن يمرّوا في أطرافها فينظروا حال الأمم المهلكة وهم كانوا أكثر منهم عددا وأشدّ قوّة ومالا وجاها من هؤلاء المتأخّرين ولم يستفيدوا من تلك القوّة والمكنة إلّا الخيبة والخسار والخسرة والبوار فيعتبروا بهم وأمّا بيان أنّهم كانوا أكثر من هؤلاء عددا فإنّما يعرف بالسماع والأخبار وأمّا أنّهم كانوا أشدّ قوّة وآثارا في الأرض فلأنّه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم مثل الأهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة الّتي بناها الملوك المتقدّمون كما حكى سبحانه عنهم من أنّهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ و(ما) في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ نافية أو مضمّنة معنى الاستفهام وما في قوله: ﴿مَّا كَانُوا﴾

١ـ سورة النحل: ٨.

٢ـ انظر: الكشاف، ج٣، ص٤٣٨، وتفسير الرازي، ج٢٧، ص٨٩.

موصولة أو مصدريّة ومحلّها الرفع يعني أيّ: شيء أغنى عنهم كسبهم؟

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بيّن سبحانه أنّ أولئك الكفّار لمّا جاءتهم رسلهم بالدلائل والمعجزات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والضمير في قوله: ﴿فَرِحُوا۟﴾ يحتمل أن يكون عائدا إلى الرسل وقيل: راجع إلى الكفّار بما عندهم من العلم لأنّهم قالوا: نحن أعلم منهم لا نبعث ولا نعذّب واعتقدوا أنّه علم فأطلق عليه لفظ العلم على اعتقادهم وفرحوا بالشرك الّذي كانوا عليه وأعجبوا به وظنّوا أنّه علم وهو جهل وكفر والمراد بالفرح شدّة الإعجاب فيدفعون بجهالتهم علوم الأنبياء.

ويمكن أن يكون المراد بعلمهم علوم الفلاسفة فإنّهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله صغّروا علم الأنبياء إلى علومهم، وعن سقراط أنّه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهديّون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا.

ويجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾... ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1] فلمّا جاءهم الرسل بعلوم الديانات ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزءوا بها.

هذا إذا كان الضمير راجعا إلى الكفّار وأمّا إذا قلنا: إنّ الضمير راجع إلى الأنبياء فمعناه أنّ الرسل لمّا رأوا من قومهم جهلا وإعراضا عن الحقّ وعلموا سوء عاقبة قومهم وإصابتهم الهداية فرحوا وشكروا الله على نعمة الهداية والوحي وحسن العاقبة. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وحلّ بهم ونزل جزاء استهزائهم برسلهم من العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عند

١ـ سورة النجم: ٣٠.

رؤيتهم بأس الله ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ وليس في مثل هذا الوقت ينفع الإيمان لأنهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحقّ به المدح. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: عدم قبول الإيمان حال اليأس اضطرارا عادة الله مطّردة في كلّ الأمم ثمّ قال سبحانه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهنالك مستعار للزمان أي: خسروا وقت رؤية اليأس بدخول النار. تمّت السورة بحمد الله تعالى: اللّهمّ يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزّتك أقصى نعوت الناعتين ويا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادي أسرار كبريائه أفهام المتفكّرين وأنظار المتأمّلين لا تجعلنا برحمتك وفضلك في زمرة الخاسرين المحرومين فإنّك أكرم الأكرمين بمحمّد وآله الطيّبين.

سورة فصلت

مكية، عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ «من قرأ حم السجدة أعطي بعدد كلّ حرف منها عشر حسنات»[1]. وروى ذريح المحاربيّ عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ حم السجدة كانت له نورا يوم القيامة مدّ بصره وسروراً وعاش في الدنيا مغبوطاً محموداً»[2]. ختم الله سورة المؤمن بذكر المتكبّرين وافتتح هذه السورة بمثل ذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قيل في أوّل السورة أقوال: أحدها: أنّ ﴿حمٓ﴾ اسم للسورة مبتدأ وتنزيل خبره. والثاني: قال الأخفش: تنزيل مبتدأ وخبره كتاب والثالث: قال الزجّاج: تنزيل يخصّص بالصفة وهو قوله: من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدءا وكتاب فصّلت خبره.

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥، ونورالثقلين، ج٤، ص٥٣٨.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٣، ومجمع البيان، ج٩، ص ٥.

والمراد من التنزيل أي: المنزل ومعنى المفعوليّة في المصدر شائع يقال: هذا ضرب السلطان أي: مضروبه وبناء الأمير أي: مبنيّة أي: كون السورة منزلاً من الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبرئيل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثمّ ينزل بها على محمّد صلى الله عليه وآله فلمّا حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبرئيل سمّي تنزيلاً وذلك يدلّ على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله لأنّ الفعل المقرون بالصفة لا بدّ وأن يكون مناسباً لتلك الصفة فكونه رحماناً رحيما صفتان دالّتان على كمال الرحمة فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين مشعر بعظيم النعمة.

والكتاب اسم مشتقّ من الجمع وقد جمع فيه علوم الأوّلين والآخرين و﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وفرّقت وجعلت تفاصيل وتفاريق في معان مختلفة فبعضها في وصف ذاته سبحانه للمعرفة من التنزيه والتقديس وأحوال النبات والحيوان والإنسان والتكاليف المتوجّهة نحو القلوب من العقائد ونحو الجوارح من الأفعال والثواب والعقاب وتهذيب الأخلاق ورياضة النفس، والقصص الأوّلين للعبرة والعظة ومقترن بعضه ببعض ولذا سمّي ﴿قُرْءَانًا﴾ و﴿عَرَبِيًّا﴾ قد نزل بلغتهم ليفهموا منه المراد. قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيرا للمطيعين بالثواب ونذيرا للمجرمين بالعقاب والقرآن بشارة ونذارة إلّا أنّه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملا في هذه الصفة كما يقال: شعر شاعر وكلام قائل ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ومع هذه الصفات الّتي في القرآن أكثرهم لا يلتفتون إليه.

واجتجّ القائلون بخلق القرآن بهذه الآية لأنّه وصف بكونه تنزيلاً والمنزل مشعر بالتصيير من حال إلى حال وهو معنى الحدوث، وكذلك لفظ التنزيل مصدر بمعنى المفعول والمفعول مخلوق، وكذلك معنى الكتاب

بمعنى المكتوب فيدلّ على الحدوث. والدليل الرابع: أنّ قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ يدلّ على أنّ متصرّفاً يتصرّف فيه بالتفصيل والتمييز وذلك لا يكون في القديم. الخامس: أنّه إنّما سمّي ﴿قُرْءَانًا﴾ لأنّه قرن بعض أجزائه بالبعض وذلك يدلّ على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل. السادس: وصفه سبحانه بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ وهذه النسبة لأجل أنّ هذه الألفاظ إنّما دخلت على هذا المعاني بحسب وضع العرب ولغتهم وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بدّ وأن يكون مخلوقاً.

وأجاب القائلون بأنّه قديم بأنّ هذه الوجوه الّتي ذكرتموها عائدة إلى الحروف والكلمات واللغات وهي عندنا محدثة مخلوقة إنّما الّذي ندّعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ.

والجواب عن جوابهم أنّه لو زعمتم أنّا ندّعي أنّ علم اللّه حادث فهذه فرية بلا مرية والمراد من القرآن كلام جامع حاو لمعان مقصودة يحتاج إليه النبيّ في تبليغه متّسق بهذه الحروف والتراكيب استنسخه اللّه بواسطة الملك من اللوح واللوح أيضا مخلوق فهذا المستنسخ من اللوح هو ما بين الدفّتين قد أحدثه بهذا التركيب وأنزله على نبيّه وليس موضوع القرآن إلّا هذا ولا يطلق القرآن إلّا على هذه المعنى الجامع فمن أين ثبت قدمه؟ فإن قيل: إنّه من علم اللّه فيلزم أن يكون قديماً.

قلنا: نعم علم اللّه قديم لكنّه لا ملازمة في الأمر بأن يكون القرآن قديماً كما أنّ حول العبد وقدرته من قدرة اللّه وحصوله بقدرة اللّه وقوّته وهو حادث وليس بقديم. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في أغطية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ وأكنّة جمع كنان مثل أغطية جمع غطاء والكنان هو الّذي يجعل فيه السهام وحاصل المعنى أنّا لا نفقه ما تقول وإنّما قالوا ذلك ليؤيسوا النبيّ ﷺ

من قبولهم دينه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ وثقل وصمم عن استماع القرآن ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي: بيننا وبينك حاجز في النحلة والطريقة فلا نوافقك فيما تقول والتمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الإجابة.

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: إنّ أبا جهل رفع ثوبا بينه وبين النبيﷺ فقال: «يا محمّد أنت من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب فاعمل أنت على دينك إنّنا عاملون على مذهبنا وقيل: معناه فاعمل في هلاكنا إنّا عاملون في هلاكك أو اعمل في إبطال أمرنا إنّا عاملون في إبطال أمرك».

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾

ولمّا ظهر منهم العناد وعدم القبول أمر سبحانه نبيّه بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ﴾ الآية، كان المعنى أنّي لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قهرا فإنّي بشر مثلكم ويوحى إليّ وأنا ابلّغكم الوحي فبعد أن شرّفكم اللّه بالأمر للتوحيد فتنالكم السعادة إن قبلتموه ولحقكم الخذلان إن رددتموه وذلك لا يتعلّق بنبوّتي ورسالتي.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين: العلم والعمل أمّا العلم فالعمدة فيه معرفة التوحيد وذلك لأنّ الحقّ هو أنّ ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فوجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾

ونظيره ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1] ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ عمّا لا ينبغي.

ثمّ أمر بالتحذير عمّا لا ينبغي فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ولمّا ثبت أنّ التوحيد أصل المراتب وأشرف مقام العبوديّة كان ضدّه وهو الشرك أخسّ المراتب وأرذلها فالسعادة حاصلة لمن وحّد الله واستقام في طاعته والويل لمن أشرك به وخالفه ولا يعطون الزكاة المفروضة وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالشرائع وهذا المعنى هو الظاهر.

وقيل: معناه لا يطهّرون أنفسهم من الشرك بقول لا إله إلّا الله فإنّها زكاة الأنفس عن عطاء عن ابن عبّاس وقد وصف سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2] وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾[3].

وقيل: معناه لا يقرّون الزكاة ولا يرون إيتاءها ولا يؤمنون بها وعن الكلبيّ عابهم الله بها وقد كانوا يحجّون ويعتمرون وقال الفرّاء: الزكاة في هذا الموضع أنّ قريشا كانت تطعم الحاجّ وتسقيهم وحرّموا ذلك على من آمن بمحمّد ﷺ.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: هؤلاء مع ذلك بالآخرة وبما أخبر الله به من أحوال القيامة جاحدون.

ثمّ بعد وعيد الكفّار ذكر وعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدّقوا بأمر الآخرة من الثواب والعقاب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والطاعات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لهم جزاء على ذلك غير مقطوع بل هو متّصل

١ـ سورة الأنعام: ١٥٣.

٢ـ سورة التوبة: ٢٨.

٣ـ سورة الكهف: ٨١.

دائما وهو من مننت الجبل إذا قطعته ويجوز أن يكون المعنى أنّه لا أذى فيه من المنّ الّذي بكدر الصنيعة لأنّه سبحانه سمّاه أجرا والأجر لا يوجب المنّة.

ثمّ وبّخهم سبحانه على كفرهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ـ صلّى الله عليك ـ لهم على وجه الإنكار: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام تعجيب أي: كيف تجحدون وتكفرون نعمة من خلق الأرض ﴿فِي﴾ مقدار ﴿يَوْمَيْنِ﴾ ومن كان بهذه القدرة والكمال كيف يعقل أن تجعلوا له أحجاراً منحوتة غير مدركة ﴿أَندَادًا﴾ وأمثالا تعبدونها ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ذلك الّذي بهذه القدرة قابل للمعبوديّة لأنّه خالقكم وخالق العالمين فإن قيل: إنّ من استدلّ بشيء على شيء فذلك الشيء المستدلّ به يجب أن يكون مسلّماً عند الخصم حتّى يصحّ الاستدلال به وكونه خالقا للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض وإنّما يمكن إثباته بالسمع ووحي الأنبياء وهم كانوا منازعين في الوحي والنبوّة فكيف تقرير هذه المقدّمة عليهم فحينئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه خالقا للأرض في يومين أثر؟

فالجواب أنّ كفّار مكّة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنّهم أصحاب العلوم والحقائق وكانوا قد سمعوا منهم هذه المعاني واعتقدوا أنّها حقّة فحسن هذا الاستدلال.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ وجعل في الأرض جبالا ثابتات من فوق الأرض راسخات فيها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق في الأرض من المنافع بأن أنبت فيها من غير غرس وأخرج نبتها من غير زرع وبذر يبذرونه من الكلاء وغيره وأودعها بما ينتفع العباد.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ أي: أرزاق أهلها على حسب الحاجة لقوام أبدان الناس وسائر الحيوان وقيل: قدّر في كلّ بلدة ما لم يجعله

في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: في تتمّة أربعة أيّام من حين ابتداء الخلق فاليومان الأوّلان داخلان فيها كما تقول: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيّام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما أي: تتمّة خمسة عشر يوما.

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي: حكم بأنّها ستوجد في مقدار يومين أو في نوبتين على أنّ ما يوجد في كلّ نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلّا فاليوم الحقيقيّ إنّما يتحقّق بعد وجودها وتسوية السماوات وإبداع نيرانها وترتيب حركاتها[1] انتهى كلامه.

القميّ، معنى يومين أي: وقتين ابتداء الخلق وانقضاؤه قال: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أي: لا تزل وتبقى في أربعة أيّام[2].

﴿سَوَآءٗ﴾ مرتّباً أي: في أربعة أوقات قام به العالم واستوى وهي الأوقات الّتي تخرج فيها أقوات العالم من الناس والبهائم والطير وحشرات الأرض وما في البرّ والبحر من الخلق والثمار والنبات والشجر وما يكون فيه معاش الحيوان كلّه وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء ففي الشتاء يرسل اللّه الرياح والأمطار والأنداء والطلول من السماء فيلقي الأرض والشجر وهو وقت بارد ثمّ يجيء بعد الربيع وهو وقت معتدل حارّ وبارد فيخرج وتتشذ من الشجر والأرض نباتها فيكون أخضر ضعيفا ثمّ يجيء وقت الصيف وهو حين ينضج الثمار وتصلب الحبوب الّتي هي أقوات العالم وجميع الحيوان ثمّ يجيء من بعد وقت الخريف فيطيّبه ويبرّده ويدرك ما لم يدرك قبله ولو كان كلّه شيئا واحدا لم يخرج النبات من الأرض ولم ينضج الثمار ولم يبلغ

١ـ تفسير أبي السعود، ج٨، ص٤.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٦٢.

الحبوب ولو كان كلّه صيفا لاحترق كلّ شيء نبت في الأرض ولم يكن للحيوان معاش ولو كان الوقت كلّه خريفا ولم تتقدّمه شيء من هذه الأوقات لم يكن شيء يحصل حتّى يتقوّته أهل العالم فقام بهذا الترتيب أمر العالم واستوى وبقي مستويا مرتّبا من غير تخلّف.

وسمّى الله هذه الأوقات أيّاما ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: للمحتاجين لأنّ كلّ محتاج سائل ولو أنّ في العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدر على السؤال كثير لكنّهم سائلون بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال وقيل: معنى ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: السائلين عن مدّة خلق الأرض. وقيل في علّة خلق الأرض وما فيها في أربعة أيّام إنّما خلق ذلك شيئا بعد شيء في هذه المدّة ليعلم الخلق أنّ من الصواب التأنّي في الأمور وترك الاستعجال فيها وإلّا كان قادرا على أن يخلق ذلك في أقلّ من لحظة أو ليعلم بذلك أنّها صادرة عن قادر مختار إذ لو صدرت عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة.

وروى عكرمة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أيّام أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم**».[1] فعلى هذا يكون خلقة الأرض قبل السماء.

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ
أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ
أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾
فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ

١ـ التبيان، ج٩، ص١٠٨، ونور الثقلين، ج٤، ص٥٣٩.

﴿ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه خلق السماوات ثمّ قصد إلى خلق السماوات وكانت السماء دخاناً وترتيب البيان لأجل اعتنائه سبحانه بأمر المخاطبين فبيّن ترتيب مبادي معائشهم قبل خلقهم بما يحملهم على الإيمان واليقين ويزجرهم عن الشرك فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: قصد نحوها قصداً سويّا لا يلوي على غيره ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: أمر ظلمانيّ عبّر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغّرة الّتي ركّبت هي منها أو دخان وبخار مرتفع من الماء، وقد روي أنّ العرش العظيم كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء ثمّ إنّه سبحانه أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأمّا الزبد فبقي على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثمّ فتقها فجعلها أرضين وأمّا الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السماوات وخلق جرم الأرض مقدّم على خلق السماوات لكن دحاها وخلق ما فيها مؤخّر عنه[1] لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2].

روى الحسن: أنّ اللّه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثمّ أصعد الدخان وخلق منه وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وأنشأ دحوها على وجه خاصّ يليق لها من كلّ شكل معيّن ووصف مخصوص.

١ـ بل المراد من الدحو الدفع إلى مدار فلكها وذلك بعد خلق السماء فلا إشكال لأن الدحو في اللغة الدفع.

٢ـ سورة النازعات: ٣٠.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال ابن عبّاس: المراد أنّه سبحانه قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد وتوجّه نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجّه إليه توجّهاً و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الخلقتين لا التراخي في المدّة إذ لا مدّة قبل خلق السماوات وهي دخان ظلمانيّ. والمراد من قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ الآية، إظهار قدرته والتقدير ائتيا طوعا أو كرها أي: طائعين أو مكرهين شئتما أو أبيتما كما يقول الجبّار لمن تحت يده: لتفعلنّ هذا شئت أو أبيت قال ابن عبّاس: أتت السماء بما فيها وأتت الأرض بما فيها وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا جواب لذلك القول بل المراد إنشاؤه سبحانه لهما من غير تعذّر ولا كلفة بمنزلة ما يقال للمامور افعل فيفعل من غير فعبّر سبحانه عن ذلك بالأمر والإطاعة كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وإنّما قال: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ولم يقل: طائعتين لأنّ المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء على التأنيث أو لمّا خوطبن خطاب من يعقل جمعن جمع من يعقل مثل قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] ومثل هذا القول كثير في الكلام. قال الشاعر:

ألا أنعم صباحا أيّها الرسم وانطق
وحدّث حديث الحيّ إن شئت واصدق

وقيل: إنّه تعالى ذكر السماء والأرض ثمّ ذكر الطوع والكره فيجوز أن ينصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض وتخصيص السماء بالطوع لأنّ الموجود في السماء ليس إلّا الطاعة قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] وأهل الأرض ليس الأمر في حقّهم كذلك. ثمّ إنّ السماء في

١ـ سورة الأنبياء: ٣٣.

٢ـ سورة النحل: ٥٠.

دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف والأرض ليست كذلك وإنّ السماء من حيث اللون أفضل الألوان وهي المستنيرة وأشكالها أفضل الأشكال وهي المستديرة وأجرامها أفضل الأجرام وهي الكواكب النيّرة المتلألئة بخلاف الأرض فإنّها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغيّر الذوات والصفات فلا جرم وقع التعبير عن تكوّن السماء بالطوع والأرض بالكره.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وقضاء الشيء إتمامه والفراغ منه والضمير في ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ راجع إلى السماء على المعنى ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسّراً بسبع سماوات والنصبين أحدهما على الحال والثاني على التمييز.

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: خلق في كلّ سماء بما أراد من وضعها من النيّرات وغيرها والملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد قال السدّي: ولله في كلّ سماء بيت يحجّ ويطوف به الملائكة كلّ واحد منها مقابل الكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة ما وقعت إلّا على الكعبة ولأهل كلّ سماء تكليف فمن الملائكة من هو في القيام من أوّل خلق العالم إلى قيام القيامة ومنهم ركوع لا ينتصبون ومنهم سجود لا يرفعون فالمعنى خصّ كلّ سماء بالأمر المضاف إليه والخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين وقد يكون عبارة عن التقدير والتقدير في حقّ الله هو حكمه بأنّه سيوجده وقضاؤه بذلك.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ والمراد من السماء الدنيا أقرب السماوات إلى أهل الأرض سمّي الكواكب بمصابيح لأنّه يقع الاهتداء بها وخصّ كلّ واحد بضوء معيّن وسير معيّن واقتضاء مخصوص لا يعرفها إلّا الله. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حفظناها حفظا من الشياطين الّذين يسترقون السمع فأعدّ كلّ شيطان نجما يرميه ولا يخطئه فمنها ما يحرق ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخبّلاً.

ولمّا ذكر سبحانه هذه التفاصيل قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ذلك الّذي ذكر من عجائب الخلقة تقدير الّذي هو غالب في أمره لا يمتنع عليه شيء العليم بمصالح خلقه ولا يخفى عليه شيء.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ مع هذه الحجج الدالّة على كمال قدرته ووحدانيّته ﴿فَقُلۡ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ خوّفتكم الصاعقة، والصاعقة النائرة المهلكة لأيّ شيء كان وقرئ صعقة عاد وهي المرّة من الصعق وهي في العرب اسم للنار الّتي تنزل من السماء فتحرق.

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ﴿إِذۡ﴾ متعلّقة بقوله: ﴿صَٰعِقَةٗ﴾ والتقدير نزلت بهم حين أتتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم عن ابن عبّاس يعني: به الرسل الّذين جاءوا آباءهم والرسل الّذين جاءوهم في أنفسهم لأنّهم كانوا خلف من جاء آباءهم من الرسل فيكون حينئذ الضمير في ﴿خَلۡفِهِمۡ﴾ راجعا إلى الرسل وقيل: معناه من تقدّم زمانهم ومن تأخّر ويمكن أن يكون المراد أنّ أخبار الرسل أتتهم من هاهنا وهاهنا. فإن قيل: الرسل الّذين جاءوا من قبلهم ومن بعدهم كيف يمكن وصفهم بأنّهم جاءوهم؟ نعم مثلا قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان وصدّقا الرسل الّذين قبلهما فأتيا بما أتى الرسل وكذلك فكان جميع الرسل قد جاءوهم بالأمر على الإيمان وكلّهم كانوا يأمرون الناس بالتوحيد. بـ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: إنّ الشأن والحديث قولنا لكم النهي عن عبادة غير الله.

ثمّ حكى سبحانه عن جواب الكفّار ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ واستدلّوا على كذب الأنبياء بأنّه سبحانه لو شاء إرسال الرسل إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة وقد كفروا بالرسل وجحدوا نبوّاتهم.

روي أنّ أبا جهل قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمّد فلو

التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة فكلّمه ثمّ أتانا بخبر عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: وأنا لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى عليّ وذلك أنّه كان يحضر بعض الأندية ويستمع.

فأتاه فقال: يا محمّد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطّلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ لم تشتم آلهتنا وتضلّلنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً وإن يكن بك البائة زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ أيّ بنات ممّن شئت من قريش وإن كان المراد المال جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ساكت.

فلمّا فرغ عتبة من كلامه قال ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلمّا احتبس عنهم قالوا: لا نرى عتبة إلّا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت فغضب أو قسم وقال: ولقد كلّمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولمّا بلغ ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ولقد علمت أنّ محمّدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب[1]. وبالجملة ثمّ فصّل الله أخبار الجاحدين بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وأظهروا النخوة والكبر والاستعلاء واستخدامهم غيرهم بغير حقّ جعله الله لهم بل للكفر والبغي الصرف واغترّوا بقوّتهم وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلو شاء أهلكهم فإن كانت الزيادة في القوّة توجب كون الناقص في طاعة

١ـ تخريج الأحاديث والآثار، ج٣، ص٢٢٧، وتفسير الرازي، ج٢٧، ص١١١.

الكامل فهذا الأمر توجب كونهم منقادين مطيعين لله لأنّه هو أقوى منهم ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ ودلائلنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ولا يعترفون.

ولمّا ثبت بالعقل أنّ مجامع الخصال الحميدة للعبد التعظيم للخالق والمولى والإحسان إلى خلقه فقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مضادّ لتعظيم الخالق فقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق فهم قد بلغوا في الصفات الخبيثة المذمومة الموجبة للنفي والإبطال وإلى الغاية القصوى حبّاً للدنيا. فلهذا المعنى سلّط الله العذاب عليهم فقال سبحانه:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

فأخبر سبحانه عن إهلاكهم بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفاً شديدة الصوت من الصرة وهي الصيحة ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أو البرد بحيث شدة البرد تحرق كما تحرق النار واشتقاق الصرصر من الصرير ضوعف اللفظ إشعارا بمضاعفة المعنى، وصرّر قلبت أحد الراءين صادا كما يقال: نهه نهنهة وكفف كفكف. ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ قرئ بسكون الحاء وكسرها أي: مشئومة عليهم وقيل: شديدة البرد والمعنى كان إرسال الريح في أيّام نكدات مشئومات ذوات نحوس أو ذوات غبار وتراب حتّى لا يكاد يرى بعضهم بعضاً وعلى كون النحسات شديدة البرد لأنّ العرب تسمّي البرد

نحساً. روي عن رسول اللهﷺ أنه قال: «الرياح ثمان، أربع منها عذاب: العاصف والصرصر والعقيم والسموم، وأربع منها رحمة: الناشرات والمبشّرات والمرسلات والذاريات»[١].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وعن ابن عبّاس قال: ما أرسل الله من الريح عليهم إلّا قدر خاتمي وفعلنا ذلك بهم عذاب الهوان والذلّ وهو العذاب الّذي يجزون في الدنيا في مقابلة استكبارهم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وأفضح من ذلك ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ولا يدفع عنهم أبدا قيل: إرسال الريح عليهم في الأيّام النحسات كنّ آخر شوّال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذّب قوم إلّا في يوم الأربعاء وقرئ «لتذيقهم» بالتاء أي: الريح أو الأيّام.

واستدلّ الأحكاميّون من المنجّمين بهذه الآية على أنّ بعض الأيّام قد يكون نحساً وبعضها قد يكون سعدا وقالوا: الآية صريحة في هذا المعنى.

وأجاب المتكلّمون بأنّ المعنى أنّ الأيّام ذوات غبار وتراب وأيضا قالوا: كون هذه الأيّام نحسات لأنّ الله أهلكهم فيها لا أنّها بذواتها نحسة.

وأجاب الأحكاميّون بأنّ النحسات في وضع اللغة هي المشئومات لأنّ النحس يقابله السعد والكدر يقابله الصافي. وأيضا أجابوا عن الجواب الثاني: إنّ الله أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيّام النحسات فوجب أن يكون كون تلك الأيّام نحسة مغايراً لذلك العذاب الّذي وقع فيها.

فإن قيل: كيف أنذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأنّ ذلك لا يقع في امّة محمّدﷺ وقد صرّح الله بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[٢] وجاء في الأحاديث الصحيحة أنّ الله رفع عن هذه

١ـ بحارالانوار، ج٥٧، ص٤، وتفسير الرازي، ج١٤، ص١٤١.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٣.

الامّة هذه الأنواع من العذاب؟

فالجواب أنّ قومهﷺ لمّا شاركوا وساووا قوم عاد وثمود بسبب إنكارهم التوحيد والنبوّة فاستحقّوا مثل تلك الصاعقة وتخويفهم بالعذاب مثل أولئك وجاز حدوث ما يكون من جنس ذلك.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم سبيل الخير والشرّ ونصبنا الدلائل ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ واختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الهداية وهذه الآية تدلّ على أنّهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدلّ على أنّ الكفر والإيمان يحصلان من العبد بصرف الاختيار من غير شائبة القهر والكره.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب شركهم وتكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة «وثمود» قرئ بضمّ الثاء وقرئ منوّنا وغير منوّن بالرفع والنصب والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء.

والعجب أنّ الرازيّ لمّا عثر على استدلال المعتزلة بالآية في الردّ على الجبريّة استدلّ على صحّة مذهب أهل الجبر بدليل أضعف من حجّة نحويّ وهو أنّه أثبت مدّعاه بقوله: إنّ أحدا لا يحبّ العمى والجهل مع العلم بكونه جهلا وغرض الرازيّ أنّ جهله بإجبار اللّه إيّاه ويجعل الآية من دلائل مدّعاه.

والإنصاف أنّ كلامه ما أقربه إلى الشعوذة! لأنّه بهذه التقريرات قد أثبت أنّ الكفر والإيمان يحصلان من اللّه لا من العبد ونظره أنّ أحدا لا يختار العمى مع العلم فحينئذ يلزم أنّ جميع المعاصي الصادرة من العباد غير مأخوذ بها لأنّهم لا يعتقدون أنّها جهل وعماية وكلّ حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، أي: ونجّينا صالحا ومن آمن

به من العذاب. ثمّ أخبر سبحانه عن حال الكفّار يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرّقوا والمعنى إذا اجتمعوا وقفوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاءوا إلى النار الّتي حشروا إليها والمقصود بيان أنّهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ أي: شهد عليهم سمعهم بما قرعه من الدعوة إلى الحقّ فأعرضوا عنه وأبصارهم بما رأوا من الآيات الدالّة على وحدانيّته فلم يؤمنوا وسائر جلودهم بما باشروا من المعاصي.

وفي شهادة الجوارح قولان: أحدهما: أنّه يخلق الفهم والنطق فيشهد، والثاني: أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالا يدلّ على صدور تلك الأعمال من صاحبها وتلك الأمارات تسمّى شهادة كما يقال: يشهد هذا العالم بتغيّرات أحواله على حدوثه فسمّي شهادة مجازا قال ابن عبّاس: المراد من الجلود هنا الفروج على طريق الكناية كما قال سبحانه: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾[1] وأراد النكاح وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[2] والمراد قضاء الحاجة.

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

١ـ سورة البقرة ٢٣٥.

٢ـ سورة النساء: ٤٣.

خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثمّ حكى الله عنهم أنّهم يقولون لتلك الأعضاء: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فتقول الأعضاء: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني: إنّ القادر على خلقكم وإنطاقكم في المرّة الاولى حال ما كنتم في الدنيا أنطقكم وبعثكم في المرّة الثانية.

﴿وَمَا﴾ نافية ﴿كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لم يكن تهيّأ لكم أن تستروا أعمالكم عن هذه الأعضاء لأنّكم كنتم بها تعملون قال أبو السعود: معنى الآية حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة من جهته تعالى بطريق التوبيخ أي: ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسا. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح فلذلك اجترأتم على ما فعلتم عن ابن مسعود قال: كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفران ثقفيّان وقرشيّ فقال أحدهم: أ ترون الله يسمع ما نقوله؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا فذكرت ذلك للنبيﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية، وكان الكفّار يقولون: إنّ الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنّه يعلم ما يظهر.

وحاصل المعنى إثبات أنّهم كانوا يستترون عند الإقدام على القبائح إلّا أنّ استتارهم ما كان لأجل خوفهم من شهادة الجوارح وأنّ الله يعلمه بل لأجل أنّهم كانوا يظنّون أنّ الله لا يعلم مستوراتهم من المعاصي وإنّما يعلم تعالى ما ظهر منهم علناً.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: هذا الظنّ الفاسد بربّكم

أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ جعلوا بظنّهم الفاسد ما منحوا الاستعداد به في الدارين سببا لشقاء المشركين.

القميّ عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ آخر عبد يؤمر به إلى النار فإذا امر به التفت فيقول الجبّار جلّ جلاله ردّوه فيردّونه فيقول الله: لم التفت إليّ فيقول: يا ربّ لم يكن ظنّي بك هذا فيقول: وما كان ظنّك بي؟ فيقول العبد: يا ربّ كان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنّتك قال: فيقول الجبّار يا ملائكتي لا وعزّتي وجلالي وآلائي وعلوّي وارتفاع مكاني ما ظنّ بي عبدي هذا ساعة من خير قطّ ولو ظنّ بي ساعة من خير ما روّعته أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنّة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس من يظنّ بالله عزّ وجلّ خيرا إلّا كان عند ظنّه به وذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[1].

قال الصادق عليه السلام: «ينبغي للمؤمن من أن يخاف الله خوفا كأنّه يشرف على النار ويرجوه رجاء كأنّه من أهل الجنّة إنّ الله يقول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي﴾ الآية، ثمّ قال عليه السلام: إنّ الله عند ظنّ عبده إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ»[2]. ثمّ أخبر سبحانه عن حالهم فقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإن يصبر هؤلاء على النار وآلامها وليس المراد به الصبر المحمود ولكنّه الإمساك عن الشكوى فالنار مسكن لهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ يعني: وإن يطلبوا العتبى والرضى من الله أن يرضى منهم فليس لهم طريق إلى الرضاء وما هم ممّن يقبل عذرهم ويرضى عنهم أي: إن صبروا وسكتوا أو جزعوا فالنار مأواهم كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾[3] والمعتب من يقبل

١ـ تفسير القمي، ج٧، ص٢٦٤، وتفسير الصافي، ج٤، ص٣٥٧.

٢ـ بحارالانوار، ج٧، ص٣١١، ونورالثقلين، ج٤، ص٥٤٥.

٣ـ سورة الطور:١٦.

عذره ويجاب إلى ما سأل أو المعنى وإن يستغيثوا فما هم من المغاثين.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي: هيّأنا لهم قرناء من الشياطين أو بدّلناهم قرناء سوء من الجنّ والإنس مكان قرناء الصدق الّذي أمروا بمقارنتهم فلم يعملوا ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: إنّ القرناء زيّنوا لهم أعمالهم الّتي يعملونها ويشاهدونها بين أيديهم وما خلفهم أي: يعملونها بعد وقيل: معناه زيّنوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنّه لا بعث ولا جنّة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا فزيّنوا أنّ الدنيا قديمة وأنّه لا فاعل ولا صانع إلّا الطبائع والأفلاك وقيل: المعنى إنّ القرناء زيّنوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة وما بقي من أعمالهم الخسيسة. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في محلّ النصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ والمعنى وجب عليهم الوعيد والعذاب حال كونهم كائنين في جملة امم من المتقدّمين المكذّبين أنّهم كانوا خاسرين الجنّة والثواب واستحقّوا العذاب.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)
فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)
ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
(٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ
ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)

المعنى: ثمّ عطف على ما تقدّم من ذكر الكفّار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾ الآية قال

رؤساؤهم للأتباع أو قال بعضهم لبعض يعني: كفّار قريش: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ الّذي يقرؤه محمّدﷺ ولا تصغوا إليه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللغو والباطل ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ لتغلبوه بالباطل فلا يتمكّن أصحابه من الاستماع والغوا بالتخليط من كلامكم الفاسد والمكاء والصفير وقيل: ارفعوا أصواتكم في وجهه بالشعر والرجز.

ثمّ أوعدهم الله فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدّنيا بالأسر والقتل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: نجازيهم في الآخرة بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم وهو الكفر والشرك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدّم من الوعيد ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الّذين عادوه بالعصيان والكفر وعادوا الأنبياء والمؤمنين ﴿النَّارُ﴾ فبيّن سبحانه أنّ ذلك الأسوء الّذي جعل جزاء أعداء الله هو النار. ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: دار العذاب الدائم لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ في مقابلة جحودهم بآياتنا وهو جحودهم بأنّ القرآن ليس من عند الله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وسيقول الكفّار في النار: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعنون إبليس الأبالسة وقابيل بن آدم أوّل من أبدع المعصية وإنّ أوّل من أبدع الكفر إبليس والقتل بغير الحقّ سنّة قابيل وقرئ ﴿أَرْنَا﴾ بسكون الراء لثقل الكثرة كما قالوا: في فخذ فخذ وقيل: معناه أعطنا اللّذين أضلّانا قال الخليل: إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر فالمعنى بصّرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: يكونان أسفل منّا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ تمنّوا لشدّة عداوتهم لهم وبغضهم إيّاهم بما أضلّوهم أن يجعلوهم تحت أقدامهم في الدرك الأسفل ندوسهما ونطؤهما بأقدامنا إذلالا لهم حتّى يكون عذابهم أشدّ من عذابنا.

ولمّا ذكر سبحانه وعيد الكفّار عقّبه بذكر الوعد للمؤمنين الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: وحّدوا الله وصدّقوا أنبياءه ثمّ استمرّوا على هذا الأمر ولم يشكّوا به شيئا أو المراد أنّهم استقاموا على طاعته وأداء فرائضه وقيل: معناه ثمّ استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم مخلصا ولم يعملوا عملا لغير الله بل لبست عبادته كما لبست معاصيه خوفا من الرياء.

قيل: إنّ أيّوب النبيّ كان يحيي الليل كلّه فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنّه قائم تلك الساعة. وكان بعض السالكين مثل إبراهيم النخعيّ إذا قرأ في المصحف ودخل داخل غطّاه وكان الآخر إذا دخل وهو يصلّي اضطجع على فراشه وحكي أنّ إبراهيم بن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحّاء لئلّا يشبه بالمرضى وليس عليهم اعتراض فإنّ أهل الدار أدرى بالدار.

روي عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثمّ قال: «**قد قالها فأمن ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتّى يموت فهو ممّن استقام عليها**». وروى محمّد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة فقال: «**هي والله ما أنتم عليه**». ومن المعلوم بالضرورة أنّ الاستقامة في الدّين هي أن يعتقد بقلبه أنّ لهذا العالم إلها موصوفا بجميع صفات الكمال ومنزّهاً عن النقائص ويقرّ بلسانه وأن يوافق عمله قوله وعقيدته ويبقى مستقيما عليه ولم يتغيّر بسبب من الأسباب وأن لا يتوغّل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ولا يتوغّل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، ويبقى على الخطّ المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والتفويض وكذا في الرجاء والخوف.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: عند الموت روي ذلك عن أبي عبد الله وقيل: تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله وقيل: إنّ البشرى تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت وفي

القبر وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: تقول الملائكة لهم لا تخافوا عقاب الله ولا تحزنوا على ورائكم وعلى ما خلّفتم من أهل وولد وقيل: المراد لا تحزنوا على ذنوبكم فإنّ الله يغفرها لكم وقيل: إنّ الخوف يتناول المستقبل والحزن يتناول الماضي فكان ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ فيما يستقبل و﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في دار الدنيا.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾

ثمّ إنّ الملائكة تقول للمؤمنين الّذين استقاموا بعد البشارة: ﴿نَحْنُ﴾ معاشر الملائكة ﴿أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ وأحبّاؤكم في الحياة الدنيا نتولّى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله وفي الآخرة لا نفارقكم حتّى ندخلكم الجنّة أو كنّا نتولّى حفظكم في الدنيا بأنواع المعرفة وفي الآخرة نتولّاكم بأنواع الإكرام، وقيل: المعنى نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ونحرسكم وعند الموت وفي الآخرة عن أبي جعفر عليه السلام وهذا في مقابلة قوله تعالى وما ذكره في الوعيد للكفّار حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[1]. وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشريّة بالإلهامات والمكاشفات والمقامات الحقيقيّة كما إنّ للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس وتخييل الأباطيل إليها فالملائكة أولياء

١ـ سورة فصلت: ٢٥.

للأرواح الطيّبة، والشياطين أولياء للأرواح الخبيثة العاصية. قال ﷺ: «لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات». واعلم أنّ جوهر النفس القدسيّ من جنس الملائكة والتعلّقات الجسمانيّة هي الّتي تحول بينها وبين الملائكة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من الملاذّ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ وحاصل فإنّ اللّه يحكم لكم بذلك ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: هذا الموعود به مع جلالته عطاء لكم ورزق يجري عليكم وكرامة لكم ممّن يغفر الذنوب رحمة منه لعباده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المعنى: أمن المعلوم أنّ مراتب السعادات اثنتان: التامّ وفوق التامّ أمّا التامّ فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا في ذاته فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بتكميل الناقصين وهو درجة فوق التامّ فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ إشارة إلى المرتبة الاولى فإذا فرغ من هذه المرتبة ينتقل إلى المرتبة الثانية وذلك إنّما يكون بدعوة الخلق إلى دين اللّه وهو المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وصورة الكلام صورة الاستفهام والمعنى النفي تقديره: وليس أحد أحسن قولا ممّن دعا إلى اللّه وإلى طاعته ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: أضاف إلى دعوة الأعمال الصالحة ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ويقول: أنا من المنقادين لأمر اللّه كما قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وفي الآية دلالة على أنّ الدعاء إلى اللّه من أعظم الطاعات. وفيها دلالة على أنّ الداعي يلزم أن يكون عاملا بعلمه ليكون الناس إلى القبول منه أقرب وإليه أسكن.

ومن الناس من قال: المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ هو رسول

اللهﷺ عن الحسن وابن زيد والسدّيّ وقيل: هم المؤذّنون وقيل: هو وجميع الأئمّة الدعاة الهداة إلى الحقّ، العيّاشيّ إنّها في عليّ‏عليه السلام[1].

وبالجملة لعلّ يدخل في الآية من دعا إلى طريق الحقّ وللدعوة مراتب فالكاملين في الدعوة هم الأنبياء ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم لأنّهم جمعوا في الدعوة بين الحجّة والسيف وقلّما يتّفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين ثمّ العلماء العاملين فإنّهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ولهذا السبب قالﷺ: «علماء امّتي كأنبياء بني إسرائيل»[2] فنفوس الأنبياء قد حصلت لها مزيّتان الكمال في الذات والتكميل للغير فكانت قوّتهم على الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل فالأنبياء لهم صفتان: العلم والقدرة والعلماء هم نوّاب الأنبياء في العلم في الجملة والملوك إذا استجمعت الشرائط لهم فهم نوّاب الأنبياء في القدرة والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح.

والعلماء على ثلاثة أصناف: العلماء بالله والعلماء بصفات الله والعلماء بأحكام الله أمّا العلماء بالله فهم الحكماء الّذين قال الله في حقّهم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3] وهم الأنبياء الّذين اصطفاهم الله لدينه ومعرفته ولإرشاد الخلق إلى مصالح معادهم ومعاشهم وليس المراد من الحكماء المتقوّلين في الجواهر والأعراض وأمّا العلماء بصفات الله فهم أصحاب الأصول وأمّا العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء فثبت من هذا التقرير أنّ أكمل من صدق عليه هذه الآية من الخلق

١ـ انظر: تفسير العياشي، ج١، ص٢٧٩، ومجمع البيان، ج٩، ص٢٣.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج١٧، ص٢٧٩، ومجمع البيان، ج٩، ص٢٣.

٣ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

محمّد ﷺ وعليّ عليه السلام ثمّ الأمثل فالأمثل.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: الملّة الحسنة الّتي هي الإسلام والملّة السيّئة الّتي هي الكفر أو لا تستوي الأعمال الصالحة والأعمال القبيحة أو لا تستوي الخصلة الحسنة والسيّئة مثل أن لا يستوي الحلم والغضب والعلم والجهل والمداراة والغلظة والعفو والانتقام. ثمّ بيّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعوّ فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ادفع بحقّك باطلهم بحلمك ورفقك ويعفوك إساءتهم ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنّك إذا دفعت خصومك بلين ومداراة صار عدوك الّذي يعاديك في الدّين بصورة وليّك القريب ويصير كأنّه حميمك في النسب وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ الحسنة التقيّة والسيّئة الإذاعة»[1].

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: وما يلقّى هذه الفعلة والحالة وهي دفع السيّئة بالحسنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كظم الغيظ واحتمال المكروه وصبروا في الدنيا على الأذى عن الصادق عليه السلام. ولا يؤتاها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الرأي والعقل وقيل: إلّا ذو نصيب من الثواب والخير والجنّة.

أقول: إنّ من آتاه الله قريحة قويّة ونصاباً وافياً من العلوم في القرآن عرف أنّه سبحانه كيف علّم نبيّه في إقامة الدعوة وآداب المناظرة.

وجمع في الآية طريق السلوك مع النفوس القاصرة والجدل في إثبات حجج الحقّ وكيف أدّب نبيّه بمكارم الأخلاق.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا

١ـ الكافي، ج ٢، ص٢١٧، والاختصاص، ص٢٥.

لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾
فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي
آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا
مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

النزغ شبة النخس والشيطان ينزغ الإنسان وينخسه ويبعثه على ما لا ينبغي. أي: وإن صرفك عما شرعت من الدفع بالّتي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرّه ولا تطعه وامض على شأنك واطلب الاعتصام من شرّه بالله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ بأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيّاتكم.

ثمّ ذكر دلائل التوحيد بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وحججه الدالّة على توحيده وصفاته الّتي باين خلقه بها ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ بذهاب الشمس عن بسيط الأرض وبطلوعها على وجهها على وجه مستقرّ ونظام مستمرّ ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وما اختصّا به من النور وظهر فيهما من التدبير والتسيير والتصرّف في العالم.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وإن كان فيها منافع كثيرة لأنّهما ليسا بخالقين ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وأنشاهنّ وإنّما قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لأنّ الضمير يرجع إلى الآيات لأنّه قال: ومن آياته هذه الأشياء، والضمير راجع إلى الليل والنهار والشمس والقمر وحكم جماعة ما يعقل حكم الأنثى يقال للأقلام: بريتها وبريتهنّ. وإنّما قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنّ

ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود للّه فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدو إلّا للّه الّذي خلق هذه الأشياء والمرويّ عن ابن عبّاس وجماعة أنّ موضع السجود عند قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ وعن ابن مسعود وجماعة أنّ الموضع عند قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ وهو اختيار أبي عمرو بن العلاء وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام[1].

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن توجيه العبادة إلى اللّه وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملّون ولا يفترون ولا ينفكّون عن العبادة والتسبيح لحظة واحدة.

والمشبّهة تمسّكوا بظاهر الآية بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على إثبات المكان والجهة للّه تعالى. والجواب أنّه قال: عند الملك من الجند كذا وكذا ولا يراد به قرب المكان فكذا هاهنا ويقال: عند الشافعيّ لا يقتل المسلم بالذمّي. وكذا استدلّ بعض بهذه الآية بأنّ الملك أفضل من البشر وهو استدلال الأعلى على حال الأدون. والجواب عدم تسليم الأعلويّة أوّلاً ثمّ داعية الترك في البشر وليس داعية الترك في العبادة في الملك.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من الأدلّة الدالّة على ربوبيّته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾ غبراء دارسة متهشّمة حالها حال المتواضع وقيل: المراد إنّها ميّتة يابسة لا نبات فيها قال الأزهريّ: إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل: قد خشعت ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: تحرّكت بالنبات وارتفعت قبل أن تنبت ﴿وَرَبَتۡ﴾ بكثرة ريعها وانتفخت. ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ يعني: إنّ القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢٥، وتفسير الصافي، ج٦، ص٣٤١.

بعد موتها ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنّ عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرّقة المحفوظة في علم الله ممكن لذاته والله قادر على جميع الممكنات فوجب أن يكون قادرا على إعادة الحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء وقد أخبر سبحانه بوقوعها فوجب وقوعها وهذا هو الدليل الأصليّ في المعاد. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي: إنّ الّذين يميلون عن الإيمان بآياتنا لا يخفون علينا بأشخاصهم وأقوالهم وأفعالهم وقيل: المراد من الإلحاد في الآيات تبديلهم ذلك ووضعه في غير موضعه وتحريف دلائل التوحيد من الآيات وترك الاستدلال بها.

ثمّ قال سبحانه على وجه الإنكار والتهجين لهم: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: إنّ الملحد الّذي يلقى في النار مثل أبي جهل خير والّذي يأتي آمنا يوم القيامة رسول الله، قال عكرمة: هو عمّار بن ياسر والصحيح أنّه على العموم من المؤمن والكافر. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ اللفظ الأمر ومعناه الوعيد أي: إذا علمتم أنّهما لا يستويان قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فليختر كلّ واحد منكم لنفسه ما شاء من الأمرين فإنّ العاقل لا يختار الإلقاء في النار فإذا لم يختر ذلك فلا بدّ أن يؤمن بالآيات ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعالم بأعمالكم».

ثمّ قال متهجّنا لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الّذي هو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم ثمّ أخبر سبحانه في وصف الذكر وترك خبر ﴿إِنَّ﴾ على تقدير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ يجازون بكفرهم ونحو ذلك وقيل: إنّ خبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الضمير في «إنّه» راجع إلى الذكر والقرآن أي: إنّه يجب أن يعزّ ويجلّ لأنّه لا يقدر أحد من العباد أن يأتي بمثله وعزيز بإعزاز الله إيّاه إذ حفظه من التغيير والتبديل وجعله الله على أتمّ الصفات في الإحكام.

و﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ وقيل: في هذا المعنى أقوال:

أحدها: إنّ الباطل الشيطان أي: لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقًا أو يزيد فيه باطلا.

وثانيها: أنّه لا يأتيه ما يبطله من بين يديه أي: من الكتب الّتي قبله ولا من خلفه أي: لا يجيء من بعده كتاب ينسخه.

وثالثها: أنّه ليس في أخباره عمّا مضى باطل ولا في أخباره عمّا يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلّها موافقة لمخبراتها وهو المرويّ عن الصادق والباقر عليهما السلام[1].

ورابعها: لا يأتيه الباطل من أوّل تنزيل ولا من آخره.

وخامسها: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات فلا تناقض في ألفاظه ولا يعارض ولا يزاد فيه ولا يغيّر بل هو محفوظ حجّة على المكلّفين إلى يوم القيامة.

﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي: هو تنزيل من حكيم عالم بوجوه الحكمة والمصالح حميد مستحقّ للحمد على خلقه بالإنعام عليهم، والقرآن هو من أعظم نعمه فاستحقّ به الحمد والشكر.

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢٧، وتفسير الصافي، ج٦، ص٣٤٣.

ثمّ عزّى نبيّه على تكذيبهم فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول هؤلاء الكفّار لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ للأنبياء قبلك من الجحد والتكذيب لنبوتهم وقيل: المعنى ما يقول الله لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ﴾ قاله ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو الأمر بالتوحيد ولزوم طاعته فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب وقيل: معناه ما حكاه بعده وهو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيكون على جهة الوعد لمن آمن والوعيد لمن كفر فمن الحقّ أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: إنّا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أرسلت الكلام العجميّ إلى القوم العرب ويصحّ لهم فرضا أن يقولوا: قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر لأنّا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: هلّا تبيّنت عباراته بلسان العرب حتّى نفهمه. ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: كتاب أعجميّ ونبيّ عربيّ؟ وهذا استفهام على وجه الإنكار وكانوا يقولون المنزل عليه عربيّ والمنزل أعجميّ وكان ذلك أشدّ لتكذيبهم وكان بزعمهم لهم عذرا لعدم قبولهم. وتسمّي العرب من لم يبيّن كلامه من أيّ صنف كان من الناس: أعجم وقال أبو علي: الأعجميّ الّذي لا يفصح في كلامه من العرب كان أو من العجم قالوا «زياد الأعجم» لآفة كانت في لسانه وكان عربيّا وقالوا: صلاة النهار عجماء أي: تخفى فيها القراءة ولا تبيّن.

وبالجملة بيّن الله إنّه أنزل الكتاب بلغتهم وأرسل الرسول من عشيرتهم ليكون أبلغ في الحجّة وأقلع للمعذرة. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَاءٌ﴾ للقلوب من كلّ ريب وشبهة وسمّي اليقين شفاء كما سمّي الشك مرضاً كما قال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ثقل وصمم عن

١ـ سورة البقرة: ١٠، وسورة المائدة: ٥٢ و.... .

سماعه فلا ينتفعون به فكأنّهم صمّ عنه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وعميت قلوبهم عنه لأنّهم لمّا ضلّوا عنه وجازوا عن تدبّر القرآن فكأنّه عمي لهم ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إنّهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أنّ من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم لبعد أفهامهم وشدّة اعتراضهم وبعد قلوبهم عنه.

والغرض من البيان في الآية تمثيل لهم في عدم قبولهم واستماعهم للقرآن بمن ينادي من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ لأنه آمن به قوم وكذّب به آخرون وهذه تسلية للنبيّ ﷺ عن جحود قومه له وإنكار نبوّته بأنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختصّ بقومك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقّ امّتك المكذّبة وهي العدة بتأخير عذابهم والفصل بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2] وأنّه سبحانه لا يعذّبهم وأنت فيهم ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لحكم باستيصالهم وعذابهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: إنّ قومك لفي شكّ ممّا ذكرناه موقع لهم الريبة وهو أفظع الشكّ. والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ راجع إلى القرآن.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾
إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا
مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن
مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي

١ـ سورة القمر: ٤٦.

٢ـ سورة النحل: ٦١.

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

ثمّ بيّن حال من عمل صالحا وآمن بالكتب بموجبها فلنفسه يعلمه ونفعه راجع إلى نفسه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ ضرره راجع إليه لا لغيره ولا يؤخذ أحد بذنب غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهذا الكلام على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه للعبيد وإنّما قال ذلك مع أنّه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة لأنّ من فعل الظلم وإن قلّ وهو عالم بقبحه وبأنّه غنيّ عن فعله لكان ظلّاما كما أنّه لو صدر أمر جزئيّ من القباحة من شخص كامل شريف لكان ذلك القبيح الجزئيّ من ذلك الشريف كثيرا وعظيما جدًا.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه العالم بوقت القيامة فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الّتي يقع فيها الجزاء للمطيع والعاصي ولما هدّد الكفّار بأنّ جزاء كلّ أحد يصل إليه يوم القيامة كأنّ سائلاً يقول: ومتى يكون ذلك اليوم للجزاء فقال: لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك الوقت إليه يردّ ذلك العلم.

ثمّ مثّل من علمه بمثالين فقال: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ وإفراد الثمرة يدلّ على الكثرة واستغنى به عن الجمع أي: عمّا يخرج ثمرة من أوعيتها وعلقها، والأكمام جمع كم وكم جمع كمّه وهي الكفريّ. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هذا هو المثال الثاني أي: لا تحمل أنثى من حمل ذكرا كان أم أنثى إلّا في الوقت الّذي علم سبحانه أنّها تحمل فيه فيعلم قدر الثمار وكيفيّتها وأجزاءها وطعومها وروائحها ويعلم ما في بطون الحبالى وكيفية انتقالها حالا بعد حال وأنّه عالم بالجزئيّات.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ في قولكم وزعمكم ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: يتبرّءون يومئذ من أن يكون مع الله شريك قال ابن عبّاس: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أسمعناك كقوله: ﴿وَأَذِنَتْ

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[1] بمعنى سمعت أي: أعلمناك ما من أحد منّا يشهد لهم بالشركة إذ تبرّأنا عنهم لمّا عاينّا الحال، أو المعنى إنّه ما منّا من يشاهد الشركاء لأنّهم ضلّوا عنّا وضلّت عنهم آلهتهم لا يبصرونها وقيل: المعنى أنّك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة بالشركة لأنّه إذا علمه من نفوسهم فكأنّهم أعلموه أو المعنى الإنشاء لا الإخبار بما قد كان قبل ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ وظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فبطل عنهم ما كانوا أملوه من أصنامهم وعلموا وتيقّنوا أن لا مخلص من عذاب الله وقد يعبّر بالظنّ عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان وقيل: ظنّوا أوّلا ثمّ أيقنوا أنّه لا محيص لهم عن النار. ثمّ بيّن سبحانه حال الإنسان وقيل: المراد الإنسان في الآية الكافر وهو متبدّل الأحوال متغيّر المنهج فإن أحسن بخير ونعمة انتفخ وتعظّم وإن أحسن ببلاء ومحنة ذبل وتصغّر كما قيل في المثل: هو كالقرلّى إن رأى خيرا تدلّى وإن رأى شرّا تولّى، فقال سبحانه:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: إنّه في حال الإقبال ومجيء المراد لا ينتهي قطّ إلى درجة إلّا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها وبأكثر منها وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيسا قانطاً والحاصل إنّه لا يزال يسأل الخير الّذي هو المال والغنى والصحّة والولد وإن مسّه الشر أي: الشدّة والفقر فهو شديد اليأس قنوط من الرحمة ومن إجابة الدعاء وقيل: القنوط سيّئ الظنّ بربّه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: خيرا وعافية وغنى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا بعملي ومحقوق به وقيل: هذا لي أبدا دائما ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي: لست على يقين من البعث فإن كان الأمر على ما يقولون وحمل البعث ورددت في القيامة

١ـ سورة الانشقاق: ٢ و٥.

﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة وهي الجنّة أي: سيعطين في الآخرة مثل ما أعطيت في الدنيا. ثمّ هدّد سبحانه من هذه صفته أن قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: لنقفنّهم يوم القيامة على مساوي أعمالهم وعقائدهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ شديد متراكم.

وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ
(٥١) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ
هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (٥٢) سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمۡ
فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ (٥٤)

ثمّ أخبر عن حال الإنسان الّذي تقدّم ذكره فقال: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَـَٔا﴾ وصرف وجهه وتجبّر عن الاعتراف بنعم الله ومن قرأ «ناء» فمقلوب «نائي» كقول الشاعر: «أقول وقد ناءت به غربة النوى»

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الفقر أو المرض والشدّة فهو [ذو دُعاء عَريض] كثير وإنّما قال: ﴿عَرِيضٖ﴾ ولم يقل: طويل لأنّه أبلغ فإن العرضّ يدلّ على الطول والطول لا يدلّ على العرض إذ قد يصحّ طويل ولا عرض له ولا يصحّ عريض ولا طول له فإنّ العرض الانبساط في خلاف جهة الطول والطول الامتداد في أيّ جهة كان وحاصل المعنى أنّ الكافر سئال ربّه بالتضرّع أن يكشف ما به من الضرّ والبلاء ويعرض عن الدعاء في الرخاء والنعمة والخصب. ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ قل يا محمّد لهم: أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثمّ كفرتم به فبتقدير أن يكون صحيحاً يكون دفعكم وإصراركم في عدم قبوله مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: من أضلّ منكم فوضع الموصول موضع الضمير تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الأفق ناحية من نواحي الأرض وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها والمراد من آيات الآفاق الآيات الفلكيّة والكوكبيّة وآيات الليل والنهار والأضواء والاضلال وعالم العناصر الأربعة، قال ابن عبّاس: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية وآثارهم ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر وقيل: في الآفاق ما يفتح الله له من القرى ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة وقيل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المراد ما دبّر سبحانه من لطيف صنعه وبديع حكمته في تكوين الأجنّة في ظلمات الأرحام والتركيبات الغريبة.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يظهر أنّ تعالى الحقّ ونريهم في هذه الدلائل مرّة بعد اخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر. فإن قيل: أنّ كلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يقتضي إنه تعالى ما اطّلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطّلعهم عليها بعد ذلك والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله اطّلعهم عليها قبل ذلك.

فالجواب أنّ القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء العجيبة إلّا أنّ عجائبها ممّا لا نهاية لها فهو تعالى يطّلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً وكلّما يزداد المتأمّل في هذا التركيب يزداد وقوفا فصحّ هذا الكلام. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ والمعنى أولم يكفهم أنّ ربّك شهيد على الأشياء ومحقّق لكلّ شيء وقوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على الفاعليّة أو البدليّة وقيل: المعنى أولم يكف ربّك شاهداً أنّ القرآن من عند الله.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ أَلَآ ﴾ كلمة تنبيه وتأكيد بأنّ الكفّار في شكّ من لقاء ربّهم وعقابه أي: في شكّ من مجازاة ربّهم ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ محيط أي: أحاط علمه بكلّ شيء فلا يخفى عليه شيء.

تمّت السورة بعون الله.

انتهى الجزء التاسع ويتلوه العاشر إن شاء الله.

فهرس الأحاديث

(أ)

إذا وقعت في قراءة الحواميم وقعت في روضات دمثات أتأنق ٢٨٧

أعطيت خمسا ولا أقول فخرا ٣٠

الله عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما بينهما ٧٦

إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ ٣٢٢

إنّ آخر عبد يؤمر به إلى النار فإذا امر به التفت فيقول الجبّار ٣٦١

إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة الّذين وصفوا العدل ثمّ خالفوه ٢٧٠

إنّ أعظم الناس في الصلاة ثوابا أبعدها إليها ممشى ٩١

إنّ الحسنة التقيّة والسيّئة الإذاعة ٣٦٨

إنّ الشيطان عرض لي ليفسد عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فدفعته ٢٠٧

إنّ الله تعالى أنزل عزائم الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة ٤٠

إنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلثاء ٣٥٠

إنّ الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال ٢٩٥

إنّ الله عند ظنّ عبده إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ ٣٦١

إنّ الله وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي سخّر لي الريح ١٨

إنّ الله يكتب خطوتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم ٩١

إنّ المرأة في أيّام داود إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدا ١٩٠

إنّ سليمان أمر الشياطين فعملوا له قبّة من قوارير ١٧

إنّ عبد المطّلب لمّا حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحنّ أحد ولده ١٥٦

إنّ لرسول الله اثني عشر اسما خمسة منها في القرآن ٨٣

إنّ لكلّ شيء قلبا وقلب القرآن يس ٨٢

إنّ لكلّ قول مصدّقاً من عمل يصدّقه أو يكذّبه ٥٤
إنّ لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا ٢٩٥
أنا ابن الذبيحين ١٥٥
أنا والله الإمام المبين ابيّن الحقّ من الباطل وورثته من رسول الله ٩١
أنّه بقي أيّوب في البلاء ثمان عشرة سنة ٢١١
إنّي لا آمركم في جمع عمري إلّا بشيء واحد ٤٠
إيّاكم والسرف في المال والنفقة وعليكم بالاقتصاد ٣٦

(ب)

بنا يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا ٧٦

(ت)

التقيّة من ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقيّة له ٣١٠

(ح)

الحجر الأسود يمين الله في الأرض ٢٢٤
الحمّى من فيح جهنّم ١١٦
الحواميم ديباج القرآن ٢٨٧
الحواميم ريحان القرآن ٢٨٨

(ر)

الرياح ثمان، أربع منها عذاب ٣٥٧

(س)

سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين ٩٨
سورة يس تدعى في التوراة المعمّة ٨١

(ع)

العبد لله في الحالين حتّى يأتيه اليقين ٧٠
عاش سليمان بن داود سبعمائة واثني عشر سنة ١٩

عجب ربكم من شاب ليس له صبوة وعجب ربكم من ذلكم وقنوطكم.................. ١٣٣
علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.................................. ٣٦٧
العلماء ورثة الأنبياء ٦٧
عليّ جنب الله وحجة على الخلق.................................. ٢٧٠
العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ٧٣

(ك)

كلّ معروف صدقة وما وقي به الرجل عرضه فهو صدقة ٣٥

(ل)

لا إله إلّا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي ٢٢٣
لا تتفكّروا في عظم ربكم ولكن تفكّروا فيما خلق الله ٢٩٣
لا تماروا في القرآن فإنّ المراء فيه كفر.................................. ٢٩١
لا يشفع أحد من أنبيائه ورسله يوم القيامة حتى يأذن الله في الشفاعة إلّا رسول الله.................. ٢٧
لكلّ شيء لباب ولباب القرآن الحواميم ٢٨٧
ليس من يظنّ بالله عزّ وجل خيرا إلّا كان عند ظنّه به ٣٦١

(م)

ما من أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو محتاج إلى شفاعة رسول الله.................. ٢٧
ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه.................. ٢٦٠
ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل ويطلب ما عنده ٣٢٩
المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه.................................. ١٨٧
من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليقرأ الحواميم في صلاة الليل ٢٨٧
من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه ١٧٢
من حدّث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوما.................................. ٢٧١
من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفّف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات ٨٢
من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.................................. ٢١٩
من عمّره الله ستين سنة فقد أعذر الله ٧٣
من قرأ حم السجدة أعطي بعدد كلّ حرف منها عشر حسنات ٢٤٣

من قرأ حم السجدة كانت له نوراً يوم القيامة مدّ بصره ٣٤٣
من قرأ حم المؤمن في كلّ ثلاث غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ٢٨٨
من قرأ سورة الزمر أعطاه اللّه شرف الدنيا والآخرة ٢٣١
من قرأ سورة الزمر لم يقطع اللّه رجاءه وأعطاه ثواب الخائفين الّذين خافوا اللّه ٢٣١
من قرأ سورة الصافّات في كلّ يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كلّ آفة ١٢٧
من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيّ ولا رسول إلّا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً ٥
من قرأ سورة ص أعطي من الأجر بوزن كلّ جبل سخّر اللّه لداود حسنات ١٧٣
من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة اعطي من خير الدنيا والآخرة ١٧٣
من قرأ سورة يس يريد وجه اللّه عزّ وجلّ غفر اللّه له ٨١

(ن)

نحن الّذين اصطفانا اللّه عزّ وجلّ وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كلّ شيء ٦٩
نحن الّذين يعلمون وعدوّنا الّذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب ٢٤٠
نحن جنب اللّه ٢٧٠

(و)

وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى اللّه خلفها بشرط أن لا يبلغ إلى حدّ السرف ٣٦
ومن قرأ سورة الصافّات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ جنّيّ وشيطان ١٢٧

(ي)

ينبغي للمؤمن من أن يخاف اللّه خوفاً كأنّه يشرف على النار ٣٦١

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمد ﷺ، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).
١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).
١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).
١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.

٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).
٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).
٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.
٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).
٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.
٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).
٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).
٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).
٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)
٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)
٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)
٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).
٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).
٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).
٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).
٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).
٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).
٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).
٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).
٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).
٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).
٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).

٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).

٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.

٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.

٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).

٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).

٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).

٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).

٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).

٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).

٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).

٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).

٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)

٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

۹۰ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ۱۲٤۰ هـ ق).

۹۱ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

۹۲ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ۸٥٥ هـ ق).

۹۳ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧۳ هـ ق).

۹٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

۹٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ۱۰۳۱ هـ ق).

۹٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦۹۹ هـ ق).

۹۷ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ۳۲۸ هـ ق).

۹۸ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ۱۱۱۹ هـ ق).

۹۹ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ۱۲۲۷ هـ ق).

۱۰۰ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ۹۷٥ هـ ق).

۱۰۱ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤۹ هـ ق).

۱۰۲ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ۱۰۳۱ هـ ق).

۱۰۳ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ۷۱۱ هـ ق).

۱۰٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ۸٥۲ هـ ق).

۱۰٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤۸ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة سبأ ٥
سورة فاطر ٤٧
سورة يس ٨١
سورة الصافات ١٢٧
سورة ص ١٧٣
سورة الزمر ٢٣١
سورة غافر ٢٨٧
سورة فصلت ٣٤٣
فهرس الأحاديث ٣٧٩
المصادر ٣٨٣
المحتويات ٣٩١